نسخة منسقة
مجلة الابتسامة

مجلة الابتسامة

باسم خندقجي

مِسكُ الكِفايَة

سيرة سيّدة الظلال الحُرّة

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

www.ibtesama.com

فريق العمل بقسم تحميل كتب مجانية

شكرا لمن قام بسحب الكتاب
و جزاه الله خيرا

مِسك الكفاية

سيرة سيدة الظلال الحرّة

مسك الكفاية

سيرة سيدة الظلال الحرّة

رواية

باسم خندقجي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-1257-5

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: سامح الخلف

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

توطئة

لم أكتب سوى ما انتابني من جنون وذهول
وحزن أثناء تعثري بإسمها الغامض في سِفرٍ تاريخي
لم يُلطّخها إلّا بحبر ذكورية العمياء الطاغية...

إهْـــدَاء

إلى الذين لا يقوون على رجمها...

إلى الذين تختلج في قلوبهم آثارها ونزعاتها وأحلامها...

إلى الذين يعترفون بإخمادهم الدائم لشهوتها المُستعرَّة في نفوسهم...

فمن يقوى على رجمها وجلدها من؟!...

باسم

هذه الرواية.. هذه الخيزران

محمود شقير

من لحظة فارقة في التاريخ العربي وبسرد محكم منضبط تبدأ رواية باسم خندقجي.

ثمة ناحية في جنوب الجزيرة العربية خارجة على حكم الخليفة العباسي، وقد جاءت سرية جند من جيش الخليفة أبي جعفر المنصور لإخضاعها. وثمة في موازاة هذا المشهد الدموي أسرة فقيرة الحال من شبوة في حضرموت، مات معيلها قبل عشر سنوات، وراحت الأم الوفية تعمل هي وابنها الكبير في حقل لتحصيل الرزق للأسرة. وثمة في بؤرة السرد فتاة جميلة هي بطلة الرواية التي تأخذها المقادير إلى حيث لم تكن تتوقع، لتصبح سيدة الظلال الحرة على رأي الكاتب، ولتجابه ذكورية التاريخ وتنتصر عليها.

ومن هنا، لا بد من الانتباه لتفاصيل المشهد الذي يسبق لحظة المفاجأة: فتاة ممشوقة القوام فاتنة، وأمها دائمة القلق عليها، والفتاة لا تطيق البقاء في البيت، فتذهب إلى الحقل حاملة الطعام إلى أخيها، وفي الطريق يقبض عليها أمير الجند، ويظن أنها تحمل الطعام للمتمردين على الخليفة. يدهشه جمالها، وبجملة واحدة يحكم على مسار حياتها اللاحق: أنت ستكونين هديتي إلى مولاي الخليفة.

وابتداء من هذه اللحظة الفارقة تتداح أحداث كثيرة، نرى من خلالها صراع الإرادات ومؤامرات ا لقصور وامتهان كرامات النساء، والاتجار بهن لغايات المتعة والتسري. نرى في الوقت نفسه كيف تحاول الجواري، وبالأخص أولئك اللواتي أوتين حظًّا من العلم والذكاء، أن يؤسسن لأنفسهن أوضاعاً تخرجهن من بيوت الحريم إلى ردهات القصور، وتجعل بعضهن قادرات على التحكم في

أمور الخلافة والخلفاء ولو من وراء ستار، وهو ما برعت فيه وأتقنته وتمكّنت منه سيدة الظلال التي تحوّل اسمها من المقاء بنت عطاء بن سبأ إلى الخيزران، فأصبحت لها حظوة في قصر المهدي، ابن الخليفة أبي جعفر المنصور. حظوة لم تقف عند حد، ولم تحدّها حدود.

ولولا المصادفات التي أجاد الكاتب تدبيرها، ودبّرت بعضها ظروف الواقع، أثناء رحلة السبي التي تعرّضت لها المقاء، لربما ما كان لها أن تصل إلى ما وصلت إليه في قصور الخلافة العباسية. فقد كان محكوماً عليها منذ الأيام الأولى للسبي أن تتحول من بنت حرّة إلى احتمال الانتهاء جارية نكرة في قصر خليفة أو أمير، وتعرّضت منذ البداية لمحاولة اغتصاب من أعرابي شرس، بعد أن تم قتل أمير الجند في معركة ضارية وتخليصها من بين يديه، ولم ينقذها من هجمة الأعرابي سوى ذلك المقنع، ابن القبيلة الصحراوية الأبية المتمردة، الذي ينتمي في أصوله القبلية إلى أمير الصعاليك عروة بن الورد، المتمرد ضد الظلم المنتصر للمظلومين، وفي إيراد ذلك في الرواية دلالته الإيجابية ومعناه، بل إن هذا المقنع الذي يحمل اسم: الأنهد بن الورد، وقعت شخصيته موقعًا حسنًا في نفس المقاء. وراحت تشعر نحوه بود، وهو راح يشعر نحوها بود. وكانت صديقتها رقية ملاذها "إلى سبر أغوار غموضه وغموض قبيلتهم التي إجتمعت فيها غرابة المعشر والأخلاق، وسرتْ في دماء أهلها نخوة العربي وكرمه وشجاعته وفصاحته".

ثم إنها وهي تحاول التكيف مع شروط وضعها الجديد، أدركت إلى أي حدّ تركت الصحراء التي تعيش فيها هذه القبيلة التي ينتمي إليها الأنهد، تأثيرًا واضحًا على سلوكها الطموح. وقد شجعتها على ذلك ابنة القبيلة رقية، والجدة العجوز التي يفيض كلامها حكمة وخبرة. ومن هنا، خفّفت المقاء من القلق على أمها التي ستجزع لفقد ابنتها، وقلّلت من التحسر على ابتعادها عن أسرتها، وعلى فقدان أمنها الشخصي بانتزاعها من بين أهلها، وتعريضها لمصير مجهول مكلل بالمخاطر وباحتمالات السوء. فبعد أن كانت أمها تنتظر يوم عرسها بعد أن بلغت سن الرشد، ها هي ذي تتنقل من يد إلى أخرى ومن مكان إلى آخر،

وقد ينتهي بها الأمر إلى العيش مع الحريم في قصر الخليفة، ثم رميها بعد التمتع بها في سوق تجارة الجواري، وتلك بالنسبة لها كارثة لا يمكنها التسليم بها بأي حال، ولا بد لها من اكتساب المعرفة التي تهزم بها وضعها المذموم وتنقذها من بؤس المصير.

وهكذا، تمتد وتتواصل رحلة المقاء التي أصبح اسمها الخيزران، لتستقر في قصر المهدي، ولتلتقي بجوارٍ ذوات سلوك عدواني منحرف، وأخريات ينطوين على مشاعر طيبة بحيث يتعاطفن معها ويقدمن لها المساعدة، وتتوثق علاقتها بالجارية خلوب، التي قدمتها إلى المهدي ولفتت انتباهه إليها. وبعد أول لقاء للمهدي بها في حديقة القصر تبدأ رحلة الخيزران نحو قمة السلطة المشتهاة، وليصبح أبناؤها من المهدي قادة الدولة وخلفاءها، ولتصبح هي أم موسى الهادي وهارون الرشيد. ومن تلك البداية الأولى إلى تلك النهاية غير المتوقعة اجتازت الخيزران طريقًاطويلة محفوفة بالمخاطر وبالدسائس وبالرغبات والشهوات والأهواء، وبالصراعات الدامية وغير الدامية، ليكشف لنا السرد الروائي بما اتسم به من شمول ومن استفاضة ومن تتبع لدواخل النفوس البشرية، كيف تتصارع إرادات البشر وكيف تتقلب أهواؤهم، وكيف تحمل السلطة التي وصلت ذروة الازدهار بذور تفككها من خلال هيمنة الإرادات الفردية وتسلط الأهواء الشخصية عليها.

لكنها رحلة جديرة بالكشف وبتسليط الأضواء عليها، وبتتبعها في تفاصيلها الحميمة وفي تجلياتها السارة وغير السارة. إنها الرحلة التي تنطوي على تناقض غير قليل، فالمجتمع الذي يشق طريقه نحو الازدهار، ويفسح في المجال للعلم وللفلسفة وللأدب وللفنون، ظل يضطهد المرأة ويحلل سبيها وتملكها جارية ومحظية. ولا سبيل أمام المحظية لكي تدافع عن إنسانيتها إلا بالاعتماد على معرفتها وعلى جمالها وعلى جملة شروط أخرى بعضها صحيح وبعضها الآخر غير صحيح، لكي تصل إلى مبتغاها.

كانت الخيزران خير تعبير عن تلك الحالة، حيث رأينا من خلال سيرتها، سيرة سيدة الظلال، كيف وصلت بها الرحلة إلى مسك الختام، الذي هو مسك

الكفاية التي لا مسك بعدها، كيف لا وهي التي أصبحت أمّاً لأشهر خلفاء الدولة العباسية: هارون الرشيد! إنها الرحلة المشتبكة التفاصيل، المتشابكة الخيوط التي ظلت الخيزران محتفظة أثناءها بعباءة الأنهد التي سترت عريها، وبسبحة العقيق واللؤلؤ التي أهدتها لها تلك الجدة الحكيمة في الصحراء، وهي الرحلة التي توجتها الخيزران بمأثرتها التي فاجأت بها جواري القصر حين خاطبتهن قائلة لهن: انهضن واذهبن فأنتن حرائر. وهي الرحلة التي عكف عليها باسم خندقجي وهو قابع هناك في سجون المحتلين الإسرائيليين، ينقّب في المراجع، ويقرأ في التراث ويستنطقه بوعي وبتأمل مرهف، ليقدّم لنا رواية مستندة إلى التاريخ، فيها شخصيات من وحي الخيال، وفيها شخصيات من قلب الواقع والتاريخ.

وفي كل الأحوال، فنحن أمام تجربة روائية لافتة للانتباه، تشير إلى عصر سبق لنا أن قرأنا عنه في كتب التاريخ، لكننا هنا أمام عالم مشخّص من طموحات البشر ومن مكائدهم ودفاعهم عن ذواتهم، ولو جاء ذلك على حساب آخرين لا ذنب لهم ولا جريرة. وقد جسد باسم خندقجي ذلك كله بسرد ممتع جميل، وبلغة فيها من الشاعرية ما يكفي، وباقتباسات من الشعر والنثر العربيين ومن سرديات التاريخ، وبحوارات متقنة قادرة على كشف لواعج النفوس ومكنوناتها.

إنها رواية جديرة بالقراءة، ولا يفوتني في هذا المقام أن أرسل أحرّ التحيات والتمنيات بالإفراج العاجل، للروائي الشاعر الأسير: باسم خندقجي.

الفصل الأول

في دروب السبي والنفي

قومٌ من المشرق يرتدون السواد..

لا.. لا.. ليس هذا ما قاله الداعية.

لقد قال:

قوم من المشرق ومعهم الرايات السود

نعم، لقد قال هكذا: "قومُ من قبل المشرق ومعهم الرايات السود فيقاتلون فينصرون فيُعطوِن ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوا الأمر الى أهل البيت فيملؤوها قسطاً كما مُلئت جوراً"

نعم، هذا ما قاله بالأمس أمام جمع من أهل البلدة، وهو يرغي ويزبد ويتلو أحاديث عن رسول الله، في مواجهة رجال ذوي بأس حديثي العهد ببلدتنا الواقعة في أحضان الوادي الكبير.

واجههم الشيخ الداعية، دعاهم الى الإقتناع برسالته التي يحملها ويؤمن بها إلى أن زجره أحدهم:

- ويحك.. إنما نحن قومٌ نخوض في قتالهم لأننا لا نبغي سوى حكم الله، وما الحكم الاّ لله.

لم أعِ شيئاً مما تجادل فيه الجانبان، كنت أستمع وأستمتع بفضول طفلة عثرت على ما يُبدد ضجر يومها، إلى أن نهرتني أمي التي لمستُ أثر الخوف في وجهها وصوتها:

- هيا إلى البيت.. إلى البيت مالنا ولهم.

سألتها:

- ما الذي يتحدثون عنه يا أماه؟

أجابتني وهي تقودني بسرعة إلى البيت:

- لا أدري.. ولا صلة لنا بما يقولونه

-2-

في قيظ الظهيرة الخانق أُردد ما سمعته بالأمس، وأُقلّد الداعية والقوم الذين كانوا يجادلونه بحججهم وأنا في طريقي لإرسال الطعام إلى أخي في حقل القمح الواقع في ناحية بلدتنا الجنوبية.

أوصتني أمي قائلة:

- لاتتأخرى يا إبنتي، أرسلي الطعام وعودي على عجل، ولا تغفلي عن خمار رأسك وبُرقع وجهك.

كم كانت تخنقني بهذا الحجاب المرير، وبوصاياها التي إزدادت شدة اليوم، كانت تعلم أن واقع بلدتنا يشوبه التوتر والغليان، وأن ما حدث البارحة وفي الماضي القريب، سيزداد حدة وتعقيداً في الأيام القادمة، فهي كانت تدرك تماماً ما الذي تعنيه تلك المناظرات والمجادلات وإلى ماذا تفضي، وأما إرتداء الخمار والبرقع في الذهاب والإياب والعجلة في المسير، فسببه كانت لعنتي كما تقول أمي:

- لعنتك في طلّتك وممشوق قوامك.

كنت أمتلئ غروراً بخشيتها من جمالي، وأخشى أيضاً في نفس الوقت من الوصية والخمار وما قد يحدث لي، فأمي القانعة الهادئة ما بين حقل القمح وحنطة البيت وتأمين قوت يومنا، لم تكن تطمع بالكثير سوى أن يطرق بابها بعل يأخذني معه إلى استقرار البيت ونعمة الأمومة.

في بيتنا..

ثمة مكسور ما في عينيّ أمي، إزدادت حدة شظاياه بعد وفاة أبي منذ عشر سنوات، وهي الأرملة تقتاتُ لأولادها من خير ليس لها، من حقلٍ تعمل فيه هي وأخي الأكبر تساعدهما في بعض الأحيان أختي التي تصغرني بخمسة أعوام،

رافضة أن أعمل أنا بعد أن كبرتُ وإشتدت سطوة جمالي. كانت تقول:

- أنت راعية البيت في غيابنا، جَمالك بركة البيت.. لا نريد منك شيئاً أكثر من هذا.

لأترعرع وأنشأ في بيت يماني عتيق، حيث البلاد الأولى التي اكتشفت مقدرة الطين على إيوائها في حميميته وسهل بنائه، كنا وإنْ كان بيتنا صغيراً وعتيقاً نتفوق على أهل الخيام في بيت ترعاه سيدة تنسج بالصبر ثياب أيامنا، لكي لا نُعرّى في ميدان الأسئلة.

أسئلةٌ كنا نُهرِّبُها بأكبر قدرٍ ممكن البساطة والبراءة ويوميات الحياة البيتية.

- لماذا ليس لنا أقارب هنا؟

- هذا بلد القبائل.. من أي قبيلة نحن؟

إلى أن كبرنا وأصبحت الإجابات تعمه في متاهات الأسئلة وصمت أم كانت فيما مضى إمراةً تهزج بالفتنة والجمال، أما الآن لا همّ لها سوى أن تكون عروتنا الوثقى التي نتمسك بها في هذه الحياة المُغبرّة والتي لا تتجاوز بيتاً وحقلاً ليس لنا.

في الطريق إلى حقل أخي، ترهقني حرارة النهار الذي أعلن بمزيد من القيظ عدم رغبته في إيلاء كرمه وعطفه عليّ، بعد أن سئمت من الإلقاء على مسمعي ما حفظته على وجه الفضول والاثارة البارحة.

"قوم من قبل المشرق"

"ما الحكم إلاّ الله"

"علي.. معاوية.. بني هاشم.. أبو العباس.. السفاحون."

كل هذه الجمل والأسماء حفظتها دون أن أعي مغزاها، حفظتُ غضب الداعية وصراخ من أتوا إلى بلدتنا، كما حفظتُ صمت أمي وتبدد الإجابات، والطعام في يدي وأنا أسير مُهرولة كالفتى على عجلةٍ من أمري، والبرقع على وجهي قهراً، والعرق يحتل جسدي المرتعش من شدة الكبت والجزع وحرصي على عدم إثارة خشية أمي بتأخري، خاصة بعد أن نجحتُ في إقناعها متوسلةً بأن ترسلني في طعام أخي إثر ضيقي من حبس البيت والإقامة الدائمة فيه،

فاستجابت على درجة عالية من الوصايا والأوامر التي آحاطتني بها.

في منتصف الظهيرة والطريق المقفرة إلى حقل أخي، أتوقف فجأة عن المسير لأتفحص من مسافة ليست ببعيدة عاصفة غبار ثائرة على جانب الطريق، أمشي ببطء وحذر وعينين فضوليتين تسعيان إلى فضّ الغبار لمعرفة ما يحدث في وسطه، ينتابني الهلع إثر إنقشاع الغبار وجلائه مخلفاً وراءه حوافر خيلٍ تدكّ أجساد من كانوا البارحة يصرخون بأمر الله.

إذ هي سرية جند عباسية من جيش الخليفة أبي جعفر تُطوق جماعة الحكم بأمر الله في الجانب الجنوبي من بلدتنا، في حقل أجرد يُروى بدمائهم دون أدنى مجادلة، إذ للسيوف وحدها الحق بالعلو والسيادة، في دولة فتية كما قال الداعية تشد من أزر حكمها لكي لا تزول في المهد.

هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها فرساناً حقيقيين من جيش الخليفة يرتدون السواد منضوين تحت لواءٍ أسود.

كنت قد تخيلتهم، فإذا بهم أمامي الآن، أنا التي احتلني الذعر فلم أحرك ساكناً.

إذن.. هم الذين تحدث عنهم الداعية بالأمس، حيثُ لم يُمهله الآمرون بحكم الله إلاّ ضربة رمحٍ واحدة إخترقت صدره ليصبح إثرها رايةً سوداء مُنكّسة بالدماء والتراب، قتلوه ولم يصبروا عليه في أحاديثه وبراهينه، حينذاك صرختُ صرخة ما لبثت أمي أن كتمتها وهي تحثّ خُطانا الى البيت.

فالأحلام المغمّسة بالدم التي راودتني بالأمس، هي التي أجبرتني على حفظ ما قاله الداعية بالحرف وإن كان حرف دم.

صخرة.. شجرة.. بقايا بيت أصير، وأنا أراقب من مكاني وذهولي عملية السفك السريعة التي ذهبت بثلّة الذين قتلوا الداعية.

ليس صراخاً ما أسمعه بل نحيباً عجيباً يتداولونه فيما بينهم.

- الله أكبر.. أيها الخوارج المارقون على عزّ الإسلام وعظمته.. أُنزل عليكم القصاص أيها المرتدون.
- قد قتلتم شيخاً لا ذنب له سوى هدايتكم إلى الصراط المستقيم والقاتل

يُقتل.. الله أكبر.

تسقطُ صُرّة الطعام من يدي، أرتجف، لا أعلم ماذا أفعل؟، ليت أمي معي الآن، أتجمد في مكاني والبرقع على وجهي، أراقب وأحصي الأنفاس الأخيرة الماضية الى مثوى التراب والخمود الأخير. جرى كل شيء على وجه السيف والسرعة، ذهبوا بهم جميعاً، لم يتبقَ سوى رجل واحد جريح، يوشك على اللحاق بثلته القتيلة، ينقضّ عليه فارس عباس يبدو على سيماه أنه أمير الجند، يُمسك به من شعره بقسوة، ويضرب برأسه الأرض.

- أين بقيتكم أيها الخارجي الكافر؟ أين تختبئون.. هيا قل لي قبل أن أُجهز عليك؟ إلاّ أن الفتى الذي لم يتلق من الحياة بعد سوى تعاليم الحكم لله وضربات السيوف، يُقرر أن يلفظ أنفاسه الأخيرة صامتاً، ليمضي دون أن يشهد أحد في جانب البلدة القصيّ المشرف على الحقول سوى أنا التي كنتُ في طريقي إلى حقل أخي.

يلتفتُ أمير الجند فجأة وينظر إليّ، يُثيره الطعام الملقى على الأرض وأنا الصنم الأسود المقنع، لا أدرك نظراته النارية، أهمُّ بالعودة أدراجي، معتقدة أنّي بأمان ما دمت لا أعرف معنى "الخارجي" و"قوم من قبل المشرق"، إلا أنه ينتفض واقفاً بعد أن ألقى برأس الشاب على الأرض، ثم يركض نحوي مشهراً سيفه:

- دونكْ.. لا تتحرك..

حتى يده وهي تنزع البرقع عن وجهي لا أشعر بها من شدة سرعته ورجفته ورائحته النتنة، أستفيقُ على دهشته وهو يضحك ويصيح:

- أنت أمرأة.. أمرأة.. يا إلهي عفوك.. إعتقدتُ أنك منهم.

تطغى عليّ رجفة جسدي وحطب حلقي، لا أُعقّب، أبدأ بلملمة الطعام لكي أمضي في طريقي، يدوس هو على الصرَّة.. يزمجر:

- إلى أين يا صاحبة الوجه الحسن.. هذا ليس بطعامٍ كافٍ لأعداء الله.. ألا تعلمين أن هذه الناحية خارجة على حكم الخليفة ونحن هنا لإخضاعها؟

لا أجيب، أُنكّس رأسي.

- لا تخافي.

يرفع رأسي بيده الملطّخة بالدماء:

- أنت ستكونين هديتي إلى مولاي الخليفة.

أصرخ

- ماذا؟! أنا لستُ خارجة على أحد.. لقد كنتُ في طريقي إلى حقل أخي يا سيدي...

يقاطعني بصرامة:

- ويحك من أنت لتصرخي في وجهي؟

أجيبه بكلام مُلبّدٍ بالبكاء:

- أنا.. من هنا.. من شَبْوَة يا سيدي.. أنا..

يمسك بي بقسوة يديه:

- لا آبه بأصلك.. ما يهمني الآن هو أنني لن أعود صفر اليدين إلى مكة.. أنتِ الآن من غنائم مولاي الخليفة أبي جعفر.

يهطل البكاء على كلامي:

- لا.. لا. يا إلهي.. أنا من هنا.. لن أذهب إلى أي مكان وهذا الطعام لأخي وليس لهؤلاء.. لا أريد الذهاب إلى مكة.

- ويلك.. من ينبذ النعمة ويستبدلها بهذا الجحيم.. أترفضين الذهاب إلى حاضرة الخلافة.. إلى بغداد الجديدة؟!

أتوسله.. أمسكُ بقدميه.. أُقبّلهما:

- أتوسل إليك يا سيدي.. دعني أعود إلى أسرتي.

يصرخ أمير الجند:

- "عبدالله" ضع هذه النعمة بالعربة ودعونا نمضي من هنا بسرعة هيا.

يرفسني بقدميه بعنف:

- هيا يا جارية لم يعد لك عيش ومقام هنا.

يتطاول عويلي، يصل السماء، كما لو أن ما يحدث لي الآن مقذوف خارج زمان ومكان بلدتي الهادئة، كأنه حلم كارثي ألقى بي في هاوية الضياع.

أريـد أن أصحـو.. أن أصـرخ، ولكني أجد نفسـي ملقـاة بالعربـة، وصوت انتصار الجند يطغى على صوت جرحي وبكائي.

- علينا أن نصل مكة في عشرة أيام، هيا فقد منَّ الله على سرّيتنا بنصرٍ سريع أذّبنا فيه أعداء الدين.

تمضي قافلـة الجند عبـر الطريـق المختصر الذي جـاءت منـه دون أن تمر بالبلدة، تجـرُ وراءها ذيـول الغبار ودمـاء ثلّة حكـم الله، وأنا التي أئِـنُّ كالحيوان الجريح في قفص.

أسـعى بعينيَّ المذعورتيْن إلى أي أحد من بلدي، لكـي أراه ويراني، ليخبر أمي بما حدث ويحدث لي.

ولا أحد، لا أحد في هذه الطريق المهجورة التي ستفضي إلى مكة.

-3-

عندمـا قال لـي أميـر الجند إننـي هديتـه إلـى مـولاه الخليفة وسـط ذعري وخوفـي، ثمة وميض إنتشـر من داخلـي، وميضٌ مـا دعاني إلى اكتشـاف ما كان ينتظرني.

أصبحت جارية إذن..

وما سـمعته مـن نتـف حكايـات عـن الجـواري فـي قصـور أولـي الزمان، سيحدث لي بعد قليل، فهل أفرح وأنا السبية في بلادي؟

إحسـاس غامض إنتابني عندما قال لي بأنه سيمضي بي إلى بغداد الجديدة، فكيف تكون القصور؟ وهل سأرى الخليفة؟

يعلو بكائي مـن جديد، نشـيجي يُعبّـدُ طريق خيلهـم، أرتجـف وأتخبط في العربة، ثم أهدأ وأعيد التفكير بالأسئلة العابرة في خاطري.

أواسـي جرحي ولوعة أمي في هـذه العربة الباليـة التي لا تصلـح إلاّ لنقل البضائع، ولـم لا فقد غدوتُ بضاعـة الآن؟، أنا بضاعة الخليفة، وسـيحافظ عليّ الجنـد بأرواحهم حتـى أصل إليـه على أتم السـلام والأمـان، أنا التـي لا أعرف سوى المسافة ما بين البيت والحقل.

ما بين السؤال والإجابة، والبُرقع والوجه، والأم والإنكسار، والبلد والغبار، ها أنا ذي أمضي سبية إلى البعيد إثر حفل دمٍ سريعٍ إنتهى بي.

تصل القافلة في المساء إلى مأرب التي لم أطئها من قبل أبدً، إذ هي أولى محطات الجند القادمين من إخضاع الرعية لراعي الدولة الجديدة.

يخرجونني من العربة التي أمعنت في تحطيم جسدي بعد حطام روحي، لا أقوى على الوقوف والسير، اقع، يُنهضني أحدهم ثم يمضي بي إلى بناء أعرف للوهلة الأولى بأنه مقرٌ لهذا الجيش العباسي، يدخلني إلى غرفة كبيرة مليئة بالمتاع والرايات السود وعدة الحرب، يحبسني بها، في وحشتها المريعة. ثم يأتيني أحدهم ببعض التمر والخبر والماء، يضع الطبق أمامي بشيء من اللطف الذي لم يُهدئ من روعي أبداً ثم يمضي دون أن ينبسّ ببنت شفة.

في مخزن غنائم الخليفة أنظر إلى الطعام بإزدراء ونفور، دون أن أقوى على الاقتراب منه في أجواء من صخب الجند وضحكاتهم المُجلجلة التي تحيط بمقامي البائس.

أدنو بحذر من الباب لأصيخ السمع لأحاديثهم، أستمع إلى حديث يُفيد بأن سرايا أخرى تابعة للجيش العباسي كانت قد غزتْ بلدتي التي حلّتْ عليها لعنة أولئك الخوارج، لأدرك أن خلاء النهار من الإنس كان سببه ذلك، وأن توهّج الظهيرة بلهبٍ حارق كان من نصيبي وحدي على أطراف البلدة.

أعود إلى حبسي الآنيْ..

هنا سأقضي أولى ليالي السبي..

هنا سأتعرف على الوحدة والخوف والآلم والضياع.

أنا التي أعرف الآن بأنني أصبحت جارية في طريقها إلى قصر الخليفة.

تنقضُّ عليّ مشاهد الدماء من جديد..

يختلط الدم بالراية السوداء بالديباج الملون وحكايا القصور، والغواني والجواري ودمع أمي وحقل أخي وأحلام أختي.

لم أفعل شيئاً، لم أرتكب معصية، كنتُ في طريقي إلى الحقل أُرنّمُ "قومٌ من قبل المشرق"، وها أنا الآن هنا في قلب صدفة عمياء ومتاع الخليفة أرثي نفسي.

تحضرني "شبوة" بلدتي الصغيرة التي كانت عاصمة "حضرموت" فيما مضى، يحضرني الوادي الكبير، وأمي تحضُرني:

ويلي عليك.. أين ذهبت.. أي ريحٍ درتك بغبارها الآثم بعيداً عني؛ ثم أرى الآن أيادٍ ناعمة.. تدغدعني، تُمسّدني، تلقي بي في أسرَّة من حرير وريش، أستمع لغناء الجواري وضحكات الغواني:..

- أمرك مولاي.. أنا أمَتك يا مولاي.

أنا التي كانت أمي تُدثّرني بالقناعة والبرقع على وجهي:

- جمال فتنة وطولك لعنة.

كانت تخاف عليّ مني، ومما قد حدث لي بالفعل، إذ حين رأتهم يتجادلون، رأت المشهد كله وأحسّت بالخراب، فمن أين لها كل ذلك الحَدْس؟

- من يرفض أن يكون هدية لمولاي؟

- لن أرفض يا أمير الجند.. سأذهب معك إلى مولاي الخليفة أطال الله في عمره وقصَّر من أعمارنا.

- سترين يا جارية.. فقد فَتحتِ باب الجنة بمفتاح جمالك المريع هذا وحده سيفي.

اختلط عليّ كل شيء، بل يختلط علي كل شيء، الفقدان بالوجدان، والأمل باليأس، والخوف بالسكينة.

لا أميز شيئاً، تأخذني دوامة السبي تبتلعني، تتخاطفني أيادي الخليفة، وما أراه الآن في آخر الكابوس لا لون له.. لا لون له.

-4-

لم اكن أعرف شيئاً عن المدن والطرق، وحدها شبوة كانت تسكنني واسكنها دون سواها.

أسأل سائس العربة:

- أي نحن الآن؟

يجيبني دون أن يلتفت كأنه يلعنني:

- في صنعاء.
- وهل سنبيتُ ليلتنا بها؟
- لا أدري.. ذلك أمر أمير الجند.

أعود إلى سكوني، ألعن في سّري المهتوك أمير الجند الذي حدد مصيري بسيفه بلا رحمة ورأفة، مأخوذاً برايته السوداء التي ألقاها على وجه سذاجتي وحيرتي من خنقه وجرفه لي في غمضة طفولتي.

هذا مصيري في مطلع عمري، لم يتأخر عليّ بالمآسي، ولم يّدخر جهداً في قذفي في أعماق التحديات والدروب الوعرة.

دروب السبي والنفي.

وحدي الآن هنا..

أُراجع في هذه العربة المتهالكة ماحدث بالفعل، وأطالب نفسي بالصحو من هذا الكابوس الطويل البائس، أحاول أن أسبر أغوار ما هو قادم، أن أعرف ماذا يعني أن يكون المرء خارجياً أو عباسياً أو علوياً أو أموياً، يا إلهي كم أنا نكرة غرَّة، كم أن طفلتك أيتها الأم التي منحتني جمالها فكيف سترت.. عليّ بكل هذا الجهل؟!

مكة

تُومضُ بي مكة المكرمة، نعم، سأراها، سأرى الكعبة المشرفة التي عرفتها ورأيتها في أخبار الحجيج إليها، كنتُ حين أستمع إلى أمي وهي تتحدث عنها وتصفها لي بأعين الحجيج من أهل بلدتي، كنت أتخيل بيت الله مثل بيت الوالي في بلدتنا بل أكبر قليلاً وأشدّ سواداً.

مكة

سأتضرع إلى الله، وأدعوه من بعيد عندما سنمر من جانب بيته الحرام:

- إلهي بجاه عدلك وعزتك وعفوك حرّرني من هؤلاء ولا تلقِ بي في قصر الذل والغنيمة والفضيحة.

أشربُ جرعة ماء لن تفي بإخماد غُصّتي الحارقة، أعيد البرقع على وجهي، ثم أغفو.. أغفو فقد إعتدتُ على إيقاع العربة.

-5-

لماذا أخذوني وحدي؟

لماذا سبوني أنا؟

ألم يكن سواي في البلدة؟ وكيف استدلّوا على مكان جماعة الحكم لله؟ ولماذا قتلوهم هكذا دون أدنى رحمة؟

قاموا بغزوتهم على وجه السرعة وعادوا أدراجهم وأنا معهم سبيّة، أنا المسلمة ابنة المسلمة والمسلم، نشأتُ على ما كانت تنثره أمي على مائدة أسئلتي من أحاديث عن نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، وعن أركان الاسلام وتعاليمه وسنّته الحنيفة، إلاّ أنها لم تحدثني عن السبايا والجواري، لم تقل لي أن السيف يحق له أن يأخذني سبية على حين غزوة أعمت فؤادي وأحالتني من بنت حرة في مطلع سنيّ عمرها إلى مجرد جارية نكرة في قصر خليفة أو أمير.

مرتع لذه له، دمية من لحم وحرير، عندما يملّ منها يلقي بها في جُبِّ الحريم المهجور ليأتي بأخرى جديدة ولذيذة.

هل هذا ما سيحدث لي؟

أنا التي كنتُ على مشارف الزواج كانت تقول لي أمي موصية:

- احتشمي بحشمة النساء وأزيلي عنك آثار الطفولة فأنت الآن على عتبة الزواج يا ابنتي.

وها أنا في طريقي الى الخليفة يا أماه، فمن غيره يليق بي ويناسب جمالي، أليس هذا ما كنت تتمنّينه لي.. بعلاً يسعدني ويكرمني؟!

أضحك ضحكةً مجنونة، أُرفقها بموكب من الدموع، إذا إختلّ كل ما بي من مشاعر وأفكار، لم أعد أعلم من أنا وأين أنا وإلى أين سأذهب؟

لم أعد أفكر بشيء سوى (هديتي إلى الخليفة)..

أنا هديته إلى الخليفة، بعد كل هذا القيظ والوادي الملقى أسفل جنة الله، وبعد الفقر والصمت والخنوع، ها أنا في طريقي إلى عالم أخر، لا أعرف عنه سوى بقايا القصص الأموية، يا إلهي حتى الأمويين لا أعرف من هم؟ كل ما

أعرفه الآن من سائس العربة بأننا بتنا خارج صنعاء وفي طريقنا إلى "صعدة"، على مشارف هذا المساء.

-6-

أغمهُ في ظلام الصحراء، وسريري عربة يجرها سائس خيل وُلد من رحمها صامتاً ملعوناً.

أستيقظ في هذه الليلة الدهماء على أصوات عويلٍ وعواء، أظنُّ للحظة بأنني ما زلتُ أحلم ببكاء أمي، إلاّ أن الأصوات تزداد حدة ممتزجة بصليل سيوف.

أنتفض في العربة، لم تكن القافلة تسير، هذا ما أميزه بعد أن إنتابني الرعب، ألمحُ لمعان النيران على أنصال السيوف، أرى رمحاً يخترق صدر سائس العربة ليخرّ على أرض الصحراء صريعاً صامتاً بلا أنّة أو حشرجة.

ألتصقُ بأرض العربة، أنظرُ من شقوقها إلى مجموعة من الأعراب المقنعين يهاجمون القافلة من كل حدب وصوب، وينهبون منها ما تطاله أياديهم، وسط قتال عنيف بالسيوف والرماح.

أُحرقت عدة عربات، عُقرت البعير والصراخ يزداد، يهجم بعضهم على عربتي، يوشكون على إحراقها، يلمحني احدهم بداخلها، فينقض عليها مُحطماً سلسلة بابها الحديدية، ثم يُطبق عليّ بقسوة ويقذفني بعنف إلى خارج العر بة.

لا أفعل شيئاً، لا أحرك ساكناً، أصرخ.. اصرخُ بكل ما أوتيت من ألم وحزن ويأس:

- لا.. لا.. أرحمني يا الله برحمتك هذا كثير عليّ..

في شراسة القتال وتخبطي على الأرض، ألمح أمير الجند يبارز مقنعاً بارعاً في القتال.

لا يُمهله المقنع كثيراً إذ يعاجله بضربة قاصمة فلقت رأسه ليخرّ صريعاً بدمائه على الأرض كصُرة الطعام التي سقطت مني يوم سبوني.

في هذه اللحظة يعود الأعرابي الذي ألقاني على الأرض، لينزعني منها من

جديد، ينزع البرقع عن وجهي، يلتاع مما يرى، ويأخذ بي وأنا أرتجف عاجزة لا أقاوم، يصرخ، يعوي كذئب، يمسكني، يجذبني الى صدره بقوة وقسوة، يشرع بمتزيق ملابسي المهترئة، أشعر بدنو أجلي ونهايتي، أرى أمي، أرى وجهي اللعنة، أرى ظلم وظلام زماني.

أسكن في لهاثه ويديه الداميتين، لا أقاوم، أغيبُ في السواد وأصداء الغارات الليلية، أخضع له، يلقيني على الأرض مرة أخرى، أغمض عينيْ، سيخترقني ويحرقني الآن، ستسودني لعنتي عاراً أبدياً.

فجأة.. ألمحُ فسحة من نور وهواء، إذ تنتزعه عني يدان قويتان وتلقيان به بعيداً عني، لأحدق في الفارس المقنع الذي صرع أمير الجند منذ لحظات دون ان ألوي على شيء.

يخلع عنه عباءته، أغمض عيني.. أعضُّ على شفتي، يُلقي بها عليّ برداً وسلاماً، ثم يلتفتُ إلى أصحابه مُلوّحاً بيديه في وجوههم:

– هذه عباءتي عليها.. لا يمسنّها أحد.

ثم يرمق بعينيْن غاضبتيْن الرجل الذي كاد أن ينتهكني منذ لحظات:

– إن دنوت منها سأسفك دمك بحق عهدي لها.

يعود إلى الأعراب، يأمرهم بأن يهمّوا على عجل في نهب القافلة إثر هرب معظم الجند والحراس ومصرع بعضهم.

يلتفت إليّ، ينحني ماداً يده بحزم:

هيا.

هذا ما يقوله لي فقط.. هيا..

– وأنا أنصاع إليه بعباءته التي سترت عليّ وعلى ثيابي الممزقة، أسيرُ وراءه بلا برقعي، بكلمة واحدة قالها لي وسط الحرائق والدماء وظلام الصحراء ووطأة الفجر الغاضبة.

هيا.. ولكن إلى أين وأنا المرهقة من هذه الدرب اللعنة التي تتقاذفني بها السيوف والأيادي الملطخة بالدماء، كما لو أنني الأنثى الوحيدة في دنيا الله الواسعة هذه..

هيا.. على وجه الليل الأدهم هذا، إذ نُهبت القافلة دوني أنا التي ألقى عليّ فارسُ مباغتة مصيري، العباسي عباءته، التي أدركت منذ اللحظة الأولى لسريان دفئها بي بأنها رمز للحماية، وبأنني أصبحت تحت حمايته.. تحت عباءته.

هيا.. إشارة فارس الليل والصحراء، إيماءة الأمان التي يردفني في أجوائها خلفه على متن فرسه الريح السمراء، إذ تعدو بنا، تحلّق بلا خوف ورجفة وألم.

كومضة برق ما حدث ويحدث، ينطفىء مصير لي، ويشتغل مصيرٌ آخر هو لي أيضاً، إلى أين الآن لا أعلم، إلى مكة أم إلى الجحيم لا أعلم.. لا أريد أن أعلم؟!

كل ما أومن به الآن في هذه الليلة هو هذا الفارس، وأنا وراءه على متن فرسه، أمسك به بشدة وعباءته تدثرني وظهره يحميني من الوقوع في مغبة الظلام الصحراوي هذا.

للمرة الأولى منذ أن سُبيت أشعر الآن بالأمان، رغم ما سمعته عن شدة الأعراب وفظاظتهم، إذ يحيطون بي بقافلتهم الليلية ويمضون بي إلى أعماق صحراء لا تصلح إلاّ لهم ولا تليق إلاّ بسيوفهم النجلاء وبزقهم الذي مسَّني سلاماً.

أستمع إلى وقع حوافر الخيل على جسدها الليلي، صحراء شاسعة يدغدغها الفرسان ليلاً، إذ هي سترهم ووسيلتهم إلى مبتغاهم، يكّرون ويفرّون كالبرق يغتنمون، والآن ها أنا غنيمة للمرة الثانية خلال بضعة أيام، ولكن بأمان هذه المرة، هذا ما أشعر به الآن على الأقل إثر خفوت عويل أمي داخل رأسي.

كل ما حولي ظلال.. فرسان.. نجوم في السماء.. قمرٌ هائمٌ خيلٌ تزفّني بإيقاع حوافرها إلى الغيب.

إذ أحتضن طيفاً أنعم عليّ بحلوله حلماً منقذاً في إمتداد الغيب وكل هذا الهجير المقيم.

أستيقظُ في الصباح داخل خيمة، أتململ في فراشي، ألاحظ العباءة على جسدي، ثم أنتفض، أتذكر ما حدث ليلة أمس، أتفقد جسدي، لم أُوذَ، بضعة خدوش فقط سببها الأعرابي الفظّ الذي ألقى بي بقسوته وهيجانه على الأرض.

ولكن أين هو ذلك الذي قال لي (هيا)؟

أنهض من فراشي، أفتح شقاً في باب الخيمة، أرى بضع خيام أخرى وحياة بأكملها مفعمة بالحركة والعمل، حيث صغار يلعبون، ونسوة يعملن أو يجلسن أمام خيامهن، ورجال يتسامرون الحديث في خيمة كبيرة مُشرّعة أبوابها وسط حي الخيام الصحراوي الهادئ هذا.

ألمح فجأة امرأة تقترب من خيمتي، تحمل في يديها طبق طعام، فأبتعد عن باب الخيمة وأهرع إلى فراشي، ألوذ به وأدفن رأسي بغطائه، تدخل هي بهدوء وإنشراح:

- أعلم انك يقظة.

تقول لي بإبتسامة زادت محياها الصبوح بهاءً.

أسأل نفسي: هل يوجد في أعماق الصحراء امرأة بهذا الجمال؟

- جلبتُ لك بعض الطعام.

أنهضُ ببطء وحذر، أنظرُ عليها بإستغراب وخشية، موشكةً على البوح بما يختلج صدري من أسئلة، إلاّ أنها ترهبني بحدة تحديقها بي بصمت ودهشة كما لو أنها عثرت علي ما أثار ذهولها:

- ويلك.. أي رياحٍ قذفتك إلى تلك القافلة العباسية:

لا أجيب، يفاجئني صوتها الموزون على إيقاع الصحراء:

- هل أنت جارية أم حُرّة؟

يباغتني سؤالها لدرجة أنني خلتها تتحدث معي بلغة غريبة عني، أنظرُ إليها كالبلهاء، بل أنا البلهاء ثم أسألها:

- ماذا تقصدين؟

- ويلي عليك.

ثم تزيل الغطاء عن طبق الطعام وهي ترمقني بقلق ولوْعة أنا التي كان الجوع يفترسني وليس نظراتها، لأنكبّ بنهم على الطعام، وهي تراقبني برأفة وحنان يشوبه الحزن.

أنتهي من طعامي وجسدي المنهك لأقصّ عليها كل ما جرى لي حتى

الآن، لا تُعقّب بكلمة، بـل بالبكاء، فالدمـع أبلغ تعقيب على ما حـلّ عليّ وألمّ بي في بضعة أيام فقط.

أسألها بفضول:

- ولكن أين هو؟

- من؟

- هو الذي حماني وأنقذني بالأمس.

تضحك بلطف ثم تقول:

- لا عليـك. سـيأتي، ولكـن دعينـا الآن نُعدّ لك ما يليـق بك وبهذا الجمال المشرق.

-7-

بعد هذا المصير المـدوي الذي رماني فـي لُجة العماء، يصيبنـي القليل من النسيان في خضمّ إعتناء النسـوة بي وإحتفائهن بقدومي إليهن ذات فجر عاصف بالدم والمفاجآت.

إذ جاءتني تلك المرأة بملابـس جديدة، وزينتني وطيبتني بالعنبر والمسـك، فوجئت بتوفـر كل ما يحتجنه فـي قفر الصحـراء، ومثلما كانت الدهشـة تمطرني بزخّات من الأسـئلة مثل: من هم؟ ولماذا يسـكنون الخيام في هجيـر الصحراء؟ كن هن يسألن أيضاً لإشباع فضول رماهنّ به حلولي المفاجيء عليهن:

- كيف لحسناء مثلك الوقوع في هذا القدر المريع؟

- من أي العرب أنت؟ من أي البلاد؟

فأجبتهن بدمعة تارة وبإبتسـامة خجولة تارة أخرى في إنتظار رحيلهن عني، بعد ان شـعرتُ بالاختناق والضيق من فداحـة الغربة التي بـدأت تنتابني، ومقدار التبعثر والضياع والتمزق الذي أدمى روحي.

أنظرُ بحيرة وضيـق إلى من قالت لي أن إسـمها "رقية"، إذ هـي الفاتنة التي إسـتقبلتني بوجه سـاحر واسـئلة قليلة، فتدرك رقية ضجري وضيقـي، ثم تتحدث إلـى النسـوة المتحلقات حولـي بكلام سـريع لـم أعِ منه شـيئاً سـوى إنصرافهن

الواحدة تلو الأخرى من الخيمة.

تبقي هي وحدها معي، أشعر بالألفة تجاهها، حيث تقرّبها إلى بالمودة والعطف يثبت لي بقائي على قيد الحياة والأمل بالعودة إلى أهلي وديار أهلي.

– هل ما زلت خائفة؟

تسألني وهي تربت على كتفي بلطف.

– لا أدري والله.. لستُ قادرة على إدراك ما حدث لي حتى الآن.

– لا عليك.. أنت هنا بأمان لن تشعري به في دمشق أو مكة أو حتى الكوفة، سأتركك الآن لترتاحي قليلاً بعد الصخب الذي أحدثته النسوة.

أسألها بلهفة:

– ولكن أين هو؟

تجيبني بإجابة أم لإبنتها:

– سيأتي لا تخافي، وإن إحتجت شيئاً فأنا أقطن في تلك الخيمة الواقعة إلى يسار الخيمة الكبيرة.

تمضي رقية التي سألتني عن كل ما جرى لي، وغفلت عن سؤال تشي إجابته بإسمي.

يغمرني شعور بالسكينة والهدوء، وأتأثر بأسماء مدن عظيمة مثل دمشق ومكة والكوفة، التي يتردد صدى رنينها في وجداني الآن لدرجة أن أول ما يتبادر إلى ذهني:

هل سأزور تلك المدن؟

أترك الإجابة لحلم يقودني في هذه الأمسية الصحراوية إلى الغيب مرة أخرى.

فجراً.

أستيقظ على رائحة النار العابقة بالخبز الطازج، وعلى هيئة متكومة في باب الخيمة، يمسّني قلق خفيف ريثما ينجلي بجلاء العتمة عن الخيمة لأرى رجلاً مهيباً يجلس بفروسية تعلن عن حضورها عنوة.

أحدقُ فيه بصمت، لا أخشى من حضوره هو الذي أخذت الصحراء منه عهداً بأن يكون عاشقها على أن تمنحه في نفس الوقت قسوة مناخها ونعومة رمالها ونقاء ريحها وبساطة أنحائها.

رجلٌ ذو منكبيْن عريضيْن يحملان رأساً مُكلّلاً بضفيرتيْن مجدولتين من الأسود الفاحم، ولحية خفيفة سكنت وجهه الذي لفحته شمسُ الصحراء بسُمرة خفيفة جليلية، وعينيْن قمريْن في سماء دهماء، وجبيناً يتّسع لي بعد أن مسّه ندى الفجر كخدّ وردة يعَبق تفتّحاً، وسيماً بحق على مشارف الثلاثين من عمره الزاهي.

يأخذني وجهه هو الرجل الأول الذي اراه هكذا عن قرب.

وإثر صدمة حضوره المباغت، انتبه لقربه مني، فألملم نفسي على عجل بالفراش وأستر رأسي ووجهي بحجاب أسود شفيف.

يتحدث أخيراً..

لا يقول هيا.. إذ يخرج الصوت، ينبعث رخيماً من أعماق الصحراء ليخترق اذنيْ بنعومة وعذوبة:

– كيف أصبحت الآن؟

تعتريني البلاهة والصدمة من جديد، فلا أجيب، بل أحدق به وأنا أضفي عليّ المزيد من غطائي في الفراش.

– هل ما زلت خائفة؟

يسألني مبتسماً.

أوشك على الإجابة بقشعريرة مسّتني، إلاّ أنه يقترب أكثر، يدنو مني، أشعر بدفء أنفاسه، يزيل بيده العطرة الحجاب الشفيف عن وجهي ببطء وثقة:

تحدثي الآن ولا تخافي.

أسأله بصوت مرتعش خافت:

– هل أنت الفارس المقنع الذي أنقذني في تلك الليلة؟

– بلى.. وأنا الذي قال لكِ هيا.

– يا إلهي عفوك ورحمتك.. أيقظني من هذا المنام.

أُتمتم بهذا الدعاء بجزع وخوف ثم أجهش بالبكاء وسط حيرته ودهشته:

- إذا كان وجودي يقلقك فإني سأرسل وراء رقية لكي تُؤنس وحدتك ووحشتك؟

- كما ترى يا سيدي.

- أنا لست سيد أحد.. والآن أريد منك أن تهدئي.. لقد أخبرتني رقية بقصتك.. أنت من حضرموت إذن.. ما إسم بلدتك؟

- شبوة

ألفظ اسم بلدتي بأكبر قدر ممكن من الذهول الذي نالني من شدة سطوته.

- هل تعلمين ماذا يقول العرب عن أرض اليمن وأهلها؟

- والله لا أعلم.

يُردف وهو يبتسم:

- "هم قومٌ بين حائك بُرْد، ودابغ جلد، وسائس قرد، ملكتهم امرأة، ودلّ عليهم هدهد، وغرّقتهم فأرة".

يضحك بجذل وسرور طفل صغير بعد أن ختم حديثه في أجواء مفعمة بدهشتي من كلامه واسلوبه المؤثر في الكلام، يهدأ ثم يقول لي بريبة: -ولكن...

يُطرق قليلاً ثم يسألني بإستغراب شديد: - ما اسمكِ؟

كنتُ على وشك نسيان اسمي إثر مصابي الجلل، ليذكرني هو به الآن، أجيبه بخفر"

- أنا.. أنا المقّاء بنت عطاء بن سبأ.

وقد آن الأوان لدربي وقصتي لتي سأتلوها عليكم بالحق.

الفصل الثاني:

العرب والسلطان والنسب

في صبيحة اليوم الرابع عشر من رجب من سنة 145هجرية الموافقة لسنة 762 ميلادية، وضع الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي – ابن سلاّمة البربرية – اللبنة الأساس لبناء عاصمته العتيدة بغداد قائلاً:

– "بسم الله والحمد لله، والأرض لله يُورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، إبنوا على بركة الله".

بعد أن كان قد عزم على بناء دار مُلكه الخاصة عندما تولى الخلافة، مُقرراً الإبتعاد عن الكوفة وهاشميتها التي بناها أخوه أبو العباس.

كان يريد مساحة من التاريخ في سبيل خلوده ومجده، وهذا ما تحقق له حين خرج يطلب الأرض الرغداء القادرة على حمل مُلكه وعزّته هو وجنده حتى نالها وقال عنها:

– "هذا موضع عسكر صالح، هذه دجلة، ليس بيننا وبين الصين شيء، يأتينا فيها كل ما في البحر، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقّة وما حول ذلك".

فخيّم فوق تلك الأرض، وأمر بأن يخطّ له البناة صورة المدينة على التراب أمامه بالرماد، ففعلوا، فكانت بغداد المدينة المُدوَّرة وأول حاضرة خلافة يبنيها المسلمون بأيديهم.

مدينةٌ يحرسها سورٌ يصل إرتفاعه إلى خمسة وثلاثين ذراعاً، بأربعة أبواب هي باب الكوفة وباب الشام وباب خراسان المُشرّع على دجلة، وباب البصرة.

وعُمّرت فيها الأسواق والمساجد والبيوت القادرة على الصمود في وجه

حتّ وتعرية التاريخ، وفُتحت قنوات تجرّ المياه من دجلة إلى داخل أحياء المدينة.

أُنشئت بغداد وإمتدت دائرية الشكل فسُمّيتْ بالزوْراء إلاّ أن أبا جعفر لم يغفل عن تصميمها الدائري، إذ كان يتوخّى فيه إقامة قصره في عين المجد، في مركز الدائرة حيث الأرض المستلقية بدلال على شاطئ دجلة سيحفل بها التاريخ قبةٌ خضراء إتخذها أبو جعفر ظلاً لعرشه وعظمة سلطانه وقصر خلده.

كانت مدينة عصرية بحق، لم يتوان صاحبها عن توفير سبل العيش الرغيد والحياة الهادئة لساكنيها، وبهذا فقد انفق على بنائها ثمانية عشر ألف ألف دينار أي ثمانية عشر مليون دينار ذهبي.

إلاّ أنها لا تستمدّ عظمتها إلاّ من بانيها ومؤسسها وليس من قدرة حجارتها وطينها، وهذا الرجل الأسمر الطويل الذي يقف بشموخ وسط حشدٍ من الأمراء وقادة الجيش العباسي، كان يعرف ماذا يريد من التاريخ، ويؤمن راسخ الإيمان بأنه يبني دولة قوية رايتها سوداء خفّاقة سيورثها عصراً ذهبياً لأبنائه وأحفاده من بعده.

وصفه أحد علماء زمانه قائلاً:

"كأن عينيْه لسانان ناطقان، تخالطه أُبهة الملوك بزي النسّاك" فأصاب في وصفه حزم أبي جعفر وإجتنابه لمظاهر اللهو والإسراف والمجون، عازماً على بناء دار ملكه بعد أن إستتبّ له الأمر خليفة" للمسلمين بوفاة أخيه أبي العباس السفاح الذي أوْلاه ولاية العهد من بعده، إذا كان المنصور عضد أخيه وساعده الأقوى والأشد في محاربة أعداء الدعوة ومن ثم الدولة العباسية الفتية التي قضت على آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد الملقب بالحمار، والذي تخلّت عنه قبائل الشام القيسية في معركة الحسم ضد العباسيين، فهرب إلى مصر، فطارده فرسان السفاح العباسي وحاصروه في كنيسة، ثم دخلوا عليه ففصلوا رأسه عن جسده وأرسلوها إلى السفاح الذي لم يشأ أن يبقي على وجه الأرض خليفة أو إبن خليفة أموي، كان لا يريد أن يقضّ مضجع سلطانه دم أموي حي يُحرّض عليه ويثور في وجهه لينتزع الخلافة منه كما إنتزعها هو وقومه

بإسم الدم والقرابة لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، فاستقر حكمه أربع سنوات وتسعة أشهر على بلاد العراق وخراسان والحجاز والشام ومصر، لم يمضِ إثرها إلى ربه شهيداً أو مسموماً، بل متأثراً بإصابته بالجدري عن عمر ناهز الرابعة والثلاثين عاماً مُخلّفاً وراءه ولاية العهد لأخيه أبي جعفر الذي كان الباني الحقيقي للدولة ووالد كل الخلفاء العباسيين من بعده، وأول خليفة خطب في الناس قائلاً:

"إنما أنا سلطان الله في أرضه"

-2-

قالوا أن الدعوة العباسية تحولت إلى ثورة عارمة منبعثة من المشرق عندما أرسل أحد أهم دعاتها وقادتها رايتين إلى خراسان تنذران ببدء الثورة على الأرض والقضاء على حكم بني أمية.

الراية الأولى هي راية الظل التي توحي مؤكدة في خفقانها أن الدولة العباسية ودعوتها السامية ستبقى بقاء الظل على الأرض، وأما الثانية فهي راية السحاب الذي يوحي بعالمية وشمولية الدعوة، وبأنها ستسود العالم كله، وهذا ما حدث، إذ خفقت الرايات السود في كافة أنحاء العالم القديم، وإستطاعت أن تسيطر بسوادها الأعظم على ما خلّفه بنو أمية من مال وسلطان وغنائم.

وبالرغم من سدّ المنصور للثغور وإقامته لمناطق آمنة تحمي سلطان الدولة الجديدة وتقيها من شر الروم الصليبيين وغيرهم من أعداء العباسيين، إلاّ أن الأحوال داخل شبه الجزيرة العربية لم تكن كما يشاء هوى سلطانه، مع إنه كان على بطش تام بكل من سوّلت له نفسه بإدّعاء الإمامة ووراثة الخلافة أو النبوة.

كان حازماً حتى مع أقرب الناس إليه من قادة الثورة وأخوته وأبناء عمومته ودمه، وهذا ما جعله مستبداً وصارماً وزاهداً في نفس الوقت في سياسته تجاه الرعية، إذ كان يخطب في الناس قائلاً لهم بعد أن استتبّ له الأمر:

- "أيها الناس إنما انا قِفْلُ الله في الأرض على خزائنه، إن شاء فتحني وإن شاء أغلقني"

وأما في بنائه لبغداد، فقد كان يشرف يومياً على عملية البناء الجارية على قدم وساق، كان يجول في الطرقات المفتوحة والمُمهَددة حديثاً، يبدي ملاحظاته على كيفية بناء الأسواق، ويستفسر عن نمط البناء ذاك ويطلب تعديلاً على أخر، ويشد من أزر البنائين والخطاطين والعاملين:

- هلموا أصحاب العزم فأنتم تبنون مجد دولتكم ودينكم.

هو الذي شرّع أبواب سلطانه لثقافات الغرب والشرق الخاصة بأمور الحكم والسلطان وشؤون العلم كان بسيطاً متواضعاً في حضّ المسلمين على العمل والجهاد والبناء، هادماً ومدمراً للذين يسعون إلى المسّ بملكه وحكمه.

- إن بغداد ستكون مجد الأمة ودار السلام ومنارة الدين والحكمة، وحاضرة الخلافة التي سيشهد لها القاصي والداني بقسطها وعدلها وعلمها ودينها.

كان يلقي رؤيته الصادقة على حاشيته في خيمته التي دقّ عمودها في أرض عاصمته الجديدة، مأخوذاً بكل ما أنجزه وبناه في هذا الوقت القصير، عندما دخل عليه حاجبه الذي إنحنى قائلاً له بخضوع وخشوع:

- العفو من مولاي أمير المؤمنين هذا رسول بريد في الباب آتٍ من المدينة وقد بلغنا الان في رسالة عاجلة من واليها.

- إليَّ به.

دخل الرسول وفعل كما فعل الحاجب من إنحناءه كادت أن تقصم ظهره:

- السلام على مولاي الخليفة.

- ما وراءك؟

أخبره الرسول برسالته، فانتفض أبو جعفر من وقعها عليه ووقف غاضباً صارخاً:

- ويله، فقد قتلني بدمه ودمي.

هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب حفيد بيت الرسول، والمشهور بلقب المهدي أو النفس الزكية.

كان بقدر حضوره المؤثر ومحبة أهل المدينة المنورة والحجاز له معارضاً شرساً للعباسيين الذين بايعوه في أواخر عهد الأمويين على أن يصبح الخليفة من بعدهم، ولكن السفاح وأبو جعفر خذلاه في ذلك، فلم يبايع أياً منهما عندما إستقر الحكم للعباسيين.

بدوره كان أبو جعفر يدرك مدى نفوذ الطالبيين وقدرتهم على التأثير في نفوس الرعية بحق كونهم أحفاد الرسول عليه السلام من إبنته فاطمة الزهراء، فكان هذا مثار قلقه، وجلّ إهتمامه وهو يبني بغداد أن يحتوي النفس الزكية وآل علي، فلم يدخر جهداً في البحث عنه وعن أخيه إبراهيم ساعياً إلى إستدراجهما إليه، ولكنهما كانا متخفيَيْن وبعيدَيْن عن أعين العباسيين.

وبعد أن ضاقت السبل بأبي جعفر شرع في حبس وتعذيب آل علي في سجن المدينة، وإستقدم معظمهم إلى سجن البصرة مغلولي الأيدي والأعناق، فأذاقهم صنوف الهوْل والعذاب بسبب تسترهم ودعمهم للنفس الزكية.

فقضى العديد منهم من شدة التعذيب، حتى أن عبد الله بن حسن والد النفس الزكية أسمع أبا جعفر آلامه وعذابه قائلاً له:

- "والله يا أبا جعفر ما هكذا صنعنا بأسراكم يوم بدر".

فلم يجبه الخليفة العباسي الثاني، بل أمعن في تعذيبه لهم، وأحكم سيطرته على المدينة بعد أن عزل العديد ممن ولاّهم عليها إثر فشلهم في القبض على النفس الزكية، رافضاً مشورة زبانيته واولي مشورته الذين دعوه الى تولية رجل من آل الزبير على المدينة، لما هو واقع ما بين آل الزبير وآل علي من عداء دموي وحقد أعمى، رفض أبو جعفر قائلاً لهم بصرامة:

- "أعاهد الله ألاّ أثأر من أهل بيتي بعدوي وعدوهم ولكن أبعث إليهم صعلوكاً من صعاليك العرب".

فولّى على المدينة رباح بن عثمان الذي كان على درجة من السفة والغطرسة، في إدارة شؤون الرعية في المدينة المنورة.

وما أن تطاولت حدة التعذيب والتنكيل ووصلت إلى ذروتها، عَزَّ على النفس الزكية ما أصاب أهله من وحشية أبي جعفر، فخرج من مخبئه إلى أمه هند متخفياً بظلمة الليل قائلاً لها:

- إني "قد حمّلتُ أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به، ولقد عزمتُ على أن أُسلّم أمري وروحي للطاغية أبي جعفر عسى أن يخلي سبيلهم.

إلاّ أن أمه طلبت منه أن يتريث ويصبر قليلاً حتى تأتيه بخبر من أبيه، فذهبت إلى سجن المدينة متخفية بلباس أعرابي، وإلتقت بزوجها وأخبرته بما قاله لها النفس الزكية، فأجابها بإصرار وعزيمة:

- "كلا بل يصبر، فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً قولي له أن لا يفعل".

كانت صلة الدم تحميه والرعية تؤويه، هذا ما كان عليه حال النفس الزكية، فلم ينتظر كثيراً ليخرج على حكم أبي جعفر مشهراً في وجهه حقه بالخلافة، إذ ظهر في المدينة مستغلاً إنشغال أبو جعفر في بناء بغداد، ودخلها دخول الخلفاء يسانده مئة وخمسون رجلاً من المؤمنين به وبحقه، فأتى السجن وحرّر من فيه، يدفعه في ذلك دعم ووقوف أهل المدينة بجانبه وتخلّيهم عن والي المنصور المتغطرس وبعد أن أحكم سيطرته وإستيلاءه على المدينة، وراقت له أمور خلافته هنيْهةً، خطب بالناس في المسجد النبوي قائلاً لهم:

- "أيها الناس، إنه كان أمرنا وأمر الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يَخْفَ عليكم في بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في مُلكه وتصغيراً للكعبة الحرام...

أيها الناس إني والله ما خرجتُ بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ولكن إخترتكم لنفسي، والله ما جئتُ هذه وفي الأرض مِصْرٌ يُعبد الله فيه إلاّ وقد أخذتْ لي فيه البيعة".

أخذت هالة الخلافة والإمامة بالنفس الزكية الذي لم يكن يعلم أن دهاء أبو جعفر وصل به الخبث إلى ان يخدعه بتلاعبه به من خلال إرسال معلومات

باطلة مُضَلّله إليه، من خلال بعض الذين إدّعوا التشيّع والدعوة إلى آل علي.

إذ دفعهم المنصور لكي يؤكدوا للنفس الزكية بأن البيعة أُخذتْ له في كافة أصقاع الأرض الإسلامية، ولكن ما حدث كان أعظم من أن يدركه الرجل الذي تجري في عروقه دماء إستمدّت طهرها وقدسيتها من إنتمائها لنبي الإسلام.

ترك أبو جعفر بغداد الناشئة حديثاً حين أتاه خبر خروج النفس الزكية، وتوجه إلى الكوفة لكي يرعى أحوالها بنفسه، لأن أهلها كانوا في معظمهم من شيعة علي وأصحاب آل علي، وقد يثورون على العباسيين عندما يصل إلى مسامعهم خبر خروج النفس الزكية في المدينة، وما أن نزل أبو جفر بالكوفة حتى أمر بإغلاق أبوابها ومنع دخول وخروج أي أحد منها وإليها، ففي قرارة نفسه كان يدرك تمام الإدراك مدى خطورة هذا الخروج المدعوم بالدماء النبوية، فهو وأخوته قاموا بذات الأمر الذي أفضى بهم إلى هذه الدولة القوية، إلاّ أن الفرق هنا كان حذق وبراعة العباسيين في تأسيس دعائم راسخة لبناء مُلكهم إعتمدت بالأساس على قوم المشرق، حيث عرب خراسان وعجمها، والأهم من ذلك فقد كان سلاح ثورتهم الصبر والسرية والتخطيط الجيد الذي إفتقده النفس الزكية بعد أن أخذته حمية آل علي وقادته إلى المزيد من الدماء.

لم يغفل أبو جعفر عن نشأة تاريخه العظيم، فسعى إلى الظهور بمظهر الخليفة العادل الذي لا يجور على آل بيته وبيت النبي، فشرع إلى محاورة النفس الزكية يدعمه في مسعاه التاريخ والورّاقون الذين كانوا أسفل عرشه يكتبون نزعاته وتطلعاته كما يشاء ويرغب هو.

- ابعث إليه في البداية ما يُقومّه ويرده عن ضلال أمره إلى الصراط المستقيم.
- ولكن الواقعة قد وقعت يا أمير المؤمنين، فإن لم يـ ضع الآن بالسيف قامت علينا عرب الحجاز معه بالسيف.
- لا.. لا والله لأصبرنّ عليه.. إليّ بالكاتب.

قرر ابو جعفر أن يكاتب النفس الزكية أولاً، عارضاً عليه الأمان والمزيد من الجاه، فالتاريخ لأبي جعفر والقوة والشدة لأبي جعفر وقت يشاء يحاور، وقت يشاء يمحق ما دامت الدوله له والسيوف والخيول والرايات السود له، ودم

الأقربين أولى بالسفك من قبل الأقربين.

-4-

"بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عبدُ الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله

أما بعد

و﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(1).

ولك عهد الله وميثاقه وحق نبيّه إن تُبت أن أؤمنك على نفسك وولدك وأخوتك ومن بايعك وتابعك وأن اعطيك ألف ألف درهم...، فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجّه إليّ من ياخذ لك الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام".

ولكن من إعتلى منبر رسول الله وأشهر حقه بالخلافة بثبوت الأمر له أجاب على رسالة المنصور:

من عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد

أما بعد..

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾(2).

وأنا أعرضُ عليك الأمان مثل الذي أعطيتني، وقد تعلم أن الحق حقنا...، وإن أبانا علياً كان الوصي والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء...، وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمتُّ بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا

---

(1) سورة المائدة: 33-34.

(2) سورة القصص: 3-4.

وحديثنا ونسبنا وسببنا وإنّا بنو أُمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم وبنو إبنته فاطمة في الإسلام من بيْنكم، فأنا اوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أماً وأباً...، لم تلدني العجم...، فولدني من النبييّن أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة..، ولك عهد الله إن دخلت بيعتي أن اؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلاّ حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم، أو مُعاهد فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفى للعهد منك وأحرى لقبول الأمان...، فأما أمانك الذي عرضت عليّ فأي الأمانات هو؟

أأمان أبن هبيْره أم أمان أبن عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم؟[1]

والسلام".

-5-

أدركَ المنصور خطورة من حدة رسالة النفس الزكية، فالكتاب كتاب لا كتاب لا حوار وصُلح، لذلك قرر أن يكتب محاولته الأخيرة في كتب التاريخ والسير، وليسَ سعياً وراء إقناع النفس الزكية بضرورة التخلي عن غيّه، إذ هو سبيل تاريخ عدله مع آل بيته وتبرئة ذكته مما سيُهرق الدماء:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

من عبد الله عبدُ الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله.

أما بعد..

فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك فإذا جلّ فخرك بالنساء لتضلّ الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء...، ولقد علمتَ أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة فأجابه إثنان أحدهما أبي[2] وكفر به إثنان أحدهما أبوك [3] فأما ما ذكرت من

---

(1) هم من الذين فتك بهم المنصور بميثاق أمان مخادع بعد أن إستتب له أمر الخلافة.

(2) يقصد العباس بن عبد المطلب.

(3) يقصد أبو طالب.

النساء وقراباتهن فلو أُعطيت على قرب الأنساب وحق الإحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه.

فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب فإن الله لم يهدِ من ولدها أحداً إلى الإسلام ولو فعل لكان عبد الله بن المطلب أَوْلاهم بكل خير في الآخرة والأولى...، وأما ما ذكرت من أنك إبن الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل أبى ذلك فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1]

ولكنكم بنو إبنته، وإنها لقرابة قريبة غير أنها لا تجوز الميراث...، وأما قولك: إنك لم تلدك العجم ولم تُعرف فيك أمهات الأولاد وأنك أواسط بني هاشم نسباً وخيرهم أماً وأباً فقد رأيتك فَخَرْتَ على بني هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خيرٌ منك أولاً وآخراً وأصلاً وفضلاً فَخَرْتَ على إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والد ولده فانظر ويحك أين تكون من الله غداً...

ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلوات المكتوبة كما تُلعن الكفرة فعنّفناهم وكفّرناهم وبيّنا فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنّا لما ذكرنا من فضل علي أنّا قدّمناه على حمزة والعباس وجعفر كل أولئك مضوا سالمين مُسلّماً منهم وإبتلى أبوك بالدماء، ولقد علمت أن مآثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون أخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر، ولقد جاء الإسلام والعباس يُموّن أبا طالب للأزمة التي أصابتهم وفدى عقيلاً يوم بدر فقدمناكم في الكفر وفديناكم في السر وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحُزْنا شرف الاباء، وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام.

---

(1) سورة الأحزاب: 40.

كان كتاب أبو جعفر الأخير إلى النفس الزكية بمثابة إعلان حرب، إذ أرسل الخليفة العباسي ولي عهده وابن أخيه عيسى بن موسى العباسي على رأس جيش قوي إلى المدينة لإخضاعها والقضاء على الثورة الصغيرة وأنفاس الذي لقَّب نفسه بالمهدي والمشهور بالنفس الزكية.

أراد أبو جعفر الإنتهاء بسرعة من أمر آل علي، حتى لا يتنشر خبرهم وتقوى شوكتهم بتعاطف الرعية معهم، خاصة أهل خراسان التي كانت ذخر الدولة العباسية وسرّ قوتها، فكان له ما أراد إذ نزل الجيش العباسي على حدود المدينة التي حفر حولها النفس الزكية خندقاً أُسوةً بخندق سلمان الفارسي في يوم الأحزاب، إلاّ أن ما فعله كان أثره كارثياً عليه، إذ حاصر نفسه بنفسه خاصة بعد أن قطع العباسيّون طريق مكة لكي لا يفرّ منها.

علمتْ الرعية في المدينة بمجيء عيسى بن موسى وجيشه العرمرم فما كان منها إلاّ الخوف والتخبط، فتخلّى العديد من الناس عن النفس الزكية الذي حوصر في حلمه بالخلافة، ولم يجد ملاذاً للفرار، فصمد وقاتل حتى الرمق الأخير رغم رفع العباسيين للرايات السود فوق الحرم النبوي، إلاّ أن قتاله بالنهاية هُزم بمآل التاريخ وقوته، إذ هرب أصحابه وتفرقوا عنه، وتركوه وحيداً جريحاً في ميادين المدينة وهو يئنّ قائلاً بإنكسار:

- "ويحكم إبن نبيّكم مجروح مظلوم..

ويحكم ابن نبيّكم مجروح مظلوم.."

ففي ذلك اليوم الموافق للخامس عشر من رمضان لسنة 145 هجرية، وبعد شهرين وسبعة عشر يوماً من الخلافة العلوية القصيرة حزَّ رأس محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فارسٌ عباسيٌ وأرسلها في بُرْدة يمانية سوداء إلى خليفة المسلمين أبي جعفر الذي أصبح لقبه المنصور إثر إنتصاره الدموي السريع آمراً بدوره أن يُطاف بالراس التي فكر صاحبها بإنتزاع الخلافة من العباسيين في كل أرجاء دولة بني هاشم العباسية الجديدة، لتكون

عبرة هدّامة لكل الرغبات والشهوات، الساعية للسلطان والمُلك.

من ذلك الوقت كان إبن الخليفة المنصور إسمه محمد بن عبد الله، إلاّ أن المنصور كان لديه غايات ومقاصد أخرى في لقب يُسبغه على ولده في عز سلطانه، حيث قام بصكّ النقود التي نقش عليها لقب إبنه الجديد هكذا:

"بالريْ سنة ست وأربعين

مما أمر به المهدي محمد بن أمير المؤمنين".

حيث مضى مهدي العلويين وجاء مهدي العباسيين الذي قال عنه الهمذاني عالم وفقيه الحجاز:

"قد جاءت به الروايات وظهرت فيه العلامات".

* * *

تعقيب خاص بهذا الفصل فقط:

نص هذه الرسائل المتبادله ما بين المنصور والنفس الزكية مقتبس من كتاب الخلافة العباسية لعبد المنعم الهاشمي الذي اقتبس هذه الرسائل بدوره من كتاب الطبري – الجزء السابع ص 566–570.

الفصل الثالث:

مع رقية البدوية

لم يرحمني مصيري الخاطف الذي عاجلني بأحداث قاسية متتالية وسريعة، فأنا الآن في لُجة دهشتي وحيرتي أصبحت تحت عباءة الأعرابي المُقنع في قبيلة صحراوية صغيرة لا أعلم كم من الوقت سأمكث بها.

كان همّي يشبُّ نحو أمي، ولهفتي وشوقي للعودة إليها ولدياري، رغم طيبة أهل القبيلة معي، خاصة رقية التي واستني وإعتنت بي جيداً حتى أصبحت في بضعة أيام أعرف نساء القبيلة وعلى أواصر تسودها الألفة والطيبة بصحبتهن.

ولكن بدايتي كانت مُتعبة ومُرهقة بعد رحلة عذاب مريعة، حيث قسوة الحياة هنا وجفاف العيش وشظفه وسط القفر والخلاء القارسيْن.

قالت لي رقية ذات مساء:

- ما زالت الصحراء تنبذك يا صغيرتي، ولكنها ستغمرك قريباً لا تخافي.

كانت تحب أن تخاطبني هكذا، مع أنها لم تكن تكبرني إلاّ بسنوات معدودة وجمال صحراوي صارخ.

سألتها:

- ماذا تقصدين؟

أجابت:

- إن الصحراء إمرأة شاسعة.. مُرهفة مليئة بالغموض والمفاجآت، وقصص العرب القديمة، إذ هي تشعر بنا، فإذا عرفتْ بأننا مجرد قوم لا نطلب سوى اللجوء إليها وإلى جسدها الساحر لا إلى أذيتها فإنها ترحب بنا، وتمنحنا سحرها وسكونها.

- وكيف عرفتِ بأنها تنبذني؟

- من أحلامك يا صغيرتي.. من تنهدك الحار وعينيْك الحزينتين الذابلتيْن وضيق روحك، أن الصحراء تأتيكِ ليلاً، مثلما تُسلّط وحوشها على أعدائها والمعتدين عليها، تأتيك في الحلم، تقسو عليك بأنفاسها وذرات رمالها وعماء بدئها.

إبتسمت ثم إحتضنتني بحنان قائلة:

- لن تمكثي طويلاً هنا.. فأنا أعلم ذلك، ولكن آمني بأن الصحراء ستعرفك وستحبك حتماً.

رقية..

يا رقية القلب والطمأنينة، تزورني خيمة الصحراء المتلألئة بالعشق والجمال، تحسُّ بما يختلج بي في هذه الخيمة الصغيرة، وقبل أن أوشك بالسؤال تُرديني هي بالإجابة والذهول، هكذا هي إمرأة صحراوية بهية قادرة على نسج المحبة والأمان مع خيام القبيلة.

كنتُ أراقبها من خيمتي وهي تسير في أرجاء القوم ممشوقة القوم بلباسها الأسود وإثْمِد[1] عينيْها الذي يزيدها سحراً وفتنة، تُمسّد بيدها على رأس طفلة تداعبها.. تحملها.. ثم تُقبّلها، تمضي في طريقها إلى الحديث مع جارة لها، تسألها عن أحوالها وحاجتها، وفي بعض الأوقات كنتُ أراها مع الرجال في الخيمة الكبيرة، في الصدر جالسة بإعتزاز تخاطب رجال القبيلة بأُبهة وجلال وثقة، فكيف لإمرأةٍ في الصحراء أن تجالس وتخالط الرجال ونحن الحضر الذين نسكن البيوت تُعدُّ مجالسة المرأة للرجال وإختلاطها بهم حراما ودعوة للموت.

ولكن هنا، كان كل شيء مختلفا عن واقع الحضر ومُؤتلفاً في إنخراط ناسه مع بعضهم البعض.

أشد ما أثار إستغرابي هي رؤيتي لفرسان القبيلة وهم يتهيّؤون للغارات الليلية، كانوا يعرفون متى يكرّون على القوافل التجارية أو العباسية التي تتناسب

(1) الإثمد: حجر أسود يدق كحلًا للزينة.

وقوتهم في الوثوب عليها، في ليلة الغارة كانوا يجتمعون لديه في الخيمة الكبيرة لكي يعطيهم المعلومات الوافية عن القافلة المقصودة ليوصيهم قائلاً لهم بحزم:

- الخفة والسرعة والقناعة والذود عن النفس.

له سحرٌ خاص حين يتحدث، وحده من أثارني وجعلني أدرك أنوثتي في حضرته، هو الذي سألني عن إسمي أخيراً وأعادني من الوحشة إلى الحياة، كنتُ أتوقُ إلى رؤيته كل يوم، وأتحرّق شوقاً لمجيئه إليّ، لمحادثتي وسؤالي عن حاجتي، ولكنه كان قليل الظهور والتواجد في القبيلة وعلى صيْد أو سفر دائمين، فكانت رقية ملاذي إلى سبر أغوار غموضه وغموض قبيلتهم التي إجتمعت فيها غرابة المعشر والأخلاق وسرتْ في دماء أهلها نخوة العربي وكرمه وشجاعته وفصاحته.

- من هو؟

- هو فارس القبيلة.

- سيدها؟

- كلا.. لا سيد علينا هنا.. نحن قوم أحرار يخدم بعضنا الآخر ونرعى أنفسنا بأنفسنا، وأما "الأنهد" فهو فارسنا وحامي القبيلة ومُرشدها.

- إسمه الأنهد؟!

- نعم.. كبر وترعرع هنا.. كما لو أن أمه الصحراء، منذ أن وعينا في هذه القبيلة وهو هنا، فارسٌ منذ الأزل.

قالت لي رقية أن الأنهد ذو علم واسع، وعلى دراية وافية بكل ما يجري لدى الحضر في مكة والمدينة والبصرة وغيرها من المدن، فقد جاب بلاد الله الواسعة في رحلات طويلة الأمد هدفها التجارة وبيع ما كان يغتنمه هو ورجاله من القوافل العابرة في طرقات الصحراء، ليعود بعدها إلى القبيلة مُحمّلاً بالأخبار وبالغالي والنفيس لأهله وأناسه.

"الأنهد"..

إسمٌ له وقع النغم اللطيف في النفس.

طربٌ يُشفي عطب الروح ويذهب بي بعيداً في سحر هذه الصحراء التي

ستكون معي طيبة كما قالت لي رقية التي لم أسألها عن مدى قربها من الأنهد وعلاقتها به، إذ كان شغفها وهي تنطق بإسمه كافياً لكي أعرف بأنه سيدها وأمير قلبها.

الغريب في الأمر أنها هي أيضاً لمست لهفتي للقائه مرة أخرى، ولم تمتعض.. بل بددت قلقي بإبتسامة وشت بإمتلائها به وإمتلائه بها، وبأن وجودي هنا لن يتعدى الهنيهة وسينتهي بعد قليل.

-2-

حدثتني رقية الكثير عن القبيلة، وأشفت غليل أسئلتي بإجابات وافية وشافية أنزلت السلوى عليّ وعلى مصيري هذا.

قالت لي أن القبيلة لا يجمعها دم واحد، بل أصل واحد هو العربي، حيث كلهم عربٌ هنا من قبائل ونواحي متعددة المشارب، إجتمعوا على حاجة واحدة وهي البقاء على قيد الحياة أحراراً وسادة لأنفسهم، جمعتهم أقدار كثيرة ومختلفة، وإلتقوا على شيء واحد هي الصحراء وخيمة خفيفة الحمل والرحيل من أرض إلى أرض في هذا الأفق الشاسع.

وُلدت رقية هنا، نشأت في هذه الأجواء المفعمة بوحدة الحال والمحبة والصمود في وجه شظف العيش، لا تعرف ما هو نسبها وأصلها، ولكنها تؤمن بأنها من أديم الأرض العربية وأعمق أعماقها، بلسانٍ فصيح ووجه مليح وجسد ممشوق كانت قادرة على الربط والحل والتأثير في نفوس الآخرين وتحديد مصائرهم، إلاّ أنها نشأت على العطاء والعمل وشد أزر رجال القبيلة في حروبهم الصغيرة، فكان هذا حالهم جميعاً، أجيال كاملة تعاقبت وتوارثت الحكاية، حكاية لجوئهم إلى هذه الصحراء النائية والخالية من الإنس وحروبهم.

فمنهم الهلالي الذي آثر البادية والخلاء على إزدحام الحضر بالمنغّصات وهموم القبيلة الكبيرة، ومنهم القيسي الذي لجأ إلى أحضان الصحراء هارباً من لعنة الدم وبطش الحروب القبلية، والقرشيْ الذي إبتعد عن جاه القبيلة ليقترب من بساطة العيش والتقّشف في غايات الحياة، ومنهم المازني الهوازني والطائي،

وآخرون لا أصل لهم ولكنهم خلقوا أهلاً وأصلاً من كرم الصحراء.

- يُقال بأن الأنهد من نسل عروة.
- ومن هو عروة؟

فاجأها سؤالي:

- أنه عروه بن الورد أول وأشهر الصعاليك وأشعر شعرائهم.
- ماذا تقصدين بصعاليك العرب؟

ضحكت.. ضحكت كثيراً ثم قالت:

- ستعرفين مع تعاقب الأيام ماذا أعني.

بأن حرجي ونُكئت جراحي من جديد، تذكرت أمي ركن بيتي وستره وسترها عليّ بكل هذا النكران والجهل ببديهيات الحياة وأحداثها وأحوالها، أنا التي كنتُ أسكن أرض اليمن أرض الفتن كما كانت تقول لي رقية، لم أكن أعرف شيئاً عن بلادي وأجدادي.

أخذتني مغبّة أمير الجند العباسي فإذا أنا هنا وكأنني مسبّية منذ مئات السنين.

وها أنا في بضعة أيام تشرف على الإكتمال شهراً صحراوياً ينكشف أمامي ذُلّي المقيت وعار أمّيتي، وألمس حاجتي إلى الإنبعاث والنهوض ومداواة جراحي وإنكساري.

كم أنا طفلة تبحث صارخةً عن أمها، كم أنا طرية العود لأنكسر في لحظات، كم أنا جاهلة وضعيفة ونكرة مثقلة بأسئلة ضخمة وحشية تحاصرني، تهجم عليّ، تخنقني، تصرعني بالجهل والضعف والسبي.

لو أن أمي أنارت لي درب المعرفة لما حدث ما حدث..

لو أنها أرضعتني الجرأة مع حليب الحياة لما إنكسرتْ..

ولكن..

ألم تكن أمي على حق في بيت مات صاحبه، وباتت سيدته تؤمن بالقضاء والقدر ورعاية أطفالها؟

فمثلها لا يحق لها أكثر من ذلك، فهي لم تكن تريد لي سوى القناعة

والبساطة بعد بلوغي سـن الرشـد ونبوغ جمالي وتطاوله الطارئ في سن السابعة عشر، كانت خائفة من هوْل الدهر العربي هذا، ألم تكن على صواب؟

أريدها الآن..

أريد أمـي.. أعيدوني اليهـا.. الى بيت صغير يحرسـني ويحميني من قسـوة هذه الأيام الشيطانية التي لم ترحمني أبداً.

-3-

- علميني.
- ماذا أعلمك؟

أجبتها بكل ما أوتيت من لهفة وحاجة:

- علميني.. كل شيء.. كل شيء.
- ويحك.. أتظنين أن هذا يتأتّى فقط من الأحاديث والحكايات، إن التجربة التي تخوضينها الآن رغماً عنك هي معلمتك.
- ولكنني أريد أن أكون مثلك.

أطرقتْ قليلاً ثم قالت:

- مثلي؟! ومن أنا إلاّ بنتٌ من هذه الصحراء، ولدتُ وكبرتُ في خضم هذه الحياة القاسية وحمل الخيام من قفر إلى آخر...

قاطعتها بتوسل:

- ولكنك تعرفين الكثير.. عيناك تقولان هذا.

ضحكت قائلة بتعجب:

- عيناي؟!

رقية كانـت راعيتـي وحارسـتي، خاضت فـي أعماقـي، توغلت في سـحيق ألمي، وأدركت مدى هشاشـتي وحاجتي إلى اليقين ونور التجربة، فأخذتْ بيدي كما الأم التـي تعلم طفلها أولـى خطواته نحو الحيـاة، بها هربتُ إلـى أمي ومن أمي، بها لمستُ عطفها وحنانها.

إذ منحتني السـلوان هذه المرأة الصحـراء، وغمرتني حتى شـارفت وحدتي

ووحشة الفراق المهول عن أسرتي على التلاشي.

علميني يا رقية..

حطمي قيـودي وخنوعـي، إحرقـي رداء جهلـي، خذيني إلى حيـث أجد ما يكفل كينونتي وبقائي، علميني معنى الحياة والموت معاً، واحرسـيني من غياهب الجهالة وعتمة الأيـام وظلام الزمـان وظلمه، حرّريـني من أثقال الـوادي الكبير، وادي حضرموت الذي حضّرَ لي موتي وأزهق روحـي وبراءتي، وأدمى فؤاد أمي عليّ مُحتفياً بغيابي.

علميني..

فإني الآن أسعى إلى حضوري..

حضوري بسطوع يليق بقامتي وعزّ جمالي...

* * *

الفصل الرابع:

جارية تجري إلى القصر

في الهاشمية التي ألقاها أبو العباس السفاح بجانب الكوفة مدينة جديدة له ولسلطانه العباسي الأول، كانت الحركة تُلحّ على ضرورة اللحاق بالحاضرة الجديدة بغداد المنصور، الذي أراد بدوره أن يباهي ببابله العالم كله، بعد ان ساد له الأمر وصَدَقْ سلطانه كانت الهاشمية بأسواقها وخاناتها ورغبات تجارها، تسعى إلى إمداد بغداد الوليدة بكل ما يلزمها لتحقيق مجدها، وبالرغم من أن دروب التجارة إتخذت مسلكاً جديداً يؤدي في نهايته إلى العاصمة العباسية بغداد، إلاّ أن الهاشمية إستطاعت أن تصمد وأن تنال حصتها من تحفة المنصور الحديثة.

كانت الأسواق تعجّ بالناس الآتين من كل حدب وصوب لمقاصد الشراء البسيطة أو من أجل التجارة المتمثلة بالشراء والبيع في بغداد، حيث كانت القوافل الآتية من المشرق والمُحمَّلة بالأقمشة والسجاجيد والتحف والزخارف الصينية والفارسية تمر من درب الهاشمية لتلقي عليها سلامها وبعض ما تحمله من تلك النفائس.

كانت السوق الكبيرة في الهاشمية مزدحمة بالخلق والبضائع، والضجيج المتصاعد بالصخب كان إيقاع الباعة والشراة في حركة خانقة يشوبها غبار ريثما يتبدد وينقشع في بغداد.

في هذا الزحام الخانق للسوق كان الموكب الصغير المتفرد بحرس الخليفة يشق طريقه بصعوبة وسط تدافع الناس ودفاع الحراس عن اصحاب الشأن الذاهبين إلى مقصد معين، إذ إنعطف الموكب في نهاية مطاف السوق إلى اليمين حيث كان الخان الكبير الذي يحتوي في طياته على النفائس والجواهر والمتع المُؤجَّلة.

خان كبير يحتوي على العديد من الغرف الصغيرة والكبيرة المغلقة بستائر من قماش مُلون أو بأبواب من حبائل الخرز التي تشي بما تحتويه الغرف من فتن، وبعكس السوق كان الخان هادئا تكسوه العطور الزكية وضحكات تنفلت من هنا وهناك، وفي هذا المكان المربع الشكل والمكون من طابقيْن، يقف التجار والرواد والزبائن أمام الأبواب أو في صحنه الكبير، منهم من كان يستمع لحديث فتاة حديثة السن، وآخر ينصت بإهتمام لإمرأة وهي تغني له، ورجل يتهامس مع فتىً حسن الهيئة جميل المظهر.

كان المكان مأسوراً بالغواية مدعوماً بالروايات، ويلفُّه حديث صاحب الزمان البائد خليفة المسلمين الأموي عبد الملك بن مروان الذي قال في لحظة صفاء أسبغت عليه فصاحة اللسان وصدق البيان وسديد الحكمة وحدة البصيرة:

"من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية ومن أراد للولد فليتخذها فارسية ومن أراد للخدمة فليتخذها رومية".

كان حديثه يلجُ الخان ويحتضن بقوة لا الهاشمية وحدها بل بغداد أيضاً وكل بلاد العرب في ذلك الزمان.

إذ كان خاناً لبيع وشراء الجواري والغلمان.

افضى الموكب الداخل إلى الخان عن امرأة ذات هيبة ووقار، تثبت في مشيتها على أنها صاحبة سطوة في مكان ما، تمشي بنظراتٍ من علٍ، تكاد تطير من شدة غطرسة إلتفاتاتها وإصدار الأوامر إلى حرسها ومعاونيها من رجال ونساء، كيف لا وهي صاحبة حريم وراعية فتنة ومُلْك يمين في قصور أولي الأمر العباسيين؟

كان أحد التجار يجادل بنزق واضح زبوناً في ثمن جارية عندما إلتفت فجأة ليلمح سيدة الحريم آتية، فألقى بالزبون والجدال معه ككوْمة ثياب بالية وهرع صوبها، ثم إنحنى لها قائلاً بصوت ناعم طغت عليه نبرة أنثوية على حين غرة:

– حللتِ أهلاً ونزلتِ سهلاً ياسيدتي.

لم تجبه، بل رمقته بازدراء وإستعلاء يبيحه جمالها وبريق ثيابها.

– لقد جئتِنا بالوقت المناسب ولدي الآن.....

قطعت حديثه المندفع يدٌ حطت على كتفه بقوة، رافقها صوتٌ إمتلك الهيبة وجاذبية المكان:

- إذهب إلى شأنك يا "نجم"

لم يتردد، بل إزدرد ما تبقى من كلام علق في حلقه ومضى دون أن يتفوه بكلمة.

- من هذا المهرج يا أبا عكرمة؟

سألته بسخرية.

ضحك الرجل قائلاً:

- هو من غلمان المكان يا سيدتي.

كانت تعرفه كما يعرفها هو جيداً، فهي ضيفته وزبونته المفضلة والأثيرة التي تدفع الكثير مقابل أن تأخذ شيئاً قليلاً ونادراً متوحداً في جماله.

- لقد صدق الغلام حين قال لك يا سيدتي بأنك وصلتِ في الوقت المناسب، فالبارحة رُزقت بكنوز لا تُقدّر بثمن، ولدي ما يُدّفئ الضجيع ويروي الرضيع.

قالها بلا حياء لم يعتده في هذه التجارة، فالحياء يتعذّر توافره في هكذا مكان، أما هي فكانت بلسانها الأعجمي ولجاجته تطرد الحياء أيضاً بركاكة لغتها هي الفارسية التي كانت ذات يوم جارية صغيرة فغدّتْ بعد جمالها المتوحش وبضعة أيام سيدة قصر الحرم في البلاط العباسي، لهذا كانت عرفت جيداً كيف تقتني هداياها للأمراء وأولي الجاه والأمر، فمن غير الفارسية يدرك جمال المراة بحدة بصيرة وتصبّر صياد.

بالأمس وصلني غلام شيرازي انتزع بدر السماء وحلّ مكانه...

قاطعته بحدة:

- فانتزعه أنت وإغرزه في إستْ أملك، فمن قال أني أتيت من أجل الغلمان؟

إضطرب صاحب الخان فقال لها بخفوت وتذلل:

- أستميحكِ عذراً يا سيدتي، يبدو أن الأمور إختلطت عليّ من شدة رغبتي في خدمتك.

إلتفتت وهي تسير داخل الخان يمنه ويُسره بهدوء وعينيْن مُحترفتيْن وصبورتيْن في الإقتناص والإقتناء.

صدح صوت جارية بالغناء بعد أن طلب أحد الزبائن ذلك لكي يُقدّر صوتها بالثمن المتاح له، ولكي يصدق ما قاله صاحب الجارية عن طرب صوتها وغنائها فسرّه شذْوَها.

إبتسمت راعية الحريم بسخرية قائلة لأبي عكرمة:

– غرّةُ مظهرها، فصوتها لا يصلح لإمتاع ليلة بأكملها ولغناء عشرة أبيات من إصلاح إبراهيم(1).

إبتسم هو بدوره بإضطراب ساعياً إلى تبديد صدى قولها لكي لا يسمعه الزبون:

– حسناً.. سأريكِ ما يليقُ بعطفك علي ومجيئك إلى ولكنها بالأعلى.

كانت تعرف أن غرف الخان العليا تحتوي على سلاح التجار الخفي ومحاولتهم الأخيرة لكسب رضا ونقود الزبائن، وكانت تدرك جيداً أن القاطنين بالغرف العليا ليسوا من العجم والبربر.

فسألته بريبة:

– أهي عربية؟

أجابها إجابة المنتصر:

– نعم يا سيدتي...

قاطعته بإثارة:

– وكيف ذلك؟

أكد إنتصاره عليها وعلي جيبها قائلاً بجذل:

– لا أعلم لقد حلّت علي البارحة برفقة أعرابي باعها لي ومضى على عجل.

أمرته بحدة بعد أن إحتلّها بحديثة:

– حسناً.. إليّ بها.. أريد أن أتفحّصها

---

(1) إبراهيم الموصلي: شاعر وملحن ومغني عاش أيام المهدي وهارون الرشيد في أوج العصر العباسي.

كانت الغرفة في آخر الرواق العلوي وبابها كان خشبياً بعكس الأبواب الأخرى القماشية والخرزية.

فتح الباب بحركة مسرحية مثيرة دون أن يطرقه:

- فلتتفضل سيدتي بالدخول.

ودخلت الفارسية.

كانت الفتاة في داخل الغرفة الصغيرة واقفة بأبهى حللها وزينتها، كما لو أن مباغتة صاحب الخان لها لم تهزّها أو تدهشها، كما لو أنها كانت على يقين مُسبق بقدوم راعية الحريم التي رأت أمامها جارية في ربيع العمر يكتسي مطلعها شعرا ليليا سارحا في ديجور الليل، وجبين يكاد يُومض من غير سوء بحاجبيْن رفيعيْن كأن ملاكاً مُرهفاً خطَّهما بإثمد سماوي، وأما ما يقبع تحت الجبين فكانتا عينين واسعتين إتساع الكون لنجمتيْن تتألقان وتعبثان بالسواد المحيط بهما، والأنف مستَهُ بلطفٍ لتصنعه أنامل حورية، تقيم في وجهها وجنتان يتعشّق بياضهما أحمر خفيف لطيف، وأما الشفتان فقد خُلقتا من جراح الحبيب حمراوان شهيتان، والجيد عاجيّ شاهق الجمال والبياض يتجذّر في صدر حطّت عليه يمامتان تهدلان شهوة وأنيناً، ممشوقة القوام بفخذيْن مُمتلئيْن بذروة الصعود إلى سماء الشهوة.

أخذ جمالها العارم راعية الحريم، فهالها بقشعريرة إنتابت حضورها المهيب إثر عثورها فجأة على هذا الجمال الملقى في غرفة صغيرة مركونة في خان الجواري والمتعة.

بقيتْ للحظات على سكونها وإندهاشها تحدق بعينيْن تعربشتا وجه الفتاة وجسدها الفاتن، ثم سألتها بعد أن إستردت هيبتها:

- من أنتِ؟

أجابت الجارية اللاهية في ربيعها السابع عشر بصوت أخّاذ يصدح في أثير الجنة:

- أنا الخيزران يا سيدتي.

سألت راعية الحريم بصرامة:

- وهل عند العرب أسماء كهذه؟ هل أنت من كنّاها يا أبا عكرمة؟

أجابها كالمتهم الذي يدفع عن نفسه التهمة:

- لا.. لا يا سيدتي هذا هو إسمها الحقيقي وقد أكدّه لي الأعرابي الذي جاء بها..

قاطعته وهي تحدق بالجارية:

- ومن أي العرب أنتِ؟

أجابت الجارية وكأن عاصفة الفارسية لم تؤثر بها أو تقْتلعها من جمالها:

- من عرب الجنوب يا سيدتي.

أرادت أن تسألها عن أصلها أكثر بعد أن استثارها هدوء ودعة الجارية، إلاّ أنها إلتفتت فجأة إلى أبي عكرمة ثم دفعته بيدها قائلة له بحدة:

- إنصرف من هنا.. هيا.. أخرج.

لم يتردد الرجل بالخروج بسرعة لأنه كان يعلم ما الذي ستفعله راعية الحريم، فما أن خرج مغلقاً وراءه الباب حتى دفعت هي بالجارية إلى السرير ثم قامت بنزع ملابسها عنها بعنف وإثارة.

- ماذا تفعلين يا سيدتي؟

سألتها الجارية بخوف شديد.

أجابتها وهي تنزع عنها ملابسها بيدين متمّرستيْن:

- ألم يعلمك سيدك أن الجواري لا يسألن بل ينصتن لرغبة أسيادهن ويُجبن بأجسادهن فقط.

جزعت الجارية مرتجفة صامته من هذا العري المفاجئ والقاسي الذي أصابتها به هذه الفارسية المتوحشة.

وما أن عرّتها تماماً حتى أمرتها بحزم:

- هيا قفي

ترددت الجارية وخجلت خائفة من الوقوف بكامل عريها.

نهرتها:

- قلتُ لكِ قفي.

وقفت بتردد وحياء، ووقفت معها قشعريرة مسّت راعية الحريم التي هالها ما رأته من جسد أبيض مصقول من غير سوء خلقه الخالق في أبهى وأجلى لحظات صفائه، ثم إقتربت منها.. أزاحت يديْها التي كانت تستر بهما جسدها.

فركتْ حلمة نهدها الأيسر فأنّت البنت.

ثم جذبت شعرها بقسوة فتأوّهت البنت.

ثم جسّت خصرها بيديها الباردتيْن فصرخت البنت.

ثم أجلستها على السرير وباعدت ما بين فخذيها متفحصة ملتقاهما بعينيْها الخبيرتيْن والفجتيْن، ولكن البنت لم تصرخ هذه المرة بل هي من صرخت وكتمت ما تبقى من صرختها ودهشتها بوضع يدها على فمها قائلة لنفسها:

- يا إلهي.. ويح البنت إنها بِكْر لم يمسَسْها بشر سواي الآن.

ثم تداركت أمرها بسرعة طالبة من الجارية أن ترتدي ملابسها:

- إسمك الخيرزان إذن؟!

أجابتها وهي تكفكف دمعها:

- نعم يا سيدتي.

- حسناً هيّئي نفسك ومتاعك واستعدي للرحيل فقد فُتحت لك أبواب النعيم.

-2-

إقتاد معاونو راعية الحريم الجارية إلى موكبهم الصغير، لتعود هي بعدهم بقليل واجمة الوجه بعد أن تفاجأت من ثمن الجارية البخس، فقد كانت تعتقد أنها ستدفع ثمناً باهظاً مقابل هذا الجمال، ولكن أبا عكرمة على غير عادته لم يطلب سوى سبعة عشر درهماً من الفضة ثمناً لها، وهذا ما اثار حفيظتها ودهشتها، إلاّ أنها ما لبثت أن إحتوت هذا الطارئ الغريب ومضت بهديتها النفيسة إلى قصر الحريم.

سألت عن الجارية الجديدة قبل أن تنطلق القافلة:

- أين هي.. ادعوها إليّ؟

فأقبلت الجارية بخفر وإضطراب ثم سألتها الفارسية:

- هل تعلمين إلى أين سنذهب؟

أجابتها التي لطالما حلمتْ بالقصر ونعيمه ببداهة طفولية:

- نعم يا سيدتي.. إلى بغداد حيث الخليفة وقصر الخلد.

إزْبَدَّ وجه الراعية وصاحت بالجارية:

- كلا أيتها الخرقاء، لن نذهب إلى هناك، أتعتقدين أن لدى يمين مولانا أمير المؤمنين وقتا لك.

فزعت الجارية وسألتها بخوف:

- ولكن إلى أين يا سيدتي؟ أريد أن أذهب إلى بغداد.

ضحكت الفارسية ضحكة فاحشة ثم وضعت يدها على وجه الجارية وتحسّسَته بإثارة:

- ومن أنت يا جميلتي لتأمري؟

ثم صفعتها على خدها الأيمن بقوة على مرأى ومسمع الموكب والسوق والبلاد كل البلاد:

- أنت تُطيعين فحسب هل سمعتِ وإلاّ سأُحيلُ هذا الجمال رماداً..، هيا انصرفي من أمامي.

وأمام هذه الثورة العارمة التي أحدثتها الفارسية تعثّرت الجارية ووقعت على الأرض مجهشةً بالبكاء والنحيب بعد أن تبدد حلمها وتحول إلى كابوس مخيف تصدّرته هذه المرأة القاسية.

إحتارت الفارسية في أمرها، وظلّت تحدق للحظات في تخبط الجارية وبكائها الأرضي هذا في أجواء الموكب والسوق، ثم دنتْ منها بهدوء حلّ عليها فجأة كما لو أنها تحتوي داخلها على أكثر من إمرأة تتراوح ما بين الشهية والشيطانية والبريئة والعاقلة والمجنونة:

- يا جميلتي لا تبكي الان.. لا أريدك أن تفسدي هذا الجمال، فنحن على مشارف قصر منيف وعيش هانئ وجنة رغداء.

أمسكت عن الكلام وهي تُمسّد على رأس الجارية بحنوٍ وعطف ثم أردفت

قائلة بحماسة:

- سنمضي الآن إلى "الري" حيث مقام المهدي محمد إبن مولانا أمير المؤمنين، هيا إنهضي وانضمي إلى القافلة.

أقلعت الجارية عن البكاء عندما وقع عليها إسم الأمير العباسي ونهضت وكأن نشيجاً لم يكن قائلة بصوت خافت:

- وهل هو جميل مثل بغداد يا سيدتي؟

ضحكت الفارسية:

- بل أجمل.. يكفيكِ أن المهدي به، ألم تسمعي من قبل بإسم إبن مولانا أمير المؤمنين؟

من جهتها كان جلّ همّها أن تحط في قصر من قصور الخليفة المنصور في بغداد، ولكن الأقدار وضعت أمامها هذه الفارسية التي ذُهلتْ من جمالها فآثرت بها المهدي على قصر الخلد، فالخليفة المنصور لم يكن رجل جوارٍ وصاحب ليالٍ مُترعة بالمجون والفتن، وأما المهدي ذلك الشاب البهي وقائد جيوش المشرق فإنه يستحق كل ما ينبض بالجمال والغواية.

-3-

وأما مدينة "الريْ" المُطلّة على مشارق الدولة العباسية فكانت نقطة الإنطلاق الرئيسية والقاعدة الأساسية للجيش العباسي الذي أخذ على عاتق خيْله سيوفاً مُشهرة لإخضاع نواحي خُراسان وفتح ما تبقى من بلاد كانت عصية على الأمويين فيما مضى.

وكان القصر "الزينبدي" متربعاً على عرش تلٍ يُطلّ على إنبساط الأرض الشرقية وتبعيتها للخلافة العباسية العظيمة.

ورغم معسكرات الجيش المكتظة بالجند والفرسان والرايات السود والإستعداد لما هو قادم من فتوح وغزوات، إلا أن الأجواء داخل القصر الفردوسي كانت مختلفة تماماً إذ هو قصر منيف مزدان بالبساتين والجنائن الخلاّبه التي كانت سلوى إبن أمير المؤمنين وملجأه الرغيد الآمن بعد عودته

من حروبه الخاطفة ضد المرتدين والكافرين وكان جناح الحريم يقع في شمال القصر مُشرَّعاً على بستانه العدني، فكان جناحاً يعبق بأريج الجواري الآتيات من كل مكان، خليطٌ هائلٌ من كافة الأعراق والأجناس والألوان، ففيه الفارسية والبربرية والحبشية والهندية والأرمينية والتركية والرومية والعربية.

جنة من الحور العين، عشرات الجواري، يهزجن، يتوهّجن، يلعبن، يُحطن بنوافير الماء وظلال الأشجار الوارفة، يجلسن على سُررٍ من ريش وحرير وذهب ويعبقن بجمالهن وأصداء ضحكاتهن، ويعشن حياة لم يعتدن عليها فيما سبق حين كن حرائر في بلادهن.

إجتمعت في جناح الحريم داخل قصر "الري" كل الثقافات، فكل جارية أو سبية جلبت معها ثقافتها ولغتها وطبعها وأسرارها، فكانت الجواري يتباهين بأصولهن إلى أن ينتهي بهن أمر عزّتهن البائدة إلى الشجار، إلاّ أنهن بالنهاية كن ينسجمن وينخرطن بسلام وهدوء في رغد العيش وجنة المكان.

وكانت الخيزران الجارية الجديدة التي زجّت بها الفارسية في هذا المكان، تقضي أيامها ولياليها الأولى وسط أجواء من نسوة وحرير ولحم وشراب وأحاديث، خائفة مذهولة، فهي صاحبة الجمال الآخّاذ التي حلّت على جناح الحريم سرعان ما استرعت إنتباههن، فهجمن عليها بوابل من الأسئلة الخارقة والحادة عن أصلها ونسبها وهوْل المصير الذي أدى بها إلى هنا، وما دفعهن إليها أكثر هي دعوة الفارسية لهن برعايتها وتلقينها أصول الحياة في القصر، ولكن الخيزران لم تستسغ في البداية هذه الحياة الجديدة الصاخبة، فكانت على إنعزال دائم عن محيطها والأسئلة التي كانت تحاصرها مُخبئة في طياتها دعوة الجواري لها إلى الإنخراط والإندماج بالأجواء العامة للجناح والقصر.

كانت تلوذ بسريرها بصمتٍ لتصيخ السمع إلى أحاديث وقصص الجواري ومغامراتهن الليلية في دروس المتعة والإستئناس في البلاط والجلسات الليلية للأمير وأصحابه وحاشيته، إذ كن يستعرضن بفخر ما نلنه من حظوة وعطاءات وهدايا من تلك الليالي.

كانت الخيزران تستمع إلى احاديثهن مأخوذة بفقدانهن لحيائهن وخجلهن

وزوال حشمتهن في مهبّ الغواية والإنتهاك، فكانت تخشى من الولوج في هذا الطقس الجديد كل الجدة عليها رغم جَمالها وسماعها ورؤيتها لهن وهنّ يتهامسن عنها ويتغامزن عليها.

كانت جارتها في المسكن داخل جناح الحريم جارية بربرية إمتلكت مع تعاقب زمان القصر عليها عمق التجربة وفصاحة اللسان، كما إمتلكت جمالها البريّ المتأجج أنوثةً تكسوها سُمرةٌ سحرية، كان إسمها "خلوب" وكان لها نصيب من إسمها، إذ هي تخلب لبّ أي رجل وتُسعّرُ صدره في لحظات ليركع في حضرة ثورانها وهالتها البهية.

كانت خلوب وهي التي يلاصق سريرها سرير الخيزران دائمة الدعوة لهذه الأخيرة إلى التعرّف عليها وعلى الجواري، والإنغماس في أحاديثهن ومسامراتهن الليلية في الجناح، ولم تقنط من محاولاتها الحثيثة الرامية إلى مواساة الخيزران في وحدتها ووحشة عزلتها، إلى أن جاءتها ذات مساء يدفعها إحساس غريب يطالبها بشدّ أزر هذه الجارية الغرّة والمشدوهة من طقوس جناح الحريم.

سألتها بنعومة ولطف:

- ما بالك منهمكةٌ في صمتك الموحش دون أن تشاركينا اللهو والسهر؟

لم تجبها الخيزران بل حدقت بها بصمتها المقيم، فاقتربت منها خلوب وقالت لها بلسان قادر على بدء حديث حميمي:

- والله إني لأعلمُ ان أولى الليالي مُوحشة وقاسية عليك، ولذلك يجب ان تنخرطي في أجوائنا وتندمجي برفقتنا حتى تألفي حياة القصر.

لمست الخيزران دفء محدثتها فسألتها بتلعثم:

- وما الذي ينبغي عليّ فعله؟

أجابتها بإنشراح وحماسة:

- ألم تري وجهك بالمرآة؟ حسناء مثلك لا يليق بها هذا السرير البائس، وهذه الأنوثة الآسرة يجب أن تمتد لتسود القصر كله، فاختلطي بنا أو على الأقل أبقِي بجانبي في الجناح وحياة القصر اليومية لكي تألفي أحوالها وأجواءها.

لم تُعقّب الخيزران بكلمة فأردفت خلوب بحزم هذه المرة:

- أنظري حولك... عشرات الجواري من كافة أصقاع الأرض، إلاّ أن خمساً أو سبعاً منهن فقط قد نلن الحظوة وحَزْنَ على الإهتمام في هذا القصر، فإذا لم تشرعي فيما يكفل لك الحياة الرغيدة فإن جمالك سيذوي إما في هذا السرير المهجور أو في مكان آخر لا تعلمين ماذا ينتظرك فيه.

سألتها الخيزران بحذر:

- ماذا تعنين؟

أجابتها بحرارة زفرتها:

- نحن لسنا حرائر هذا القصر، كما أنّا لسنا سيدات أقدارنا، فقد ترين اليوم خلوب أمامك ولكنك لن تريها غداً لأنها ستكون في طريقها هدية أو مُباعة لأحد موالي الأمير أو أحد أصحابه.

أمسكت عن الكلام وأكبّتْ ملياً في حرير السرير ثم في وجه الخيزران ثم قالت بخفوت:

- إحمدي الله على وجودك في هذا القصر دون سواه، فانهضي من رقادك لتقطفي ثمار إقامتك هنا.

-4-

كانت الخيزران تلحظ كل ليلة إستعداد الجواري الجيد والمبالغ فيه أحياناً، من أجل الذهاب إلى سهرة مليئة باللهو والسمر في بلاط الأمير، فمنهن من كانت في غاية السرور والجذل لأنها ستقضي ليلتها في مسامرة وتسلية الأمراء والقادة، ومنهن من كانت حزينة ومكسوفة لا لأنها لم تذهب بل لأنها تتجمّل ماضية إلى رجل لن يكون أبداً رجلها الأبهى الذي تمنحه أجمل وأطيب ما فيها عن طيب قلب ورغبة.

كانت الخيزران تراقب هذه الأجواء بعينيْن تواقتيْن لما هو قادم، وأذنيْن تستمع بهما إلى أدق التفاصيل الليلية في حياة الجواري وسيرة سمرهن، كانت تسعى وراء الفهم والعلم بالشيء عبر التفكير العميق بقصصهنّ التي غالباً ما

كانت من وحي خيالهن، إذ قالت لها خلوب أن معظمهن يختلقن من باب التباهي والمماحكة والأماني الزائلة أحداثاً ووقائع لا تمتّ لمجلس المهدي بأية صلة.

غالباً ما كن يخرجن بالليل، بعد ان يأتي حاجب أو حارس من بلاط الأمير ليطلب بعضهن بالإسم من راعية الحريم "الفارسية" وفي بعض الأحيان كانت تأتي هي بنفسها لتختار على هواها ما يليق بسهرات القادة والأمراء.

كانت الخيزران تلوذ بفراشها ساترة نفسها بغطائها الحريري حين تراها داخلة بغطرستها وسرعتها المعهودة، لأنها لم تكن مستعدة بعد لقادم الطقوس إثر ما سمعته على ألسنة المجربات والمحنكات من الجواري.

تدخل الفارسية، تقف وسط الجناح، تطلقُ عينيْها في أثر الفتنة والبهاء، تختار كما تشاء هي، تشير بيدها الآثمة إلى الأجساد الغضّة التي إختارتها، في بعض الأحيان كانت تأخذ سبعاً وفي أحيان أُخَرْ كان تاخذ عشراً.

وكانت أيضاً تأتي في زيارات أسبوعية خاطفة وسريعة لتأخذ جارية بعينها، كانت جارية حبشية مثيرة في شعرها المفتول الطويل، وجسدها البركاني المشدود الذي يقذف حمماً من قلب سواده الجهنمي.

أثارت هذه الزيارات فضول الخيزران فسألت خلوب عن غرضها وأمر الحبشية، فأجابتها خلوب إثر ضحكة صاخبة:

- لغاية في نفس الفارسية.

إنعكستْ البلاهة على وجه الخيزران التي لم تتجاوز طفولتها بعد، فأردفت خلوب ساخرة من سذاجتها:

- ويحك.. إنها تأتي النساء كما يأتي الرجال النساء، وتلك السوداء هي غاية شهوتها وذروة كفايتها.. هل فهمتِ الآن؟

-5-

لم تر الخيزران الأمير بعـد، كانت خلوب تحدثها عنه وعن لطفه ووسـامته وحضـوره المهيـب، ومـن خـلال حديثها عنـه كانـت تطـرد مـن رأس الخيزران الأفكار الناتجة لديها إثر أحاديث الجواري وأكاذيبهن.

وبإحاطـة خلـوب لهـا بالرعايـة والإهتمام فـي أيام القصـر ولياليـه، أخذت الخيـزران بالنمو والنضـج أكثر مـن اي وقت مضـى، لتصول وتجـول في جناح الحريم بتوحد ألقها وتميّز ملابسـها وفتنة مشـيتها وهالة قامتها، فتأثرت الجواري بحضورها السـاطع كما لو أنهـا هبطت عليهن حورية من سـابع سـماء، دون أن يلحظنها من قبل وهي متلفّعةٌ بصمتها وعزلتها.

وفي هذه الأجواء الأريجية العابقـة بالبخور والعنبر وقصـص الليالي أصبح جلّ إهتمامها إثر إشـتداد عود جمالها هو كيفية الوصول إلـى الأمير، فبدأت تُعد العدة بعد أن إكتسـبت في ظلال القصر ما سـيكفل لها تحقيق ما تصبو إليه، هي التي كانت تحلم بالذهاب إلى بغداد، فوجدت نفسـها هنـا في هذا القصر المطل على عسكر الخليفة وجند إبنه الأمير.

فما دامت قـد وصلت إلى هنا فإن مـا ينبغي عليها فعلـه الآن هو أن تكون على قدر جمالها وإعتـراف الجواري بها حسـنائهن الأبهى والأحلـى التي تتمدد على سريرها لتسـتمع أكثر مما تتكلم، ولتُوْقع في شِباكها التوّاقة للغيب القصص الهاربة من اللذة لكي تتعلم منها ما يجدر بها القيام به.

-6-

فـي تواترهـا علـى جنـاح الحريم، لـم تـأتِ الفارسـية علـى ذكـر او طلبْ الخيزران، كمـا لو أنها نسـيت أمرهـا غافلة عن جرجرتهـا إلى هـذا القصر رغم أنف حلمهـا، في الوقت الـذي كانت فيه الخيزران قد إسـتعدّت وتهيّأت حسـناء فاتنة عاتية فصيحة اللسان والبيان في سبيل أمير القصر.

فأثار نسيان الفارسـية لها يأسها وقنوطها، وباتت تخشـى من رحيلها المبكر عن القصر على متن بعير هديةً لأحد موالي الأمير يسـكن في مكان ما بعيداً عن

القصر ونعيمه وسلطانه، أو أن تغدو فريسة لنزوات الفارسية الفاسقة المتوحشة.

لذلك قررت أن تنبعث من رقادها لتبحث عن معنى ما لوجودها هنا جارية تباع وتُشترى.

هي التي تريد أن تتفتح، أن تُزهر وتعبق أكثر داخل القصر العباسي.

كانت تبحث عن قيمة تؤوي وجودها في هذا الديباج الأصفر والأحمر والعطر والطيب والزينة، كانت تخشى من ان تصبح ملاذ نزوة وملجأ لذة مثل الجواري الذاويات على الأسرّة، جوفاء خاوية لا يتردد في أرجائها العجفاء سوى اصداء لعنات مصيرها الكابوسي الذي لن تكونه أبداً.

إذ هكذا عاهدت نفسها هاربة من اللحم المحترق بنيرات اللذة المؤقتة، فعلى قدر جمالها كان طموحها صارخاً لا يعرف حدودا بعد أن بدأت بإكتشاف ما تخبئه في داخلها من سحر وتمرد، وما يُحرس روحها من بصيرة في طوْر الحدة والنشوء، وجسد تنهار أمام سطوته ودلاله الجبال.

فشرعت في سعيها لإستثارة إنتباه المهدي إليها عبر خلوب التي حظيت لديه بسحرها وطرب صوتها الآسر، فسألتها حاجة في إحدى الليالي قبل أن تمضي إلى سمرها وسهرها في مجلس الأمير:

- أتسدين لي جميلاً لن أنساه لك ما حييت؟

أجابتها خلوب بلا تردد:

- نعم وكرامة.

فأخرجت الخيزران من تحت وسادتها تفاحة حمراء كبيرة مزخرفة بشعر كتبته بإثمد عينيْها

"هدية مني إلى المهدي تفاحة تُقطف من خدي

مُحمرةٌ مُصفرةٌ طُيّبتْ كأنها من جنة الخلد"

- ويحك ما هذا؟!

سألتها خلوب بحدة.

فأجابتها الخيزران بهدوء ساخر:

- أهذا عيبٌ أم حرام؟! إذا لم تفعلي هاتها نتقاسمها ونقضمها أنا وأنتِ!

لم تتمالك خلوب نفسها، فانفجرت في نوبة ضحك ثم قالت لها:

- لا والله! سأفعل أيتها الماكرة وسأعطيها للمهدي خفية"

تهلّلت أسارير الخيزران لأن خلوب إستجابت لها دون أن تثير المزيد من الأسئلة والصخب.

نعم. لقد أرسلت الخيزران تفاحة من شِعْرٍ إثمديٍ إلى المهدي، وكانت تعرف ما الذي تفعله، وإلى اين ستمضي بها تدحرجات التفاحة في اروقة القصر، فهذا الجمال والبهاء الممشوق، لن يناله ولا يليق به سوى إبن أمير المؤمنين المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور قائد جيوش العباسيين في خراسان، وسيد القصر الزينبدي والليالي الملاح.

الفصل الخامس:

رائية الصحراء

هي الكَشْفُ، وكفٌ مفتوحة على أكثر من مصير، منبسطة ناعمة الملمس، مغلولة الغموض حين اتأملها لا أرى شيئاً إلاّ ما كنته، الحضرمية الصغيرة المرتجفة من شدة وطأة الأقدار التي قذفت بها في هذه الخيمة.

تتعاقب علي الأيام بسلسلة من أحداث ومجريات تؤكد لي أبديتي هنا أنا التي ما زلتُ أتنفسُ بعد هواء جنوب جنة الله، وأسيرُ متخبطة بإيقاع أمي التي اشعر في كل لحظة تعبرني في هذه الصحراء بإبتعادي عنها وقربي من الإنكشاف والعثور على نفسٍ قوية تحلّ علي، وتتغلغل في مكامن ضعفي وترأب ما أصابني من صَدْعٍ لأتجدد.

في بضعة ايام رملية فقط، قررتُ أن أنزع كل ما إرتديته من ضعف وجهل بعد أن أيقنت حاجتي للإنتعاش، للذروة التي تجعلني أمّارةً نفسي.

كانت القبيلة الصغيرة القاطنة في أحقاف الصحراء تعجّ بالحياة الغنية، بالحركة التي تنفي عنها القنوط واليأس، فهي النسيج الذي تأتلف وتتماسك فيه بقوة وإصرار معاني الحضر والبدو معاً، أُناس ألقوا بأنفسهم في غيْهب الصحراء على هامش لُوثة الحضر وعُتْه تاريخ أنا إحدى ضحاياه.

عزموا على الإقامة هنا منذ زمن بعيد، أن يتجددوا في معزل عن التاريخ المتعاقب على الأرض العربية.

كنتُ أخوض بعينيْن تلمعان باللهفة والغموض بملامح حياة البادية المعتمدة على البداهة والبساطة وفطرة الخيمة، واصغي إلى ترانيم رقية وهي تقول لي:

– نحن نعيش هنا منذ الأزل، فأنا أشعر بأن عمري سليل هذه الصحراء

الأبدية، ولا أنشد سوى المآل الأخير إليها.

- لسنا قوما جاهلين، ولا نتخبط في الجاهلية، فهنا تجدين المسلم على دين محمد يصلي لخالقه على نعومة الرمال، وتجدين ايضاً من آثر البقاء على دين أجداده، والنصراني واليهودي والمجوسي والصبائي، أنظري يا صغيرتي، ارفعي يديك صوب الأعالي لتمسدي بهما على جبين نجمة، وحلّقي أكثر وأعلى ليصبح موطنك القمر، إذ لا شيء يحجبنا هنا عن الله، لا غيم، ولا دخان ولا دماء..

-2-

كانت تأخذني دوماً بشجنها، لم يكن صوتها صوتاً، بل نسيماً لطيفاً أحاطني بالحلم وسكون اللحظة التي تأخذ مني كل همومي لتمنحني صوت رقية نسيماً عليلاً يشفي آلامي وجراحي، إذ معها أشعر بالخفّة والإنصياع الكامل لها، هي التي تملك تأثيراً سحرياً غامضاً لا علي فقط بل على الجميع، سحراً ما لربما إستمدّته من إنتمائها وعشقها لهذه الصحراء الممتدة من السرمدية إلى السرمدية، فكنتُ أذهب معها بعيداً في طيات المعاني والبحث عما سيقيني مما هو قادم.

سألتني ذات أصيل:

- كيف إستطاعوا أن يقوموا بسبي إبنة سبأ؟
- ماذا تقصدين؟
- هل تعرفين أصول إسمك أيتها المقّاء؟
- نعم لقد قالت لي أمي أن إسمي معناه الدقة والنخلة الطويلة التي لا تنحني، وها أنا أمامك حقق النصف الأول وكسر من سباني نصف إسمي الثاني.

غمرتني بدفئها قائلة:

- كلا يا صغيرتي فما حدث قد حدث، وهذه الأرض التي كافأك الله بها ستحميك وستعيدك نخلة تعانق النجوم بقامتها وجمالها وإبائها، ولكن ما قصدته إسم جدك سبأ.

- حسناً وماذا يعني؟
- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[1].

إذ عندما كان قوم سبأ أعز وأغنى أهل الأرض كانت آيتهم سدّ مأرب، وبعد أن تمتعوا بنعيم جنانهم وإغداق الله عليهم بنعمه، سئموا من هذه الجنان التي كانت تقع بجانب بيوتهم، وطلبوا من الله بجشعهم وطمعهم وجحودهم أن يباعد ما بينهم وبين رزقهم وجنانهم حتى يتمكن الأغنياء منهم فقط من الوصول إليها، فنقم الله عليهم ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ...﴾[2] حيث كان سدّهم سرّ تفوقهم وشاهد حضارتهم ولكنه إنهار بالقوارض، بأسنان الفئران التي خرقت السد، فانهار مُخلّفاً وراءه خراب سبأ وتفرق أهلها.

سألتها بحماسة:

- أهذا ما كان يعنيه الأنهد حين قال لي عن أهل اليمن أن فأرة قد أغرقتهم؟!

ضحكت قائلة:

- نعم، ولكن يجب أن تعلمي أن إسمك اسم قوم كانوا أشداء أقوياء، فهم أول من سبى العرب، لهذا أصبح اسم جدك الأكبر "عبد شمس" سبأ.
- إذن أنا هنا بوزْرٍ من ظلم قومي وجورهم على العرب فيما مضى.
- كلا يا صغيرتي فهذا حدث من زمن بعيد، وتلك الفأرة لها أجرٌ عظيمٌ لأنها فرّقَتْ أهل اليمن قبائل في الأرض بعد أن كانوا أصحاب متعة وعزة ونعيم، فمعظم قبائل العرب السائدة اليوم ذات أصول يمانية. ولكني وحيدة الآن لا قوم لي، ومن كانوا يسبون الناس ويقلبون حياتهم من نعيم إلى جحيم إنقرضوا بالقوارض، وأنا الناشئة المسلمة لو كنتُ في بيت منعة وجاه لما كان لي هذا الظلام الوحشي، ولكنتُ سيدة في قومي، ولكن زماني رماني بالضعف وبيت متهالك من شدة الوحدة وظلم الوادي ذي الأصل الكبير، وسبي أصحاب الحق الجديد.

---

(1) سورة سبأ: 15.

(2) سورة سبأ: 16.

أعادتني من شرودي في حديثها البعيد إلى حضرة الشفق الصحراوي المثير لغروب الشمس:

- هيا بنا تريد أمي أن تراك.

سألتها بدهشة واستغراب:

- ألم تقولي لي أن أمك قد توفّاها الله؟!

أجابت بإبتسامة باهتة على وجهها:

- نعم ولكن هذه هي أم القبيلة، وجدتنا الكبرى..

-3-

كانت خيمتها أفضل وأعظم خيمة في القبيلة، وموقعها يتفوق على كافة الخيام بإطلالته على مساحة كبيرة من الصحراء المترامية الرمال وعلى كافة أنحاء القبيلة، وكانت رائحة العطور والبخور المتضوعة من خيمتها تقودنا إليها سِلّماً شفيفاً يصعد بنا إلى عليائها.

فلتدخل وحدها يا صغيرتي رقية.

إنبعث صوتها المهيب من غيابة الخيمة سحيق العمق، فأخافني بعدما كنت على وشك الدخول برفقة رقية التي أمسكتُ بيدها متوسلة لها بعينيْ الخائفتين أن تدخل معي، ولكنها هدأت من روعي قائلة بلطف:

لا تخافي فالأم لن تؤذيكِ، هيا ادخلي.

كانت امرأة القبيلة العتيقة، متربعة على عرشها الأرضي داخل خيمة تعبق بروائح تبعث الدفء والطمأنينة في النفس، ويسري في أرجائها نورٌ خفيفٌ تشوبه عتمة طقس لا يليق الاّ بأمرأة مثلها ترتدي الهيبة والوقار والغموض.

كانت متربعة في جلستها، يكتسي رأسها وجسدها الضئيل بُرْدة سوداء موشحة بذهب أضفى المزيد من السحر والرهبة عليها وسط لمعانها في أجواء نيران منتصف الخيمة.

جلستُ بعيداً عنها، فقالت لي وهي تحدق بالنيران بعد أن نثرت بها ذرات البخور:

اقتربي

فاقتربت منها دون تردد أزحف على أربع كما لو أنها ألقت علي تعويذة أزمان وسلام، وجذبتني إليها على عجل.

- إقتربي أكثر أريد أن أرى وجهك.

فدنوت منها ورأسي مُنكّسة وعيناي مُسمَّرتان في الأرض إثر دنوي من رهبتها، كان ظلها يحيط بي دون أن أقوى على النظر إليها.

دنتْ هي مني أكثر ورفعت رأسي بيديها العطرتيْن والدافئتين، ثم حدقت بي، يا إلهي، كانت تحدق بي بعينيْن زرقاويْن تسكنان وجهاً نحتته الصحراء كما تشاء رمالها وشمسها وريحها، امرأة عتيقة جداً لدرجة أنني اعتقدتُ للحظة أنها هي الصحراء الحقيقية.

إخترقت عيناها وجهي، حدقتا بي بقوة هائلة، رأيت الزُرقة تسبر أغواري، ترى ما حدث وما سيحدث، فأخذتُ بها ولم أقوَ على إغلاق عينيْ، إذ كنتُ مأسورة بهذا الدفق الذي إخترقني وجعلني مقطوعة الأنفاس.

إستمرت في التحديق بي لبضع لحظات شعرتُ بأنها دهر من الزمان سُجنتُ فيه.

ثم نفضت يديها من رأسي التي رأيتها تسقط عن محملها مُتدحرجة على الارض منجذبة إلى ذكاوة النار المتقدة في منتصف الخيمة.

أخذتُ ألهثُ بذعر ورأسي ما تزال على الأرض تنفصّدُ عرقاً، كدتُ أهوي في الغياب، والإنجذاب إلى كُوَّة إنفتحتْ فجأة في سماء الخيمة، حفرة سوداء إندَلقتْ عليّ منها أصوات همسٍ وصراخ وبكاء وعويل وضحكات فاحشة، ولكن سرعان ما أعادتني هي إلى طقس الأثير بعدما أحسّتْ برجفتي ومشارف غيابي عن الوعي قائلة بهمس:

- سرّك في اسمك؟

وبركتك في لعنتك...

فرفعتُ رأسي ورمقتها بقسوة لا أعلم والله من أين حلّتْ عليْ عندما أعادتني هي إلى أمي التي لطالما قالت لي مثل هذا الكلام دون أن أعي ما

الذي كانت تقصده من ورائه.

واجهت الجدة قسوة نظراتي بسطوع زرقتها، وحدقت بي بقوة شعرت بها تقتلعني من مكاني وتلقي بي في هاوية مظلمة، وبعد أن أحسّتْ بخضوعي لها خبأتْ يديها في جعبتها، وشرعت تتأمل بي بصمت وهدوء وكأن شيئاً لم يحدث ثم قالت:

- الدرب... دربكِ يكمن في ثنايا إسمك..

جمالك يَعِمُهُ بالدماء.

والدماء دربك يا ابنة بلقيس المنبعثة من البعيد..

ثم أمسكتْ عن تلاوة هذا الكلام الغريب، كما لو أنها لمست رعشتي ورعبي من وقعه عليّ، فاقتربت مني من جديد، ونزعت حجابي ثم وضعت يدها اليمنى على رأسي، ومالتْ عليّ فلفحتْني بلهيب أنفاسها العطرة حتى إلتصق فمها بأُذني وقالت بهمس مثير لا يشي بصوتها العتيق بل بصوت إمرأة أخرى، صوتي أنا ربما:

- رأيتكِ قمراً يحتجب بالسواد ليقتل

رأيتك قمراً يعمّ بالنور ليعشق

آيتكِ تَفُضُّ قادمكِ..

وآيتك قادمة..

رأيتك تعبقين بلقيساً

وتبكين دماً في سبيل الدم

رأيتك في العظمة ترتدين ظّلك

قدرك من الزمان أنواء نجوم

تهوي هنا لتبزغ هناك.. هناك.. هناك

أشارت بيدها اليسرى إلى الشرق، ثم ألقت بالمزيد من البخور على النار، مُتمتمة ببضع كلمات لم أسمعها، ثم أزاحت يدها عن رأسي لتنزع بها من جيدها سبحة طويلة من لؤلؤ وعقيق، ثم حدقت بي من جديد وهي تؤرجح السُبحة في وجهي دون أن تسعفني في إدراك هذا اللقاء الرهيب، كنت فاغرة

الفاه أتفصّد عرقاً جاثية في حضرتها أرتعش من تفوهاتها الغامضة وإفشائها لي عن مصير مخيف محفوف بالدماء والنجوم ولا أعلم ماذا أيضاً، لم أتفوه بكلمة منذ أن دخلت عليها، كنتُ على أتمّ الصمت والرهبة والخشية لا ألوي على شيء.

دنت مني مجدداً وألبستني سبحتها هامسة بأذني:

- هيا.. أخرجي.. إقترب موعد رحيلك، ولا تعودي إلى هنا فلن تريني ولن أراك بعد الآن.

فخرجتُ من عندها مفزوعة مرتجفة، لم أذهب إلى رقية بل هرعتُ إلى خيمتي.

إلقيت بنفسي على فراش البكاء، كان نشيجي هذه المرة مختلفاً، تشوبه أنات لبؤة جريحة، ولكن ما لبثت أن هدأتُ وكفكفت دمعي عندما أخذتُ أفكر فيما قالته لي أم الصحراء هذه، وأنا أتحسس سُبحتها في جيدي.

شعرت بنشوة ما.. بغضبٍ إشتعل في أعماقي وسرى عاصفاً في دمي..

وكانت خيمتي..

وكنت وحدي

وكان الوقت ليلاً حين سألت نفسي بحيرة:

ولكن من هي بلقيس؟

من تكون؟!

الفصل السادس:

لُجَّةُ الدماء.

في حرير جناح الحريم كانت نائمة..

حيث ليل القصر الزينبدي إتّشح بسوادٍ أنيق أضفى الطمأنينة على ساكنيه، وكانتْ الخيزران بعد نهار طويل مزدحم بالجواري وقصصهن تُحلّق في حلم رأته فيه.

رأت إبن أمير المؤمنين محمد المهدي ينزع عن وجهها برقعها الأسود الشفيف، ويأخذ بيدها نحو طرقات بغداد قائلاً لها:

– أميرة فؤادي.. تعالي اصنع لك قصراً من لؤلؤ وذهب، تعالي معي إلى بغداد.

وكانت هي في أرجاء الحلم مشدوهة فاغرة الفاه ومفرق النهديْن، عاجزة عن قول أي شيء له هو الذي رفعها بيديه القويتيْن إلى عرش ناقة حمراء الأديم، كان هودجها يتوهّج بأنوار غريبة عجيبة تذهب بالأبصار وتأخذ الأنفاس.

سألها:

– هل أنت سعيدة الآن يا أميرة فؤادي؟

ومن عِلوّها الشاهق الفخم كانت تلقي بنظرها نحو بغداد، فرأتها من بعيد مدينة من قصور وأبراج وقباب من عاج ومرمر ولؤلؤ، ساطعة بأنوارها البّراقة، فأشار لها المهدي بيده بعد أن ركب بجوارها في الهوْدج:

– أنظري هناك.. هناك بالتحديد ستكونين يا أميرتي.

رأت حيث أشار لها قصراً منيراً في وسط بغداد خُطّ في سمائه إسمها المتّقد بالنيران، فذُهلت وأخذت بالبكاء، غمرها المهدي بعباءته:

– ولم البكاء في حضرة الأمراء يا أميرة فؤادي، هل تعتقدين بأنك تحلمين؟

ثم مال عليها فشمَّ شعرها ولثم أذنها وقَبّل شفتيْها، فاستكانت حين بدأ بالهطول عليها، وهي تتشبث بشعر رأسه بشغف، إلاّ أن عينيها كانتا مُصوبتيْن بلهفة نحو إتجاه واحد، بغداد دار السلام ومهد السلطان.

إهتزّ بهما الهودج، خافت وأزاحته عنها قليلاً بلطف خوفاً من أن يقعا عن متن الناقة ويراهما أحد ويكشف سترهما، ولكنه قال لها وهو يهْصُر نهديْها:

– لا تخافي.. أنت معي ملكي.. مِلْكُ يميني.

فقالت له ببهجة ودلال:

– مولاي يا سيد الأمر خُذني إذن في أوْج الهوْدج وبريق الطريق وما أن بدأ ف جَسّها حتى إستيقظت من نومها اللذيد على يديْن حقيقيتيْن تداعبان جسدها بوتيرة بطيئة مؤلمة، ففرغت حين أدركت أنها لا تحلم، وإنتفضت حين رأت فوقها في هاوية الليل الجارية السوداء "الحبشية" خليلة راعية الحريم "الفارسية" التي أتت للتحرش بها وإعتلائها بعد أن أزهرت الخيزران أنوثة صارخة أدت إلى محاصرتها بالنزعات الشيطانية ووثوبها عليها.

إنتفضت وصرخت، ولكن الحبشية كانت أقوى منها فعاجلتها بإغلاق فمها بيدها القوية ثم همست بأذنها:

– أنتِ لي.. عارٌ على النساء ان ينال جمالك الرجال.

أثار فحيحها الآثم الخيزران وأخافها أكثر، فاستجمعت قواها وأزاحتها عنها بصعوبة، ثم أخذت بالصراخ مُستنجدة بصديقتها خلوب، إلاّ أن الحبشية لم تستسلم بل إزدادت شراستها بتمنّع الخيزران عنها، فانقضّت عليها من جديد ومزّقت لباس نومها الخفيف، دفعتها الخيزران بساقيها بعنف، فأمسكت بهما الحبشية وخدشتها بوحشية وقسوة، فصرخت الخيزران بأعلى صوتها، ثم إختنقت بإستحواذ الحبشية عليها، إلى أن لمحت وهي على وشك الإنتهاك الأيادي القادمة من الخلف لتزيل عنها رجس الحبشية وهوْل فاحشتها.

إذ جاءت خلوب في الوقت المناسب قبل أن تجهز الحبشية على فريستها، فقامت بإبعادها هي وجاريتيْن أخريْن، وجذبنها من شعرها إلى ركنها المظلم

من جناح الحريم، ثم طلبت خلوب وهي تلهث منهن جميعاً العودة إلى أسرّتهن وكأن شيئاً لم يحدث، فهذه ليست المرة الأولى التي تعتدي فيها الحبشية على جارية داخل الجناح.

ثم عادت أدراجها إلى الخيزران التي سترت جسدها بغطاء سريرها مرتجفة ملتاعة مما وقع عليها من وحشةٍ مفترسةٍ لا تمتُّ إلى الأنوثة بصلة.

إحتضنتها خلوب بعطف قائلة لها:

- لا عليك يا صاحبتي.. هل آذتك تلك الفاسقة؟

لم تجب الخيزران بل إزداد بكاؤها نشيجاً.

سألتها مجدداً وبحذر هذه المرة:

- خيزرانتي هل آذتك؟

أجابتها بكشف الغطاء عن ساقيها الداميتيْن، فصاحت خلوب قائلة:

- يا إلهي تلك المفترسة تمتلك مخالب ذئبة ولكن لا عليك فأنا بلسم جراحك يا صاحبتي.

-2-

أوَت الخيزران إلى خلوب الآمنة، لكي تحميها وتحرسها من فحش الحبشية ونظراتها النارية وتعليقاتها الخادشة للحياء في جناح الحريم، لتكتشف أنها ما تزال طرية العود ولينة جداً في الوقت الذي يحتاج فيه جناح الحريم إلى سطوة أنثوية صارمة وحازمة قد تقيها من الشرور المحدقة بها، ومن قنوطها الذريع الذي إنتابها وهي تداوي جراحها، إثر زوال حلمها بالمهدي.

فمنذ أن أرسلت له التفاحة الشعرية مع خلوب، وهي تنتظر بلهفة جواباً عليها يشي بلقاءٍ يجمعها به، إلى أن ضاق بها الإنتظار والسكينة في ملجأ خلوب فسألتها بجزع:

- لماذا لم يرسل ورائي حتى الآن؟

- ولماذا أنت واثقة من إجابته أيتها اللجوجة المتحرقة لرؤيته؟

خجلت الخيزران من إيحاء خلوب القاسي ثم سألتها بخفر:

- لربما كان ثملاً وغفل عن أمر التفاحة؟
- ويحك.. إن المهدي لا يحتسي النبيذ في جلسات سمره.
- حقاً؟!
- إلاّ أنه يُجيز لضيوفه وسُمّاره إحتساء النبيذ في مجلسه، ولكن هل تشكين بصدق نواياي يا صاحبتي؟

أجابتها بإرتباك وبراءة:

لا والله.. ولكني أخشى من الإنتظار الطويل ومن أن تلقي بي الفارسية المفترسة في مكان آخر، كما أنك رأيتِ ما فعلته بي زوْجها الحبشية!

إنفجرت خلوب بالضحك من جملة الخيزران الأخيرة، وما أن هدأ صخبها حتى إنخرطتا معاً في إطلاق النوادر والطرائف على جواري القصر، مما شرّع الباب أمام الخيزران لكي تسأل خلوب عن إجابات لأسئلة عندما أسرّت بها هذه الأخيرة إهتزّت أشجار القصر وخدش حياؤها.

هالها ما تتمتع به صاحبتها من سعة إطلاع وثقافة غنية في عدة جوانب وشؤون لطالما كانت غامضة وعصية على فضولها وإدراكها، فكانت تلوذ بها في الليل لتحاصرها بالأسئلة الصعبة والسهلة والخبيثة والمثيرة، وخلوب تجيب على قدر معرفتها وشؤون جسدها دون تردد أو خجل، ومع كل إجابة كانت الخيزران تتفتح أكثر.

ومع تعاقب الأيام أدخلتها خلوب في جناح الحريم الذي كشفت لها فيه عن طبيعة الجواري وأسرارهن وأصولهن، ومن منهن الطيبة ومن الخبيثة، وغدتْ الخيزران ما بين صاحبتها خلوب وحديقة القصر الغنّاء وظلال أشجارها السامقة صاحبة حضور قوي بهي في جناح الحريم داخل القصر الزينبدي، ولكن المهدي لم يُجب بعد والحلم ما يزال يراودها.

-3-

وأما في مكان آخر بعيد عن مدينة "الري"، وفي أجواء بغداد المشرفة على الإكتمال والنضوج داراً للسلام كما أطلق عليها بانيها، كان المنصور جالساً في بلاطه المؤقت المكون من خيمة كبيرة لم تخلُ من ملامح السلطان وأبهة العرش، التي إصطبغتْ بملامحه المهيبة وأسلوب حديثه مع حاشيته في امور السلطان والبلاد.

هو الذي أطلق على نفسه لقباً إستحقه خاصة بعد قضائه على ثورة محمد النفس الزكية الذي كان يُؤرق خلافته، ليصبح أبو جعفر الخليفة المنصور المدعوم بملاحم العرب اليمانية القديمة التي كانت تتحدث عن بطل منصور خارق قادر على هزم الشر وإحلال الخير والعدل في الأرض.

كان بليغ القول، شحيحه، عدواً للبذخ وترف الملوك، كريماً تجاه رعيته، فتلك كانت سياسته المتمثلة بالحزم والبطش بكل الذين يطالبون بحقهم في مُلكه، والعدل والرأفة وتوفير سُبل العيش الكريم للرعية، خاصة في بغداد حاضرة الخلافة.

في لحظات صفائه كان يقول لحاجبه:

- "الخلفاء أربعة ابو بكر وعمر وعثمان وعلي والملوك أربعة:

معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك وأنا".

نعم هو.. ومن غيره الذي بنى تاريخاً مُعمّداً بالحزم والقوة ودماء خصومه؟ فها هو يبني بغداد التي بقدر ما كانت تكتمل، كان هو بشخصيته الحازمة وسياستها الصارمة يخفقُ راية سوداء ظلّلتْ عرش مجده إذ لم يؤسس مُلكاً قواعده من هشاشة وفتن، فجيوشه لم تهنأ بالراحة وهي تُخضع الذين تجرؤوا على الخروج عن حكمه مطالبين بحقهم بالإمامة والخلافة.

فكانت أشد الجبهات خطراً على المنصور جبهة الشرق، حيث ما تبقى من إرث الفُرس، ولذلك قام بإرسال إبنه المهدي على رأس جيش قوي برفقة قادة أشداء بارعين في إدارة شؤون الحرب، فقد كانت الأحوال هناك ما بين أخذٍ

وردٍ بسبب شراسة المعارك وأهل تلك البلاد.

كان المنصور يبني والمهدي يحارب، وكانت الدولة تمضي بثبات وشموخ إلى تاريخها التليد، وكانت شؤون الحياة أيضاً لا تخلو من بذخ اللذة وترف العيش.

فللقصر الزينبدي ميزات خاصة تتمثل بمكانه الشرقي أولاً وحب المهدي للعيش والإقامة فيه ثانياً، إلاّ أن ميزته الأهم في كوْنه قصراً باذخاً مفعماً بالترف ورخاء العيش تكمن في إبتعاده عن المنصور الذي كان يبغض مظاهر الإسراف والتبذير، رغم أنه كان قد خصص ديواناً يُطلق عليه إسم ديوان الجواري والغلمان، هدفه رعايتهم وتأمين مصروفاتهم وإحتياجاتهم، إلاّ أنه لم يُوْلِ هذا الديوان الكثير من الإهتمام بسبب ميله إلى التقشّف الذي ريثما كان يتحول إلى تبذير في مجاراته للإرث الفارسي المتمثّل بالقصور والعروش وبهجة السلطان.

كان جناح الحريم في "الزينبدي" ركناً خفياً من الفردوس لما يحتويه من أمانٍ ورغبات ومسرّات من كل طيف وشكل ولون، المنسجمة مع نظام تام يسير حسب الشرائع التي تُسوّغ شراء الجواري أو سبيهن أو تلقّيهن هدايا، ثم البناء بهن أو إعتاقهن وتزوجهن في دروب مكتظة بأجنحة وقصور الحريم.

فالجارية التي كانت تنال الحظوة والأهتمام لدى سيدها، قد تصل بها الأمور إلى نيل حريتها، فإذا بنى بها وأصاب منها حملاً، فإن نصيبها منه هو أن يرث ولدها إسم أبيه وجاهه وماله وما يمنحه له من أملاك، دون أن تُصيب هي من كل هذا شيئاً سوى رخاء العيش داخل القصر أو بيت ترعى في أرجائه أطفالها.

وأما المهدي محمد ابن أمير المؤمنين فقد كانت حكايته مع الجواري طويلة، إذ عندما اشتد عوده أميراً بهي الطلعة وفارساً هماماً في جيش الخليفة قام بشراء جارية إسمها "محياة" فهام بها وأحبّها حباً جمّاً، حيث كانت جاريته الأولى التي إقتادته إلى محياها الغريب والجديد عليه، فتعلّق بها ليثمر عشقه لها عن حملها منه، ولكن جسد "محياة" الواهن والضعيف لحظة الوضع لم يقو على تحمل آلام المخاض، فأنجبت جنينها ميتاً، لتلتحق به بعد عدة أيام إثر

نزيف دموي حاد أذوى ربيعها.

فحزن عليها المهدي حزناً شديداً وتأثر برحيلها كثيراً، لدرجة أنه إنكبَّ على شراء الجواري مُطلقاً عليهن إسمها، فأمسى لديه "مُحيّات" كثيرات ولكن من إمتلكت فؤاده ورغائبه كانت واحدة، قد رحلت قبل أن تكشف له ما تبقى من أسرار السعادة والحياة.

وعلى هذا الحال كان المهدي يبيع ويشتري الجواري دون أن يعثر على غايته محياة في أي جسد كجسدها أو روح كروحها، فلم تحظَ لديه سوى جوارٍ معدودات منهن الجارية البربرية "رحيم" التي أنجبت له إبنته "العباسة".

ورغم غصّة فؤاده وإنتكاسة هيامه إلاّ أنه كان لطيفاً ودوداً في معاشرته لجواريه، وكريماً عندما تنال إحداهن من حظوته وذروة كفايته، وكان إذا وقع بجارية وأحبها الحب اللاهف والجارف أطعمها حبة جوْز، فسأله أصحابه ذات سهرة:

- وما سرّ الجوز أيها الأمير إبن أمير المؤمنين؟

فأجابهم أن الجوز يُزكي رائحة المرأة طيلة الليل أثناء الجماع الشهي واللذيذ.

وكانت الجواري في جناحهن يتجاذبن أطراف قصص المهدي إما همساً أو طرفةً، وكانت الخيزران على قدر عالٍ من حسن الإصغاء وصدق أمنية بقرب اللقاء.

-4-

في أصيل ذلك اليوم العذب كانت الخيزران تَخْطُرُ ريماً في فيافي الأشجار الوارفة داخل جنة القصر، وسط نوافير الماء ذات الخرير الخلاب الذي كان يدندن على إيقاعه شذى الورد وعبقه أحلى الأغاني.

قطفت وردة وحيَّتْ بها مفرق نهديْها، وأحالت الياسمين طوقاً يزين جيدها، لم يكن غيرها في طراوة الجنة ونسيم صَبا أثارته هي التي كانت ترتدي حلّة زاهية كشفتْ بعض أنّات جسدها لتكتم صراخه بما تبقى من أزرقها الباهت.

كانت جذلى، تتبخترُ هنا وهناك، تراقص خضرة الجنة بأزرقها الفاتن، لا لشيء فقط لأنها أصبحت على قدر جيد من النضج والحكمة في مطلع عمرها اليانع، ولأنها أيضاً إستطاعتْ بسحرها وجمالها القمري أن تستحوذ على إهتمام العديد من جواري القصر، مما منحها المزيد من الأمان والقوة في مواجهة نزعات الحبشية المعتوهة.

كانت على هذه الحالة من الإنتشاء عندما إصطادها وأردى بها من حالق أمانيها صوتٌ ذكوريٌ عميق ورخيم أحاطها من الخلف:

"تفاحة من عند تفاحة جاءت فماذا صنعت بالفؤاد

والله ما أدري أأبصرتها يقظان أم أبصرتها في الرقاد"

كانت المرة الأولى التي تسمع فيها صوتاً ذكورياً منذ أن حلّت بالقصر، فميّزته من شِعره وعرفت أنه هنا هو الأمير الوسيم الذي أرسلت إليه بتفاحتها، أغمضت عينيْها، خائفة من الإلتفاف نحوه للحظة، إلاّ أنها لم تقوَ على إخماد شوقها المتصاعد لرؤيته وسماع صوته، فاستدارت ببطء ورعشة فإذا هي أمام شاب بهي الطلة، يرتدي عباءة بيضاء كستْ جسداً طويلاً ممشوق القوام، جذاب بسمرة طفيفه وشعر أسود أجعد لا تتكلله عمامة أو قلنسوة بل حضور باسم آسر، وكان في يده نصف تفاحة كإشارة واضحة على تفاحتها هي.

حدق بها قليلاً، فخجلتْ ونكّست رأسها بصمت، فاقترب منها، كانت الإثارة قد إنتابتها لدرجة الإرتجاف واللهاث فرفع رأسها بيده الناعمة اللطيفة قائلاً بمرح:

- ولمَ الحياء يا أحلى النساء؟

لم تُجبه، أحسّ برعشتها فأزاح كفه عنها وسألها بإنشراح:

- ما اسمك يا جارية؟

أجابته بصوت شارف على الهمس:

- الخيزران يا مولاي الأمير.

سألها بعد أن نال منه صوتها الشجيْ:

- لسانك يوشك على الفصاحة أعربية أنتِ؟

أجابته بقول لطالما حفظته وردّدته في سريرتها وأمانيها بلقائه:

- أنا من قوم قال عنهم مولانا الأشرف عبدالله بن عباس:

"لكم من السماء نجمها ومن الكعبة ركنها ومن الشرف صميمها".

ذُهل المهدي بإجابتها الفصيحة وبلاغتها في بيان قولها ثم سألها:

- أيمانية أنتِ؟

- نعم يا مولاي.

- وما الذي أدى بكِ إلى هنا؟

- رغبتي بالإقامة في ظل يمينك يا مولاي.

- ويحك.. من أين لكِ هذا اللسان الفصيح؟!

لم تجب، بل عادت إلى سابق خفرها، فأخذ هو يتفرّس في ملامحها ويصول ويجول في جسدها الفارع إلى أن لمح ساقيْها فقال لها مستغرباً:

- يا لجمالك لولا خدوش على ساقيك الخيزرانيتيْن!

فأجابته دون تردد وحياء:

- "يا مولاي إنك أحوج ما تكون إليهما لا تراهما!"

باغتته بإجابتها الجريئة، هو الذي لم يعتد على هذه الفصاحة من جارية، فأسرته بجمالها وفطنتها في سرعة الإجابة، ثم سألها من جديد:

- وما سبب هذه الخدوش يا جارية؟

ترددت في الإجابة، وإضطربت في صمتها للحظات، إلاّ أنها تذكرت فجأة أنها في حضرة إبن أمير المؤمنين، وأنها مِلك يمينه وعليها أن تجيبه كما يريد ومتى يريد، فأسرّت له بما فعلته بها الجارية "الحبشية". كست ملامح وجهه الصرامة وهي تحدثه بصوت مُلبّد بالبكاء إلى أن أنهت قصتها بتعليقات الحبشية البذيئة عليها.

رمقها مجدداً بإبتسامة آسرة وأعطاها نصف التفاحة، ثم مسَّ وجنتها بلطف قائلاً:

- ويلٌ للفارسية على ما صنعته بإخفائك عني.

ثم إنسحب بهدوء كما جاء مُخلّفاً وراءه ذهولها وتخبطها من تحقق حلمها باللقاء به.

الأمير المُفدّى ومالك أحلامها الذي استعدتْ وحلمت وتجهّزتْ وتأنّقت وتعلمت وأمِلَتْ لقاءاً يجمعها به وها هي قد نالته داخل الجنة.

كانت كما تشتهي في اللقاء، فصيحة اللسان، قوية البيان بجمال خارق وإجابات موجزه وذكية، فأدركت بحدسها الأنثوي بأنها قد إستحوذت على إهتمامه بعد أن ألقت عليه سحرها وفتنتها الناشئة.

فكان ذلك أصيلها الأجمل الذي حققت فيه شيئاً من حلمها.

أسرّت الخيزران لصاحبتها خلوب بما أصابته من لقاء عابرٍ جمعها بالمهدي.

حدثتها بحماسة وملامح شخصية جديدة مفعمة بالقوة والفتنة إكتسبتها إثر لقائها به.

قالت لها خلوب بسعادة غامرة:

- ألن تحمدي لي صنيعي فقد سألني عنك بالأمس، ودبّر معي اللقاء بك في الحديقة؟

فقامت الخيزران وعانقتها بحميمية:

- لن أنسى لك هذا ما حييت يا صاحبتي.

ثم سألتها خلوب بريبة:

- هل أفضيت له عما فعلته الحبشية بك؟!

- نعم.. فقد رأى الخدوش على ساقيْ.

- ويحك.. والله لتقتلنّك "الفارسية"!

لم تعقب الخيزران على خشية صاحبتها عليها، إذ لم يعد الخوف يسكنها في جناح الحريم، خاصة بعد أن إنتشر داخل القصر بعد عدة أيام من لقائها بالمهدي السؤال التالي:

- أين الحبشية؟ أين إختفت؟

كانت الجواري يسألن بعضهن بعضا عنها، ووحدها خلوب كانت تعرف

الإجابة عندما لمحت السعادة في وجه الخيزران:

- أخذتِ بثأرك من لقاء عابر فماذا ستصنعين في الأيام القادمة أيتها الشقية؟!

فضحكت الخيزران بجذل وهي تعبث بشعرها، فاقتربت منها خلوب وسألتها بهمس:

- ألا تخشين من سخط الفارسية؟

أجابتها بهدوء:

- منذ أصيل المهدي لم أعد أخشى شيئا رغم أنّي والله ما سألت الأمير أية حاجة.

والله لا أصدقك.

- بلى يا صاحبتي صدقيني، أقسم بأني لم أطلب منه الإنتقام منها أو من أي أحد آخر، كما أني لا أخشى من الفارسية لأن الذي ذهب بالحبشية قادر على الذهاب بها.

حدقت بها خلوب بدهشة، إذ أدركت الآن أكثر من أي وقت مضى أنها تجلس في حضرة أنثى فاتنة وقادرة بسحرها وتطلعها الجامح على تحقيق ما تصبو إليه، فما كانت تصغي إليه وتتعلمه الخيزران في جناح الحريم لم يذهب سدىً، والطريق ما يزال في بدايته وبنت مثلها إكتسبت الأنفاس الطويلة في مطلع عمرها الزاهي والمترع بالآم المصير لن تتعب بل ستمضي إلى آخر حلمها بكل ما أوتيت من فتنة وإثارة وفطنة وذكاء.

-5-

عندما إنتصف الليل في القصر الزينبدي ملقياً بظلال سكينته على الجواري النائمات بدعة وطمأنينة، إنسلّ ظلّ نحيل بخفّة وهدوء داخل الجناح إلى حيث سرير الخيزران الغارقة في نومها كطفلةٍ متعبة من يوم حافل باللهو واللعب.

إقترب الظل منها وإنحسر كاشفاً عن يدٍ بيضاء طويلة، إمتدت إلى الخيزران وهزّتها بشيء من اللطف:

- هيا إستيقظي يا جارية.

همست صاحبة الصوت التي لم تكن سوى الفارسية:

- هيا.. هيا..

تململت الخيزران في سريرها، وبدأت تستجيب ببطء إلى أن فتحت عينيْها على وجه الفارسية المكفهّر فانتفضت صارخة:

لا.. لا.. لست أنا التي...

كتمت الفارسية ما تبقى من توسل الخيزران بأن وضعت يدها على فمها سعياً منها وراء طمأنتها قائلة لها بخفوت وسخط:

- إصمتي أيتها الحمقاء ابنة البظراء فلن أؤذيك.. هيا إنهضي وارتدي أبهى حللك فلستُ أنا من يريدك بل الأمير.

همدتْ الخيزران في الحين بعد أن سمعت بإسم الأمير، وإعتقدت أنها ما تزال تحلم، فسألت الفارسية بعد أن أزاحت يدها عن فمها:

- أنا.. الأمير يريدني أنا؟

- ألا لعنة الله عليك وعلى التي أحضرتك إلى هنا.. هيا قومي لا أريد أن أوقظ الجناح.

عندما وصلتا إلى جناح الأمير، كانت الخيزران ما تزال في مغبة الصدمة غير مُصدقة سوى رجفتها وخوفها من بطش الفارسية التي قطعت عليها شكوكها قائلة للحاجب:

- هي ذي التي أرسلني في طلبها مولاي الأمير.. أدخلها إليه. ثم مضت في سبيلها على عجل مُخلّفة الخيزران وراءها في ذهول هائل.

فتح الحاجب الباب وإنحنى للأمير بإحترام ثم أدخلها وانسحب خارجاً بسرعة.

كان أثير المكان بخوراً، أضفى على حضرة الأمير المزيد من الوقار والهيبة، بتربعه في صدر الجناح وحده على سجادة فارسية حمراء مزخرفة ومُوشاه بخيوط الذهب، مرتدياً عباءته البيضاء التي زادته بهاءً ووسامة، ومتكئاً على وسائد ومساند ملونة من المخمل والديباج المحشو بالريش، تُحيط بمائدة شهية مما لذّ وطاب من زوادة السمر والسهر.

كان المكان مشحوناً بالغواية، مشحوذاً بمشاعل النيران الهادئة التي كانت ألسنتها تتجاذب الإنعكاس على مرايا عكست بدورها شفقاً خلاباً على وجه الأمير والخيزران الجارية الواقفة كصنم من عاج بجانب الباب، فأوْمأ لها برأسه قائلاً بسرور:

- إقتربي.

فاقتربت ببطء مسحورة بصوته وحضوره:

- إجلسي.

فجلست بلا تردد وهي تُشيح بوجهها عنه من شدة حيائها وخلوتها الأولى معه.

قال لها مجدداً:

- هنا.. إقتربي فاجلسي بجانبي، واصدحي بصوت الأصيل.

لم تنبسّ ببنت شفة وأطرقت في ارض الطقس بعد ان دنت منه.

مس وجهها بظاهر كفه بلطف:

- يالحيائك البالغ.. ألن تقولي شيئاً؟

كان صوته يحاصرها، يتسلق عليها، يطالبها بالتحرر من رهبة المرة الأولى، فإذا لم تنعتق الآن من خفرها وخوفها ستظل أبد الدهر جارية تباع وتشترى، فقالت له بصوت مرتعش:

- وما يشاء مولاي الأمير؟

أجابها بسرعة مثيرة:

- صهيل أنفاسك.

هزّها بإجابته هي التي إستيقظت من نومها لتوّها لتجد نفسها فجأة جاثية في حضرته، تبعثرت، إضطربت، وعجزت للحظات عن قول أي شيء، فأحسّ هو بضياعها فقال لها:

- ألقي عليّ من شِعر تفاحتك التي أهديتني إياها.

هدأت من روعها ولملمت حضورها في ظل هيبته المتعربشة عليها، ثم ألقت عليه شعراً لعمرو بن أبي ربيعة:

ما زلتُ أمتحنُ الدساكر[1] دونها حتى ولجتُ على خفيِّ المِوْلجِ
فوضعتُ كفي عند مقطع خصرها فتنفّسَتْ نفساً ولم تتلهَّجِ
فقالت: وحقّ أخي وحرمة والدي لأنبهنّ الحي إن لم تخرج
فخرجتُ خيفة قولها فتبسَّمتْ فعلمتُ أن يمينها لم تُحرج
فرشفتُ فاها آخذاً بقرونها رشف النزيف ببَرْد ماء الحشرَج[2]

سكنته بصوتها الشاعري وأذهلته بإلقائها الآسر، فدنا منها وإلتصق بها عندما أوشكت على متابعة الإلقاء، ووضع كفه على فمها بنعومة ودفء ثم ضمها إلى صدره هامساً بأذنها:

– كفى.. فأنتِ القصيدة ومآل الشعر.. كفى يا جارية!

ثم مرر أصابعه في شَعرها، ضمَه وشمَه، إنتشى بعطرها الشذي، تذكرت هي في هذه اللحظة المبهجة حبه الجوز فضحكت بخفوت، فسألها بعد أن سَرتْ في نفسه اصداء ضحكتها:

– ما بكِ يا جارية؟

– أعذرني يا مولاي فأنا لم أتناول الجوز

فقهقه قائلاً باستغراب:

– وما غرضها؟

تفاجأت من سؤاله، ولكنها أخبرته بما سمعته في الجناح مع علمها المسبق بأنه يسخر منها.

فانفجر في نوبة ضحك صاخبة ثم قال لها:

– وهل مثلك بحاجة إلى جوز يا شذاي وعطر ليلي؟

فتنها بعذوبة كلامه ودفء صوته ثم ضمّها من جديد إليه ومسّدَ على ظهرها بنعومة أسبغت عليها الطمأنينة، وما أن أحسّ هو بهدوء روْعها وزوال تلعثمها حتى دفعها بدِعَةٍ وإحساس مرهف على الإستلقاء على فراشه الوثير، ثم

---

(1) الدساكر: دسكرة: القرية العظيمة أو القصر.

(2) الحشرج: كوز صغير يبرد فيه الماء، أو جوز الهند.

أخذ على إيقاع العشق الهادىء ينزع عنها ما يحجب عنه أنوار جسدها، هي التي سرت في أرجائها الخاضعة له رعشة أوْج اللحظة ويداه الناعمتان وهما تجسّانها بدفء، وإثارة بطيئة الخطى جاست زغبها وخلل جسدها المُشرع له.

كانت بيضاء.. لا ستر عليها سواه بعد أن نزع عنها غُلالتها الزرقاء.

بيضاء سكنتها بضع شامات منثورات بحكمة وجمال على الجسد الشاسع بالفتنة والإثارة، جعلها تطمئن بإستلقائها على ظهرها الفارع، ثم هبط أسفل جنانها وشرَع بشمّها بأنفه وفمه، لفحها، أشعلها من أنامل قدميْها حتى خدوش ساقيها واصلاً إلى مطلع شَعْرها الليلي، حيث أقام بهمسه في أذنيها، تمتم بشعر العشق فارتعشت بين يديه وأنفاسه رخصة لينة قصيدة قمرية تتألق كإرتعاش الضوء على نمش نهديها، لم يسعفها بل حطّ على حلمة نهدها بأرنبة أنفه فتوهجت إنتصاباً، ثم لثمها وعضّها فازدادت رعشتها إثارة، وعضت على شفتها وأنّتْ بيديْن متشبثتيْن بشعره الأجعد حتى لا يقذف بها عن متن اللذة.

كان البخور يحيطهما دخاناً شفيفاً يحرس طقسهما المزدان بالقُبَل، فإستجاب جسدها له، وإستسلمت لأنفاسه التي رفعتها إلى جارية عشقه، فداعب ما بين ساقيها برطوبة أصابعه إيذاناً منه بإلتحامه بها ثم إقتحمها ثم صرخت وصرخت.

صرخت بأعلى صوتها وهي تمسك بمتنه القوي، عيناها تجاوزتا السقف، عرجتا إلى السماء لتعيدا ترتيب النجوم المتبعثرة إثر حدة صرختها، إلى أن أعادها هو الذي توقف فجأة عن إقتحامها بتأجج عشقه، عندما صدمه ما رأى وصرخ قائلاً بذعر:

– ويحك.. لِمَ لمْ تقولي لي بأنك بِكْر؟!

تدفقت عذريتها على البساط دماءاً وسط دهشته وذعرها فشرعت بسرعة فطرتها الأنثوية إلى ستر جسدها وإنتهاكها، عندما نهض هو وارتدى عباءته على وجه السرعة منسحباً من الجناح لاهثاً مذهولاً.

وأما هي..

هي التي بكت..

هي البِكْرُ مُلك يمينه، ها قد ذرفتْ من أجله عذريتها ومنحتها له، هو رجلها الأول الذي عرفت معه في هنيْهة الطقس معنى اللذة والألم معاً.

بكت بشدة وهي تحدق بدمائها وجسدها الذي أُنتهك في عزّ الليل عن طيب يمين وأمر أمير، ثم توقفت عن البكاء فجأة ورفعت رأسها في فضاء الجناح، وقالت بصوت حازم كما لو أن مسّ يقين قد أصابها:

- أنا ما سأكون.. ما سأحلم..

أقسم بهذه الدماء بأني سأكون سيدة يميني ودهري ورحيلي.

-6-

لن تنسى الخيزران ما بقيت ما حصل معها في تلك الليلة التي أصبحت فيها أمرأة على يد أمير عباسي، إذ كانت ليلة من دماء دفعت بها مع تقدم الأيام في القصر إلى النضوج، لتكشف بكل سطوع عن آية جمال بديعة.

وكانت تعلم في قرارة نفسها أن المهدي قد وقع بها، وأنه فيما تبقى لها من أيام داخل هذا القصر لن ينشد سواها.

وهذا ما حدث بعد أن سادت الخيزران في جناح الحرم، وباتت على وشك الحظوة التامة، وسط حيرة الجواري خاصة خلوب التي تفاجأت من سرعة إغواء الخيزران للمهدي، وقدرتها على الإيقاع به في حبائل عشقها وحضنها المشتعل بالغواية.

وأما التي اختنقت من هذا الحال الجديد، فكانت الفارسية التي جُنّت من شدة إهتمام المهدي بالخيزران لدرجة أنه لم يعد يُرسل إلاّ وراءها في خلواته، فكان ذلك مؤشراً على أنها على وشك النيل من حظوته، فالجارية التي تسترعي إنتباه الأمير ولبّه، كان يقوم بحجبها عن السهرات الليلية في بلاطه، آمراً بإحضارها إليه في مجلسه وجناحه الخاص، وهذا ما تمتعت به الخيزران التي اكتمل قوامها سحراً في كافة أرجاء القصر.

إذ أخذت الجواري بالألتفاف حولها لأنها كانت تراعي ظروفهن وشؤونهن بحكمتها وفتنتها، فأصبحت مثالاً لهن في هيئتها وجمالها ولباسها وأحاديثها،

ورغم حداثة سنّها ووجودها داخل القصر إلاّ أنها إستطاعت أن تعبق بما يشي بحقيقة حلمها وما تصبو إليه، فالمهدي لم يكن يهيم ويبني إلا بها، وكان في حضرتها يتحول طفلاً صغيراً يتلعثم في قراءة العشق واصول الليالي المتلألئة بأسرار الحب والحياة.

فكانت معلمته، هي التي إرتجفت بين يديه في ليلتها الأولى، أصبحت ما بين يوم وليلة طاغيته المحبّة التي فضّته كما فضّها وقادته إلى الذروة كما قادها، وأبكته دماً كما أبكاها عندما لقّنتهُ بصوتها الآسر معنى أن تمنح الأنثى نفسها لأمير عشقها عن طيب حلم وفؤاد.

في كل ليلة كانت تقضيها معه، كانت تزداد تماسكاً وقوة وأنوثة طاغية، خاصة إثر إكتشافها لسرّ لطالما خبّأه المهدي في وجده الآخذ بالتصاعد بها وبإقامتها في دمه، إذ كانت بِكره أنثاه البكر الأولى التي أنزلت على فؤاده عِفّتها، على حين ليلةٍ لم يعهد بها المهدي من قبل جارية تذرف براءة عربية.

وفي توطئة الحظوة الكاملة أطاحت الخيزران بالفارسية بعدما طلبت من المهدي التخلص منها، لأنها كانت قاسية وفاحشة وشاذة في تعاملها مع الجواري، فتخلص منها المهدي من خلال إهدائها إلى والٍ لأبيه في الشام.

وهكذا أثبتت الخيزران لكافة القاطنين في القصر الزينبدي أنها هي القادمة من هوْل السبي لتصبح محظية المهدي الأولى والمفضلة خاصة بعد أن أمر بمقصورة خاصة بها بعيداً عن جناح الحريم وقريبة من جناحه هو.

في ذلك المساء كان قد دعاها إليه لكي يطمئن على حالها ويسألها عن مسكنها الجديد فأجابت بدلال:

- ونِعْمَ المقام يا مولاي، مقامٌ أكون فيه قريبة منك.
- ما أطيب دلالك يا جارية!

ثم نهضت وأحاطته من الخلف بيديها قائلة له:

- لك عندي هدية يا مولاي.
- وما هي؟

مالت على أذنه وهمست بها، فهبَّ واقفاً مفعماً بالسعادة والفرحة العارمة:

- حقاً؟!

- بلى يا مولاي.

بلى يا مولاها.. وهل لك سواها ملجأً وملاذاً تبني به من سيرثُ سلطانك العتيد.

بلى ولم لا فهي على وشك أن تصبح أم إبنه القادم...

الذي سيسميه موسى...

موسى الهادي...

* * *

الفصل السابع:

فجراً مع ابن الورد

عندما أحلم..
أغادر هذه الخيمة الى السرمدية
وعِزَّتُكَ عندي...
إلى أن تعلق عباءتي بنجمة الصبح...
سُرَّةُ السماء أنا أصير وعُرْي البداية
بلا عارٍ..
وشمٌ ساطعٌ يضيءُ لكَ
درب الصرخة والأنين.. أنا..
فابتهل وارفع رأسك..
حيث انا..
أنا زُهْرَتك وعِزَّتك..

هذا ما قالته التي رأيتها وارفة في قصر من قمر ومرايا ضباب كانت ترتدي غلالة سوداء شفيفة تشي بمفاتن جسدها بشَعْرٍ من إعصار ذهبي سكن على كتفيها الشاهقتيْن حريراً، تقبض بيدها على عصا قُطعتْ من شجرة لؤلؤ.

عرشها كان شموخها وكل ما حولها يسجد لها وهي تلقي الكلام بعصاها على رأس من سجد في حضرتها، والذي لم أميزّ شكله من شدة خشوعه بكل حواسّه إليها، هي التي كلما إشتدت وطأة إلقائها إنبعث دخان أحمر خفيف من أبهة عرشها، وأنا كنتُ هناك في آخر بلاطها في الظل المتاح لي أراقب المشهد الآسر والمهيب دون أن أقدر على إغماض عيني.

وحين إنتهت من تلاوة ما تيسر لها من لغة سماوية لم أفقه منها شيئاً نظرت إلي فجأةً، وحدقت بي رغم بُعد المسافة ما بيني وبينها، ألقت بعينيها الخضراوين عليّ وأحاطتني بهالة عباءتها الفاتنة، فأنقشع الدخان وانجلى عن البلاط حشد الكائنات، وبقيت هي وأنا الملقاة في ظل العرش.

عضت على شفتها السفلى ثم رفعت عصاها بيدها اليمنى ووجّهتها صوبي، وأغمضت عينها بيدها اليسرى وقالت لي بصوت إنبعث من أعمق أعماقي:

رأيتك قمراً يحتجب بالسواد ليقتل

رأيتك قمراً يعم بالنور ليعشق

إذهبي يا إبنة سبأ أنتِ امتداد ظلي في الأرض فلا تحزني ثم ألقت عصاها عليّ، ولكنني إستيقظتُ من حلمي دون أدنى رجفة أو صرخة مبلّلة بالعرق، حسبي أن فتحتُ عينيّ بفزع مكتوم فإذا بهما تصطدمان بهيبة الجالس في زاوية الخيمة.

ومن سواه يأتيني فجراً...

فجراً رجل الصحراء وقته الأمثل لزيارتي والإطمئنان عليّ وعلى إنكساري، فجراً يأتيني بعد رهبة الحلم الطويل الذي زجّ بي في بلاط امرأة لم أرَ مثيلاً لسحرها وبهائها.

إختلطتْ الرؤيا علي أنا العائدة من شمس بزغت من جبال الأرض الأولى.. من اليمن، لتعانق عودتي حضور الرجل المتكوّم بعباءته في زاوية الخيمة، فكيف وَلَجَ إلى خيمتي هكذا دون أن يُحدث صوتاً أو حركة؟ وكم مرة زارني وأنا نائمة دون أن أصحو عليه؟

دققتُ في هيئته الداكنة للحظات أصابني فيها الحلم بدُوار سحري مؤقت إلى أن بدّد هو أثر الحلم بي بدنوّه مني سائلاً بصوت خافت:

– ما الذي يدعوك إلى اليقظة في هذا الوقت المبكر من الفجر؟

فأجبته بسؤال مشروع:

– وما سبب زيارتك لي في وطأة هذا الفجر؟

إبتسم قائلاً:

- لأحرسك.
- من ماذا؟
- من غواية الصحراء.
- وما هي؟
- سكونها العظيم.
- وما به؟
- يُصيب بالجنون.

كدتُ أن أساله أكثر ولكنه أردف قائلاً:

- ألا تسأمين من الأسئلة؟

كسفني فنكّستُ رأسي بعد أن اصابني في جرح جهلي وسذاجتي التي بدأتْ بالتلاشي هنا لتحلّ محلها الفطنة، أحسّ هو بحرجي، فنهض على حين غرّة ومدّ يده إليّ قائلاً بحماسة:

- هيا.
- ألا تعرف سوى هيا؟!
- وهل هناك أجمل من الصدفة وأصدق من براءة الدرب وترك الأمور لعواقبها؟! هيا
- إلى اين؟
- إلى نور الصحراء.

كانت فرسه "الدآدىء" تحرسنا بجانب الخيمة عندما وجدت نفسي في غمضة عين على متنها أتشبّث بيديْ بخصره الصلب الدافىء.

سرنا في درب القبيلة الصغيرة، ثم إنطلقنا إلى سديم الصحراء. لم يكن سوانا في أفقها، وفرس سمراء حُرّة تدقّ على أديم الأرض إيقاعات الحياة، فهل ثمة أجمل من الفجر لإستقبال الحياة؟

إنصهرتُ في ظهره على متن الدآديء، لا أرجو من الله شيئاً سوى أبدية اللحظة، أن تطول على الأقل وأنا برفقته هو الفارس الأنهد والأحلى والأجمل، سيد الصحراء وأميرها.. أميرُ رقية التي فجعتني عليه وعلي غيْب مُناله، فكنتُ

وأنا معه في أوْج الفجر أدرك تماماً مدى فقداني القادم، وبأنني بعد قليل لن أراه ولن يكون لي، فهو إبن الرمال ولا ينشد سواها مثوىً ناعماً له، قناعته وحبيبته وجنة خلده، أخذني على متن فرسه التي مسّها شُعاع سماوي أحالها إلى بُراق عرج بنا إلى فضاء البدء.

كنا في حضرة الصمت وفرس وحدها تُتْقن نشيد الأرض وحاجتنا إلى الإنغماس فيها أحراراً.

إقتربنا من تلٍ عالٍ بعض الشيء، فتسلَقَتْهُ الدآديء بخفة ورشاقة إلى أن وقفتْ على القمة الفسيحة دون أن يأمرها هو بذلك، فرَبَت على جيدها بلطفٍ ثم قبّلها كما لو أنها أنثى إعتادت على منحه عشقها الليلي بلا حدود.

وبقيتُ أنا مُصّرة على حقي في دفئه، فأعادني إلى القمة التي لا يعلوها سوى أنا وهو والفرس والسماء.

- هل نمتِ؟

حررّتُ خصره من يدي وظهره من رأسي وشعري:

- بل حلمتُ!

- وبماذا حلمتِ؟

- بهذه اللحظة.

- حسناً.. لنترجّل لأني سأريكِ ما هو أبهى من الحلم.

أنزلني عن الفرس بخفة ورشاقة، كم وددتُ لو تأبّدتْ اللحظة التي كنتُ فيها معلّقة بين ذراعيه، ولكنها عبرت بي لتكمل مسيرها إلى ما سيكون من ماضٍ بعد قليل.

بعد أن أنزلني إقترب مني من الخلف وأغلق عينيْ بيديه، ثم وجّه رأسي باتجاه السماء نحو نقطة مُحددة قائلاً لي:

- إصبري قليلاً.. حسناً.. الآن.

فتحتُ عينيْ إلاّ أني لم أرَ ما يفاجئني في أبهة الفجر الموشك على الرحيل، لاحظ هو حيرتي وضياعي في وجه السماء:

- ألا ترينها؟

- من؟
- أشار بيده قائلاً:
- نجمة الصُبح إنها هناك.

فرأيتها، كانت مضيئة بالفعل، تسبح في عباءة السماء المُرصَّعة باللآلِيء دُرَّةٌ لتاجها، كوكب يتألق بالطغيان الآمر على ما حوله من نجوم وأسرارٍ.

أخذتُ أحدقُ بها في الوقت الذي كان فيه هو يحدق بي ثم قال:

- حسناً.. يكفيكِ هذا.. فإنك إن أطلتِ التحديق بها فإنها ستأخذك.
- إلى أين؟

ضحك قائلاً:

- إلى إمرأةٍ مثلك كانت تحلم بالنجوم فصعدت اليها نجمةً خالدة.

نظرتُ إليه وقلتُ بتودد:

- فإذا حدقتُ بك؟!
- سأصبح قمراً معذباً
- لماذا؟
- لأنني لن أراك من شدة نورك ونوري.

لم أقوَ على مجاراته في الحديث فأمسكتُ عن الكلام وأنا أنظرُ إلى امتداد الصحراء الفجرية إلى أن قال:

- لهذه النجمة إرث عريق في أيام العرب البائد ولها عدة أسماء منها الزُهْرَه والعزّى ونجمة الصبح والشعراء.

تذكرتُ مطالع المرأة التي حلمتُ بها ولكني ما لبثتُ أن عدتُ للإصغاء إلى حديثه المثير والشائق:

كانت تَغْمةُ في الصحراء، لا أحد يعلم من أين جاءت، امرأة لا يفوقها الحسن بل هي تفوقه بجمالها المتمرد، قالوا إن الصحراء تمثّلَت بها، فهي لا عمر لها، دائمة التجدد وناعمة مثل رملها ومخيفة مثل ليلها، وكانت لا تخرج إلاّ بالليل في أرجاء الصحراء مرتدية بُرْقعاً على وجهها وعباءة خفيفة على جسدها، تنشد الإنعتاق من ثقل الأرض.

وذات ليلة تعبتْ من الهيام دون هدف، فاستلقَتْ على كثيّبٍ صغير طلباً للراحة، فانحسرتْ عباءتها عن جسدٍ مُشعٍ صارخ بالفتنة والجمال، وأخذت تُحدق بالنجوم وحلمها بالسكون إليها، وفي تلك اللحظات هبط عليها كائنان غريبان يُقال بأنهما سماويان فرأتهما، إلاّ أنها لم تخفْ بل كشفت لهما ما تبقى من فتنة جسدها، ليثور بركان الرغبة بهما، فقالت لهما: لكما مني ما ترغبان فيه مقابل بضعة شروط، فأجابها أحدهما بلهفة: وما هي شروطك يا سلطانة الشهوة والعشق؟

في تلك اللحظة أزالت برقعها عن وجهها لتنظر إليهما بعينيْن زادهما الإثمد ليلاً أدهماً مقيماً في جمالها الجائر، ثم قالت:

إما أن تعبداني

أو تشربا من خمري

أو تقتلا من أجلي

فاختارا دون تردد الخمر لأنه أيسر ما إشترطت وعاقِبته مقدور عليها فأخرجت لهما زقَّ خمرٍ من عباءتها، وبدأ الكائنان بحفل الشرب، ومما أشعل رغبتهما أكثر هي التي خلعت عنها عباءتها لتكشف لهما عن جسدٍ إختلطت فيه السماء بالصحراء حتى رفض الستر والخنوع، فثملا وثملت معهما إلى أن إرتكبوا فاحشة الزنا حتى مطالع الصباح، ومن شدة غوايتها باح لها احدهما بسرّه وسرّ الصعود إلى السماء، وفيما هم على حالتهم تلك تعثّر بهم رجل تائه في الصحراء قبل زوال الفجر بقليل، ورآهم في فحشهم يعمهون، فقام له أحدهما وعاجله فقتله لئلاّ يفضح أمرهم، أما هي الفاتنة الساحرة إنتهزت تلك الفرصة وتركت الكائنيْن مع قتيلهما وصعدت إلى السماء بعد أن عرفت السر، وعرجتْ عارية من غير سوء، ونالت مُرادها، ولكنها لم تقوَ على الرجوع إلى الأرض من جديد، لأنها علقتْ حيث هي الآن، ومنذ ذلك الوقت أصبح إسمها العزّى أو الزُهْره، وغدت إحدى الهات العرب الكبرى، هل تصدقين؟

سمعت صدى سؤاله من بعيد، إذ كنتُ أحدق بها، وبتفكيري الساذج أبحث فيها عن مفاتنها وأسأل نفسي هل هذا معقول؟ أما ما زاد إرتباكي

ودهشتي من القصة فكان هو الأنهد الذي قصّها بأسلوب آسر تمكّن فيه من الإستحواذ عليّ ورفعي إليها، إذ هي المره الأولى التي استمع فيها إلى واقعة كهذه أرهبني وقع كلامها عليّ وخدش حيائي وإيماني، وما أن إستعدت وجودي برفقته حتى إبتعدتُ عنه قليلاً، لا بل أخذت أركض مذعورة كما لو أن كابوساً داهمني ويوشك على الإنقضاض عليّ، ولكنه لحق بي بسرعة وأمسكني بيديه القويتيْن قائلاً بسخرية:

- إلى أين؟ هل تريدين العروج إلى السماء؟

- لا.. لا.. أتركني.

أخذتُ أصرخُ وأنتفض تدفعني غريزة الدفاع عن نفسي، فحررني من يديه مندهشاً.

رأيتُ في وجهه ملامح غضب وإمتعاض، إلاّ أنه كظم غيظه بعد أن أحسّ بخوفي وإرتباكي قائلاً بهدوء:

- لا تخافي.. لن أؤذيكِ.. فعباءتي عليك ولن أنتهك عهدي إليك. ثم عاد أدراجه إلى فرسه مطأطئاً رأسه بحزن، زالت إثارة القصة في دمي والمكان، وتذكرت عباءته التي منحتني الأمان والطمأنينة، فعدتُ إليه كطفلة صغيرة ذليلة:

- أعذرني فإن قصتك أخذتني وأخافتني.

رمقني بنظرات ودودة ثم ضحك طارداً ما ساد الفجر من إرتباك وحدة:

- هيا. إركبي سنعود إلى القوم.

إمتلأت بالخجل والحرج في طريق العودة بعد أن إكتشفت نقاء سريرته وغرّة شهامته ونبل أخلاقه، ولم أتفوه بكلمة وأنا ساكنة في ظ ره.

أدركَ هو بفطنته الصحراوية إضطرابي، فأزاله عني والفرس تعدو بنا على هواها الخفيف بشِعْرٍ ألقاه عليّ فخماً وعذباً عن الصحراء ونجمة الصبح ونساء البادية، فاستعدتُ من خلاله عافية الحميمية على متن فرسه وإحتضان خصره، إلى ان هدأتْ قريحته مما جادت به من الشعر فسألته بدلال:

- أوَ شاعرٌ ايضاً؟!

فأجاب:

- من يسكن الصحراء يسكنه إيقاعها، ومن يسكنه إيقاعها يصبح قادراً على تلقيّ كلامها السرّي شعراً، ولكني لا أدّعي الشعر ولست على قدر أجدادي منه.

تذكرت ما قالته لي رقية عن أصله ونسبه الذي يعود إلى عروة بن الورد فسألته:

- وتسير على دربهم بالصعلكة؟

فأجابني شعراً:

إني امرؤٌ عافى إنائي شِركةٌ　　وأنت امرؤٌ عافى إناك واحد
أتهزأ مني إن سَمِنت، وأن ترى　　بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أُقسمُ جسمي في جسوم كثيرة　　وأحسو قراح الماء والماء بارد

آنا آخر الصعاليك، وأسكن هذه الأبيات ولا مآل لي إلاّ دربهم.

- وهل صحيح أن عروة جدك؟

ضحك قائلاً:

- وهل ألقيتُ عليك شِعراً ليس بشعر عروة؟!

-2-

إكتسبت حياتي في القبيلة معنى جديداً، بعد أن أخذني الأنهد في ذلك الفجر إلى نجمة الصبح، وشعرت بأني قد تحررتُ من قيود إنكساري ومن أثقال الحزن الذي أدماني به مصيري المعتوه، وشعرتُ أيضاً بأني قد وُلدت في أفق الصحراء، لألمِس بعداً آخر لوجودي داخل هذه الخيمة، إذ هي البيتُ المؤقت، وهنيْهةُ صفاء تزيل عني ضيق الحياة وذّلها.

فالخيمة سيدة الرحيل، لا تفقه الإستقرار والثبات، لذلك هي على دين الأطلال، ومتجددة نقية دوماً تواكب أصحابها في همومهم وأفراحهم وأحزانهم.

في ذلك الفجر باحَ لي الأنهد ببعض أسرار الصعاليك، وأنبائهم العتيقة،

هم الذين يعتنقون الهجير منذ مئات السنين يعيشون ويتنقلون بمعزل عمّا يصيب محيطهم من أحداث ومتغيرات.

سألتهُ:

– وهل أنت سيدهم؟

فأجاب بحزم:

– ولدنا هنا أحراراً ونأبى أن يكون أحد علينا سيداً، إذ لا أحد يُظلم هنا كلنا سواسية كأسنان المشط، فهل رأيتِ أو سمعتِ يوماً بمُلْكٍ في الصحراء؟

كان فيض كلامه آسراً، وكنتُ حين أمطره بالأسئلة يُجيبني قدر إستطاعته، مدركاً نزوعي إلى فضّ غموضه سعيداً بالفجر يبوح متى يشاء ويصمت متى يشاء هو الفارس وقومه أهل الصحراء القانعون بهذه الحياة، لم يكونوا أصحاب جاه ومال بل سادة كرم ونبل ووفاء، في أعماق الأرض القصيّة والصحراء المنسية.

لقد أحالتني رحلتي القصيرة مع آخر الصعاليك الأنهد بن الورد إلى نجمة في سماء الصحراء، جعلتني ايضاً أدرك النور من حولي وفي داخلي، وأكتشف قدرتي على المعرفة إثر كل ذلك الجهل الذي أبلاني في مطلع عمري.

-3-

لم أقصّ على رقية ما رأيته في حلمي من إمرأة عجيبة وعرش رهيب، كما لم أبُحْ لها بفجري مع الأنهد، لأني خشيتُ من إثارة الغيرة والضغائن ما بيني وبينها، ولكني كنتُ على يقين تام بأنها تعرف بأمر لقائي به ورحلتنا معاً، فذلك ما لمسته من حديثها وإيحاءاتها لي بصوتها المثير وكلامها اللطيف:

– أرى وجهك هذه الأيام كنجمة تسبح في ألقها.

فأتهرّبُ من الإجابة متلعثمة:

– لربما الصحراء قد عرفتني وأحبتني أخيراً.

إلاّ أني كنتُ أتألق بالمزيد من الإيمان والصمود والتماسك، إثر ذلك الحلم الذي زارتني فيه إمرأة الذهب، كنتُ أبحث عنها في أحلامي، راجية لقاءً

آخر يجمعني بها لكي تمنحني عصا اللؤلؤ والمزيد من الكلام الذي ما يزال يتردد صداه عزيمة لا تلين في داخلي وخشية من غيب محفوف بالنور والظلام معاً.

وكلامها الذي إختتمته بحديث الجدة عندما قالت لي في خيمتها:

رأيتك قمراً يحتجب ليقتل

رأيتك قمراً يعمّ بالنور ليعشق.

يا إلهي.. من تكون هذه المرأة الطاعنة بالتشوّف والحكمة؟

جدة القبيلة وامرأتها العتيقة، ما الذي كانت تعنيه بحديثها وتمتماتها الغريبة، ولماذا قالت بأنها لن تراني ولن أراها مرة أخرى أبداً.

مرة أخرى خشيتُ من الحديث في أمر الجدة مع رقية يدفعني احساس غريب إنتابني وطالبني بإحلال الكتمان والغموض على ما أراه من أحلام

فالأحلام لا تُقال وإنما تُفْعل..

ولا تزول إنما تتحقق..

نعم تتحقق خاصة عندما تكون سيدة الحلم إمرأة تشي بشفيف عرشها الزاهي بملكة البلاد القديمة..

بلقيس...

نعم.. بلقيس.

* * *

الفصل الثامن:

ألق الظلال

أثير الجلسة كان بخورٌ يُحَوطهما بجلال رائحته الزكية ودخانه الشفيف.

والمكان يتدلل بهما، يتماهى مع سمر الليل ويطرب بهما عاشقين من ولهٍ وشغفٍ وحرير في القصر الشرقي حيث الهوى حلال وتعاظم أبهتها في عينيه نغم يراقص فيه جسدها، هي التي كانت مُعلّقة جاهلية بثوبٍ من بنفسج يُفصح عن النهديْن في حجره.

فما الذي كان ينقصها في لهاث الزمان الجديد لدولة أبية سوى أن يسرق لها منه هنيهات تُهنيّها في دفء صدره، وتُسكنه هي إليها، إلى هالات شعرها وطيب روحها الخافقة بالعنفوان والسماء.

همستْ بأذنه بلسانها اللذيذ فاحمرّ وجهه، ثم عادت إلى الوراء قليلاً كقوسٍ زمردي يشرف سهمه على إختراق عين الطقس وسألته:

- أإنتصف السمر يا مولاي؟

- وما لنا وللوقت؟

- يسرقنا

- بل نسرقه

غمرها بأنفاسه ويديْه، إذ أدمن أريج شعرها الزاخر بالفحم والنسيم الشذي، فانفلتت منها ضحكة فاحشه أثارته ثم قالت بتودد:

- تَستَعِرُّ بك الرغبة كحمّى حتى يكون لأخذي لذّة ما هو مخبوء في أعالي الذروة.

- إذن؟!

- سأسامرك يا مولاي.. سألقي على مسمعك الطاهر فتات الزمن العربي البائد.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

- هاتِ يا جارية.

لطالما إقشعرَّ بدنها من مناداته لها دوماً بهذه الكلمة المقيتة التي أحكمتْ عليها مصيرها، كان يُفسد فرحتها وهي برفقته حين يؤكد لها بأنها مجرد جارية وهو السيد والأمير الذي يأمر فيُطاع.

كانت تفوق أقصى آماله، إذ وفّرتْ له مأوى الفتنة وهيأت له لذة الجسد، وأعدت له حلاوة الروح وخفتّها، وفي عزّ الطقس يرميها، يناديها بـ.. يا جارية، هكذا يُنكرها وكأنها خُلقت من قبة قصره أو من غمد سيفه، وكأنها لم تكن يوماً أنثى خلقت من لحظة النشوء الإلهي ونور الحياة.

قال لها هاتِ يا جارية وإنغمس في زوادة سهره، لم يلحظ عبوس وجهها الطارئ، وشرودها الأسِيْ للحظات، فاستعادت ما يأمرها به ثوبها الشهواني وإستردّت غواية صوتها قائلة:

- "دخل حاجب عبد الملك بن مروان عليه فقال:

يا أمير المؤمنين هذه بثينة

قال: أبثينةُ جميل؟

قال: نعم.

قال: أدخلها

فدخلت أمرأة أدماء[1] طويلة يُعلم أنها كانت جميلة، فقال له: يا أبا يوسف ألقِ لها كرسياً، فألقاه لها، فقال لها عبد الملك:

- ويحك ما رجا منك جميل؟

قالت:

- الذي رجتْ منك الأُمّة حين أوْلتك أمرها".

رمقها المهدي بوجوم مُقطّباً حاجبيه للحظات ثم انفجر ضاحكاً:

- ويلي.. ويلي.. إرحمني يا الله وأعني على فصاحة لسانها.

- لماذا يا مولاي ألستُ بركة أسبغها الله عليك؟

(1) الأدماء: سمراء تشوبها حُمْرة.

- بلى.. أنتِ نعمتي يا جارية.. تعالي.. تعالي.

وأخذها..

أخذ الخيزران جاريته التي أخذت لبّه بحسنها وبهائها، وحاصرته ببلاغتها التي باغتته بها، فعندما يلتقي الجمال والبلاغة في جسد، فإن هذا ما سيكفل لصاحبه بكل ثقة وإصرار تحقيق ما يصبو إليه، وكانت هي على قدرٍ وافٍ من رباطة الجأش والعزيمة التي ستضمن لها الوصول إلى مبتغاها حيث الحظوة الكاملة.

وهذا ما صنعته بعد أن أنجبت موسى الذي تعلّق به المهدي وأحبه حباً جماً، حتى قال لها في إحدى سهراتهما المديدة بعافية العشق:

- سأمنحه لقباً.

- وما هو يا مولاي؟

- الهادي.. موسى الهادي.

- ونعمَ الإسم واللقب يا مولاي.. أمير ابن أمير.

أي والله أمير إبن أمير.

ولكن حالها كان مُختلفاً تمام الإختلاف إثر إنجابها لموسى الذي تفاجأت من عدم تقبلها له ونفورها منه، فأخفت هذا الأمر عن المهدي، وعانت أشد معاناة من هذا البلاء العظيم، إلى أن قامت بصرف مربية ومرضعة ترعيانه وتهتمان بشؤون مهده.

كانت تشعر أن موسى هو إبن الدماء، دماؤها الأولى، كان يذكرها عندما تراه أو تحمله بتلك الليلة التي وطئها فيها المهدي بشرعية يمينه، لتصبح كُنْيتُها أم ولد.

فالجارية التي تنجب للأمير ولداً من صلبه كانت تُكنّى بأم ولد لا بإسم ولدها، إذ وحدها الحرة التي كانت تحوز على لقب يُشرّفها به إبنها ودماء زوجها الكريمة الأصل، ولكن الخيزران لم تكن حرة بل جارية تهرب من هذا اللقب وتلعن كل من يناديها به، كانت تهمس بإسم إبنها وهي تحدق في وجهها المنعكس بالمرآة: أنا أم موسى، أم الأمير موسى.

ولكن موسى كان أميرا إبن أ.بر وليس إبن أميرة، ليس إبن أمه فأمه جارية هربتْ منه ومن لعنات صراخه ودمه، رافضةً هذا الواقع الجديد إذ شعرت بإختناقها منه ومن هوْل حياة الجارية أم ولد، وفضّلتْ الهروب إلى جناح المهدي، لتصبح مربيته ومرضعته عوضاً عن إبنها الناشئ أميراً.

-2-

الإهتمام على قدر الحب، والقتل على قدر الخوف، والحمية على قدر النسب، والغيرة على قدر الجمال، وكان المهدي إثر تطاول فارع جمالها وتأثير سحرها عليه يغار عليها غيرة شديدة، إذ كانت البداية عندما أمر بإنزالها بمقصورة فخمة قرب مسكنه في القصر، ثم بإقامة حجاب يسترها خلفه في جناحه عندما كان يحلّ عليه ضيف ذو حظوة كأخيه جعفر أو رسول يحمل بريداً طارئاً من أبيه الخليفة المنصور، أو مُدبّر شؤونه وكاتبه يحيى بن خالد البرمكي.

وكانت غيرة المهدي تداعب كبرياءها كما كان هيامه المتصاعد بها يحرس حضورها الزاهي داخل قصره وسط ذهول الجواري في جناح الحريم وغيرتهن منها.

سترها حجاب المهدي عن مُريديه وضيوفه، ولكنه كشف لها عن سطوة ما، لربما كانت سطوتها عليه ببلاغة جمالها، فعشقها.

ورغم قمة حجابها هذه إلاّ أنها لم تحجبها أو تجعلها تتعالى عمّا كان يجري في جناح الحريم الذي بدأت حلمها منه ومن أسرّته الناعمة، فلم تنسَ صاحبتها الأولى خلوب التي كرهتها بسبب مقصورتها الجديدة وبريق حظوتها لدى المهدي.

إذ سعت الخيزران بوافر جهدها وصدق نواياها أن تثبت لخلوب بأنها لم تنسها ولم تحرمها من إهتمام المهدي بها وبصوتها العذب، وبمحاولاتها هذه أثبتت أن الحظوة لن تعمي بصيرتها ولم تُحلْها إلى امرأة حقود وجحود ناكرة لصنيع وجميل وفضل صاحبتها عليها.

خلوب التي كشفت لها خفايا القصر وقصص الجواري، وفتحت لها الطريق عندما قدمت بيدها الناعمة وأنفاسها الوفية تفاحتها للمهدي، تفاحة الشهوة والمعرفة معاً، ولهذا دبّرتْ الخيزران أمراً سيزيل الجفاء الذي ساد علاقتهما بسبب غياب خلوب عن سهرات الأمير الخاصة التي كانت بها قبل الخيزران صوته المأثور والشاعري.

ففي ليلة من ليالي خلوب المهجورة داخل جناح الحريم، دخلت عليها راعية الحريم الجديدة بدعوة الأمير لها في جناحه، إعتقدت للوهلة الأولى أن الراعية تسخر منها، إلى ان ضاقت بها الراعية ذرعاً فنهرتها قائلة:

- هيا يا جارية.. أُقسم بأنَ الأمير على إنتظار.

أعدتْ نفسها على وجه الفتنة والسرعة، فذكّرتها الراعية قائلة:

- ويحك وأين العود؟

إذ نسيت من شدة المفاجأة سر إبداعها الذي كان يُطرب المهدي برفقة صوتها الحنون.

وما أن دخلت على الأمير حتى فوجئت من وجوده بمفرده دون أصحابه يتصدر فخامة جناحه، إبتسم لها بمودة وإنشراح، وأجلسها قبالته على وثير ليلته السامرة قائلاً لها:

- سقا صوتك يا جارية فأين ذهبتِ به؟

- عندما يحزن صاحب الصوت يهجره في الصمت يا مولاي.

- يا لهجري وقسوة زماني، فاخلبي مسمعي الآن واصدحي.

كانت هائجة كبحر عاصف من بغتة اللقاء المفاجئ بالمهدي، وأخذت تُهدّئ من روع شوقها وفرحها بإجتماعها به عبر ضبط أوتار عودها، ثم إستنشقت أريج المجلس وهدأت لتشدو بقصائد من إعداد وصناعة إبراهيم الموصلي:

ألا يا صبا نجد متى هجتَ من نجد لقد زاد في مسراك وجداً على وجد
أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى على فنن غضّ النبات من الرند

بكيت كما يبكي الحزين صبابةً وذبت من الحزن المبرح والجهد
وقد زعموا أن المحب إذا دنا يملُّ وأن النأي يشفي من الوجد
بكلٍ تداوينا فلم يشفَ ما بنا على أن قرب الدار خيرٌ من البعد

ببحة صوتها صدحت، وبصوتها أشجت المهدي، وأطربته، ولكنها لم تهزّه وحده فقط بل هزّت الخيزران التي كانت من وراء حجابها تستمع إلى غناء صاحبتها الحزين وتبكي بصمت، لا لأن خلوب خلبتْ لبّ المهدي بل لأنها لن تنال حظوته مجدداً، فالوقت الآن في إمتداد السلطان ولآلئ ليلة للخيزران التي بكت حتى آخر أنّةٍ في صوت الجارية خلوب، ثم هدأت وإبتسمت وأشرقت.

-3-

السلام على مولاي الأمير.

حيّاه بإنحناءة خفيفة ثم جلس بمحاذاته بألفة وثقة تشي بمقامه الرفيع وقدره العظيم لدى المهدي.

وعليك السلام يا أبا الفضل.

تفحص الأمير وجه يحيى البرمكي ثم سأله بريبة وحذر:

- أفصح يا يحيى.. إن تجهّم وجهك يشي بأمر جلل.

أجابه البرمكي بصوت عميق مؤثر يتماهى مع هيئته الرزينة ووقاره الأنيق:

- هو والله كذلك أيها الأمير، لقد جاءنا صاحب البريد من بغداد على وجه السرعة برسالة من أمير المؤمنين.

سأله المهدي بحذر لم يفارق صوته:

- وما فحواها الداعي إلى بريدٍ ليلي عاجل؟

- يأمرك الخليفة بتوجيه الجيش إلى غزو وإخضاع طبرستان..

قاطعه المهدي بإستغراب:

- ولكننا حُزْنا على الكفاية من وأد فتنة خراسان وواليها الآثم، والجيش ما يزال هناك يخمد ما تبقى من نيران الفتنة.

رد عليه البرمكي بثقة وهدوء:

- أيها الأمير إن عزم مولانا المنصور في غزو طبرستان إن هو إلّا الصواب، وينبع من حنكته ونفاذ بصيرته، حيث أن غزوها سيجنبنا إنبعاث فتن أخرى، الجيش لم يزل في ذكاوة قوته، وإني أرى أن نعقد اللواء لقائد الجيش غداً حتى يأتينا بخبر النصر من طبرستان عما قريب بإذن الله.

فقال المهدي بخفوت:

- إن الأمر لأمير المؤمنين وما أنا إلّا عبد مشيئته، فامضِ فيما قلت يا أبا الفضل على بركة الله...

قاطعه صوت أنثوي منبعث من وراء الحجاب:

- أيأذن الأمير لمُلْكِ يمينه؟

بوغت الإثنان بإنبعاثها المفاجئ من طيات حديثهما، إلى أن تدارك المهدي الأمر وهو ينظر الى وجه البرمكي باسماً مضطرباً:

- ويحك يا جارية وما تصنع النساء بما تشيب له الولدان وتُخرب البلدان؟!

أجابته بدلال صوتها:

- بل ما تصنع النساء في سمو الأمراء، والخيزران يا مولاي مناها صوْن يمينك القابضة على السيف المسلول في وجه أعداء المسلمين.

إبتسم المهدي بفخر أمام إستغراب البرمكي مما يجري، ثم قال لها:

- أخرجي من وراء حجابك لك الكلام وعليك الأمان.

فانبعثتْ قمراً وهبّتْ نسيماً ووقفت نخلةً، بفارع طولها المُجلل بعباءة بيضاء حريرية اخفت بها غُلالتها السوداء الغاوية ومفاتن جسدها العاتية، وكان يكتسي مطلعها البهي برقعها الأسود الموشّى بخيوط الذهب والفضة، يكاد وميض عينيها المنبثقتين منه يذهب ببصر البرمكي، الذي حدق بها بذهول فاغر الفاه ملتاعاً من إطلالتها المريعة على مجلس الأمير إلى أن قال لها هذا الأخير:

- أذنتُ لك فقولي ما عندك يا جارية.

فقالت فارعة الطول والهيبة صاحبة الصوت الواثق والحضور السامق:

- لقد أنعم الله تبارك إسمه على مولانا أمير المؤمنين بنصر عظيم على

يديك يا مالك أمري وولي نعمتي، وما خراسان إلاّ أرض العزم ومهد رايتنا الخفاقة، وجاء وأد فتنتها على يديك برهاناً يُرسّخ صدق الدعوة وعدل المُلْك وحق الخلافة في قلوب العباد، وأنت القائد الذي عقد له أمير المؤمنين لواء السواد الأعظم في المشرق، والجند يا مولاي على سنّة قائدهم يأتمرون بأمره ويخضعون لمشيئته، وأما سواده عليهم فهو سرّ قوتهم وقوته، فبعد أن فتح الله عليك بوأد الفتنة ومحق الردة في هذا البلد، جاءتك رسالة مولانا الخليفة المنصور التي يأمرك فيها بغزو ما تبقى من بلاد الردة والكفر..

قاطعها قائلاً:

- وها أنا قدعقدتُ العزم على هذا.

ردت عليه بفصاحة لسانها:

- أعزّك الله يا مولاي فقد عقدتَ لهم ولم تعقد لك، إذ الجيش لمن يقوده والسواد لمن يسوسه، وأن يغزو قائد الجيش دونك طبرستان إثر نصر خراسان، فإن هذا سيمنحه جذوة النصر بإلتفاف الجند حوله ومنحه ولاءهم وإخلاصهم لأمره، مما قد يؤدي إلى إستحواذ العزّة عليه في إتباعهم له ونسيانهم لما لكَ عليهم من فضلٍ في لوثة الفتنة وأنت أميرهم وسيدهم.

أدرك البرمكي ما ترمي إليه الخيزران فقال بحماسة:

- والله ما قالت سوى الحق يا مولاي، فهذه الأرض أرض فتن ومحن، وإن لم تأخذ زمام الجند يا مولاي إنقلبوا عليك.

حدق المهدي في عيني الخيزران الواقفة بعزة وكبرياء بعد أن أذهلته بقولها، ثم أشاح بنظره إلى البرمكي وإنفجر ضاحكاً:

- يا أبا الفضل هذه جاريتي الخيزران قد أبدتْ وأفصحت عمّا يفوق حكمتك فما قولك؟

إحمرَّ وجه البرمكي ولم يُجب، فتألّقت عينا الخيزران بشدة وهي تعود أدراجها إلى حجابها بعد أن أذن لها المهدي.

- قُضيَ الأمر يا أبا الفضل، سأعقد اللواء لي غداً، فلتُعلمْ قائد الجيش بعزمي هذا.

وفي الحجاب كانت جذلى راضية منتشية بطغيانها المفاجئ على حضرة سادة الأمر والقول والفعل، هي التي لم تتردد لحظة عن الإندفاع نحو مغبّة صُنّاع التاريخ العباسي، وإلقاء بيانها على أميرها وصاحبه يدفعهاوتمردها المشتعل في داخلها على الحجاب والظلام.

قاطعتْ أميرها وسيدها، إنقضت عليه فجأة بسحر قولها دون أن يساورها الخوف والإنكسار أمام صاحبه الأدهى والأذكى الذي أصيب هو الآخر بدوار حديثها.

كان صمتها فيما تبقى لها من ليلٍ برفقته دليلاً على إكتفائها مما قد أحدثته به من إعجاب بها.

قضت ليلتها في أحضان المهدي الذي أنارت له حالك ما قد يصيبه من الفتنة الناشبة ما بين لحظة وأخرى.

حيث أخذها في ليلته الأخيرة معها، أخذها كما لم يفعل من قبل، فعندما يقترب المرء من ساحات الوغى ويشتمّ رائحة الدم والموت يصبح عشقه متأججاً وحبه للحياة جمّاً.

أخذها ليأخذ له التاريخ غداً موعداً مع النصر الذي سيفتح له الطريق ويُعبّدها أمام ما يسعى إليه هو وتطمح إليه.

هي...

الخيزران..

مِلْكُ..

يمينه..

ما أحرزته الخيزران في تلك الليلة كان إنتصارها الأول لا على المهدي فقط، بل على واقعها الجارية التي لا تصلح إلاّ للسرير ومرتع اللذة.

إنتصارٌ جعلها تتألق أكثر في أروقة القصر، وأن تحوز بعض ذاتها هي المشاع له أرض حرْثه الطرية، فكما عقد هو لواءه، عقدتْ هي أيضاً لواءها في حرب الإنعتاق من حرير العبودية الخانق، فقد كانت حاجتها تصرخ بها دمعاً أن زيدي من بلاغتك لكي تتوهجي بنورك.

إعترتها نشوةٌ أحدثها حلمٌ بدأ يتحقق، وجرأة وثَّقتْ صلتها بنفسها الطامحة، وفي كل لحظة من لحظات عيشها في القصر كانت على ثقة تامة بأن ثمة تاريخاً جديداً لها قد شُرِّعَ بعد ليلة الخروج من الحجاب إلى نور الحكمة، كانت تحدس لا بل تؤمن بحدوثه.

كما أنها سعتْ أيضاً في غياب المهدي إلى الإقتراب من جديد من طفلها موسى، إلى الإحساس بأمومتها تجاهه، فكانت حين تأخذه في حضنها لكي تُرضعه حنانها وعطفها ينتابها شعور غريب، تعجز عن وصفه، شعور ما يسعى إلى تقييدها ورميها في حبس الطاعة والترهل، وكان لقب أم ولد يتردد داخل رأسها مُدوّياً وحشياً، أم ولد التي تنزف دماً وعبودية، فكانت ما أن تلبث تلقيمه حلمتها حتى تقذف به إلى السرير ملتاعة باكية، وكان نشيجها المختلط مع صراخه عبارة عن نشيد قسوة وظلم بحقها وحقه.

إذ إنها إعتقدت للوهلة الأولى أن إنتصارها الأخير سيكفل لها التعرّف من جديد على إبنها موسى وعلى معنى الأمومة، ولكنها كانت تلمس في قرارة نفسها أنها ما تزال جارية وأم ولد رغماً عنها، في الوقت الذي كان فيه لدى المهدي رغم حداثة سِنّه أبناء أخرون من جوارٍ أخريات، ولكن هل سيكون الأمر لها هي التي وبقدر البهجة التي إكتستها إثر إعجاب المهدي بحسن قولها وإقتناعه بفصاحة بيانها أصيبت بالحزن الذريع والخذلان المريع بعد ما علمت بإنتصار المهدي السريع بطبرستان وعودته المباشرة والمفاجئة لا إلى حِجْرها

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

هي بل إلى بغداد، إلى سيد الأمر وملك البلاد والعباد أمير المؤمنين الخليفة المنصور؟!

فبعد أكثر من شهر من الغياب في ساحات الوغى والجهاد، أتاها الخبر الذي أعادها إلى سابق إنكسارها وخيبتها، جاريةً لا تملك من مصيرها شيئاً سوى منح الجسد والسمر.

هي التي كانت تنتظر على وجه اللهفة عودة المهدي إليها لتزفّه وتضمّه إلى أحضانها الفسيحة الدافئة، ولكي تحتفل معه بإنتصاره المؤزّر على الكفرة والمرتدين، قُذفت في عين اليأس، وتبعثرت إثر مجيء البرمكي لها بخبر ذهاب الأمير لبغداد من أجل أن يتزوج من إبنة عمه ريطة إبنة أبي العباس السفاح التي كان مهرها النصر في شرق البلاد.

أحرقتها صاعقة البرمكي، وإختنقت، لم تقوَ على الحديث معه أو الرد عليه من وراء الباب، إذ قررتْ أن تكتم ضعفها وإنكسارها وخيبتها وبكاءها، لأنها لا تريد أن تظهر بمظهر الجارية الذليلة خاصة بعد أن رآها البرمكي في تلك الليلة ملكة بيان وحكمة.

ولكن..

لماذ صُعِقَتْ؟ لماذا حزنتْ؟

فهي ليست أميرة إبنة أمير، هي مجرد جارية، نكرة من لحم ودم فقط لا غير، وهذا ما أشعرها به المهدي حين مضى إلى بغداد دون أن يمر لإلقاء التحية عليها وتقبيل ولده منها.

إحتجبت في مقصورتها..

إعتزلت أهل القصر، والبرمكي وأسرته وصاحبتها خلوب، حتى أنها لم تعد تذكر أن لديها طفلا إسمه موسى، وأن جنيناً آخر كان ينمو في أحشائها.

قذفت نفسها في مهد أمرها، في سذاجتها وطفولتها القاسية وأعين الجواري المتلصصة، وشماتتهن الجارحة بها وبهجرانها.

ظلّتْ على إحتجابها لا تلوي على شيء عدة أيام قارصة، إلى أن طرقت بابها ذات يوم من أيام حدادها أم الفضل زوجة البرمكي التي أرسلها هو

لمواساة الخيزران والتخفيف عنها، بعدما أحسّ بغيابها المُوحش وخلاء أروقة القصر من مشيتها الوارفة.

كانت أم الفضل إمرأة ذات حُسن وعمرٍ لم يتجاوز عمر الخيزران إلا ببضع سنوات قليلة، وما زادها جمالاً عطفها وودّها وتفانيها في مواساة الخيزران وتأنيس وحدتها.

قالت لها بصوت حنون ودود:

- هوّني عليك يا عزيزتي فالأمر لا يستدعي كل هذا الحزن الجارف.
- وكيف ذلك يا أم الفضل؟ لقد كنتُ محظية فؤاده وملاذ عشقه وسلامه.
- فكيف بحال جواري القصر إذن؟ أما علمتِ بأن هذا حقّ له في أن يتزوج، وواجبٌ عليه أيضاً في أن يبني بإبنه عمه الأميرة، إذ يقول الله عز وجل في محكم تنزيله:

﴿...فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ...﴾[1].

أخمدتها أم الفضل بإستعانتها بهذه الآية مُبيّنة للخيزران أنها مُلْك يمين فقط، في الوقت الذي يستطيع فيه الأمير أن يتزوج من أربعة نساء، اذ هو لم يخالف في زواجه شرع الله وسُنّة نبيّه.

طلبت الخيزران من أم الفضل أن تعيد على مسمعها الآية، مرة أخرى ففعلت ثم قالت:

- إنك والله لإمرأة على حُسن وجمال وفصاحة بيان ولسان، فلا ترمي ما بحوزتك في هاوية الحزن والتصدّع، بل إحفظي ما أغدق الله به عليك من نعمة وثقي برحمته، ولا تودي بنفسك إلى التهلكة فأنتِ الآن حبلى وعلى وشك الوضع وبحاجة ماسّة إلى الغذاء والإعتناء بحملك.

كان حديث أم الفضل ينزل عليها سلاماً وسلواناً، إذ أمسّ ما تكون المرأة بحاجة إليه في لحظات وضعها هي إمرأة أخرى تعطف عليها وتحثّها على الصبر

(1) سورة النساء: 3.

والتجَلَدْ، وهذا ما منحته زوجة البرمكي للخيزران عبر مساندتها لها والإعتناء بها.

وما أضفى على الخيزران الطمأنينة والإنتهاء من حدادها وإحتجابها هو دُنوها بعلاقة حميمة من أم الفضل التي دفعت دون أن تعلم بحكمتها وتبحّرها في شؤون العلم والدين الخيزران إلى سدّ عوْزها في هذا الجانب، فجاءت بمن يُفقهها بعلوم الدين، وما خفِيَ عليها من أمور العلم التي ستوقظها من سبات جهلها وخيبتها، حيث كانت تسعى إلى إمتلاك ما يكفل لها إستعادة حضورها وتأثيرها على المهدي، إذ كانت تؤمن بعودته إليها، ولهذا شرعت في تلقي الفقه على يد قاضٍ فقيه منحها من فيض علمه وأدبه ما يزيح عنها ستائر الجهل والأمية.

-5-

وأما المهدي فكان زواجه من إبنة عمه على مضض ونزولاً عند رغبة أبيه الذي إحتفى به وبنصره أميراً فتياً في مطالع عمره، فأقام له الإحتفالات في بغداد الناشئة وهاشمية الكوفة.

وكان زفافه أيضاً على قدر إنتصاره مُدوياً أراد له المنصور أن يكون مجيداً بأبهته وبذخه، إذ ورغم ما أُخذ عليه من بُخلٍ وجفاء في تعاطيه مع مظاهر الترف والإسراف، إلا أنه سعى إلى إشهار فخره بإبنه المهدي محمد على مرأى ومسمع العباد والطامعين بالسلطان.

حيث لمس المهدي في حُلّته الجديدة محبة الرعية له، وإلتفافهم حوله ودعم أبيه الخليفة له دون أخيه الأكبر جعفر، الذي لم يكن ليحوز على ذات المكانة التي حظي بها المهدي لدى أبيه إثر صولاته وجولاته في إخضاع الفتن المشرقية، فهو الذي جاءت به الروايات وظهرت فيه العلامات.

وفي أجواء الإحتفاء المهيب به، لم تغب الخيزران للحظة عن شجنه وذهنه، حتى وهو في حضرة أبيه وعروسه الجديدة، حيث إكتشف ذلك الخواء المريع الذي أحدثه إبتعاده الطارئ عن الخيزران، فانتابته تباريح الشوق لها

اثناء مكوثه بالكوفة، بعد أن أدمن فؤادها بهجران أقوى منه، لكي يفي بعهد أبيه لأخيه الراحل أبي العباس السفاح.

إذ لم يكن زواجه سوى إرتباط عائلي سلطاني لحراسة الدم وتوثيق حق الخلافة.

إشتدت كآبة المهدي في البعيد عن الخيزران، خاصة بعد أن إكتشف أن ما به من إحتفاء ومحبة أبيه إثر إنتصاره الأخير يعود فضله إلى حكمة الخيزران، وإسدائها لنور الدرب له في تلك الليلة التي تفوقت بها على البرمكي.

إكتشف في لحظات البعد أن جاريته ثروة وكنز نفيس لا يُقدر بمال، ثروة من حكمة وجمال يجدر به العودة إليها لكي يعنى بها ويهيم أكثر من أي وقت مضى خاصة بعدما لمسه من محبة أبيه الخليفة له، ولاقى ما لاقاه من إبنة السفاح.

-6-

وأما في القصر الزينبدي فقد كانت الخيزران آخذة بالنمو والنضج وتزداد علماً بإزدياد أيام فراق المهدي وغيابه، حيث هربتْ من شوقها إليه إلى النهل مما هي قادرة عليه من معارف وعلوم فأينعت حكمتها لتجلي ما يكتنف دربها من غموض وجهل، وأصبحت تنظر إلى واقعها من منظور آخر سعت من خلاله أن تُقرب منها يحيى البرمكي، الذي لم تلتقِ به منذ غياب المهدي سوى مرتين أو ثلاث، إما من وراء باب أو حجاب، كان يأتيها بها على عجل ليسألها عن حوائجها وأحوالها.

كانت تسعى إلى معرفته أكثر، هو الذي لم يكن يكبرها إلاّ بعشرة أعوام ومعرفة وذكاء وحكمة، ما جعله صاحب حظوة وتأثير في البلاط العباسي، فلجأت إلى زوجته أم الفضل لتسألها عنه بفضول غلّفته بالبساطه والعفوية، فأوفت لها وأشفت غليل أسئلتها، قائلة لها بأن أسرة زوجها تنحدر من أصول فارسية، اسلمتْ مع بداية إنتشار الدعوة العباسية، ويعود الفضل في حظوة الأسرة الحالية في البلاط العباسي إلى كبيرها خالد البرمكي والد يحيى زوجها،

والذي يقيم في بغداد صاحبة حظوة وتأثير لدى المنصور.

أخبرتها أم الفضل بقدر ما تعرف عن أسرتها، ولكنها لم تخبرها عن السبب الكامن وراء حكمة البرمكي الساطعة، فهذه الأسئلة وحدها الخيزران تعرف إجاباتها لأنها هي أيضاً تعرف أن سبب نموّها وتطورها يعود إلى ضعفها.. إلى انكسارٍ في داخلها دعاها الى النهوض والتحدي.

لتَشْرَع الخيزران في سبر أغوار البرمكي لكي تعرف الأسباب الكامنة وراء تأثيره العميق على المهدي وقراراته، دون أن تعلم في ذلك الوقت أنه قد أُخذ بها منذ الليلة التي أبرزت فيها محاسن حكمه نادرة التوفر والوجود في امرأة حديثة السن مثلها.

إذ هام بها بعدما أهالت عليه بزلزال حضورها جبال تصوراته عن النساء والجواري، والمتمثلة بكونهن لا يصلحن إلاّ للولد والمتعة فقط، عندما اكتشف في تلك الليلة داخل جناح المهدي نوازعها وطموحها اللا محدود وجرأتها في إقتحام حديث المهدي معه، فاشتعلت به شهوة طالبته بنزع البرقع عن وجهها ليرى الحسن الذي تفوّه حكمة تفوقت عليه، وما زاد يقينه في التوثق من طموح الخيزران هو حزنها الشديد على زواج المهدي، فهي جارية فلماذا تسخط وتحزن على سيدها الذي تزوج بنتاً بكراً من حرائر قومه وبيته!

في بحثه عن الإجابة كتم يحيى هيامه بها، بسبب إخلاصه للمهدي وعشق هذا الأخير لها وغيرته عليها، فتشاغل عن التطلع إليها والتفكير بها بأمور القصر، وإدارة شؤون بلاد المشرق، حيث إكتشف معظم ما اثاره بها، ولكنه لم يكتشف نزوعها إلى تقريبه منها، إذ دعته ذات يوم إلى بابها مُدعية حاجتها إلى معرفة أخبار المهدي وأحواله، إلا أن السبب الخفي وراء دعوته كانت حاجتها إلى معرفته هو البرمكي سيد الحكمة الشرقية.

سألته من وراء الباب عن سيدها المهدي فأجابها بصوته المصهور بالرخامة:

– إنه في مشاغل زفافه وشؤون أمير المؤمنين ولا علم لدي بعودته عما قريب..

أمسك عن الحديث قليلاً ثم أردف مستغرباً في وجه الباب المغلق في وجهه:

- والله إني لأعجب من شوقك المستعرّ إليه أيتها الخيزران. ناداها بإسمها، إذ هو الرجل الأول في هذا القصر الذي يخلع عنها إسم الجارية ليلقي عليها بإسمها مزيلاً عنها وحشة الحرير ونكران العبودية.

فأسدل عليها الأمان الذي إفتقدتْه منذ أن هجرها المهدي، وجعلها بكلماته التي أحاطها بها تنتفض مُلقية عزلتها وضعفها عنها، ففتحت الباب على حين غرّة وبلا تردد، ونظرت إليه بوجه عارٍ من البرقع ومكسو بآيات الجمال الخارق، حدقت فيه بعينيْها الثائرتيْن، فهالهُ ما رأى من سطوعها وطولها الفارع، كان على وشك إغماض عينيْه كما لو أن شمساً باغتته بالسطوع المفاجئ من بين ثنايا الغيم.

سألته بعد أن تأكدت من إستحواذها عليه بدلال:

- ألم يأتكَ بريد يُنبّئ بعودته يا أبا الفضل؟

سألها ببلاهة وهو يدقق في ملامح وجهها الجذاب:

عودة من؟

كتمت ضحكتها من حمق سؤاله المفاجئ قائلة:

- عودة سيدي وسيدك؟!

لملم بإجابتها الحادة حضوره المهيب أمامها:

- لن يطيل الغياب.. لن يطيل!

ثم إنسحب من أمامها مُسرعاً مُخلّفاً وراءه تبعثره وإرتباكه بسببها، هي التي ألقت عليه وجهاً قمرياً أصابه بالوجوم لتحقق بذلك ما كانت تصبو إليه منه.

تأكدت الخيزران بلقائها العابر والسريع مع البرمكي من هيامه بها، وأدركت في أعماق حدسها الأنثوي بأنه مفتون بها، لتدخله فيما بعد إلى لعبتها هي، لعبة السطوة الآخذة بالتصاعد في دمها المسبي، دون أن تغفل في نفس الوقت عن أن الفجور جمرةٌ لا تخمدها سوى العفّة، فحافظت بالبقاء على قيد تعاليم حلمها السرّية على حجاب دائم يفصلها عن البرمكي، في ظل شوقها

الصادق للمهدي وإنتظارها الشقي والأسي له.

وإثر إلقائها بتأثيرها عليه، داهمت البرمكي بأسئلتها، فهي سيدة الأسئلة التي تسطو على الإجابات لتحمي نفسها من مذلة الجهل ولكي تُعزز مكانتها في القصر وقلب المهدي.

سطت على هيبة البرمكي وحكمته عندما كانت تلتقي به من وراء الباب تارة، وببرقعها الأسود الشفيف تارة أخرى أو في حضور زوجته الحسناء أم الفضل، إذ لم تكشف عن وجهها مرة أخرى أمامه أبداً، بعد أن جرفه سيل حاجتها للإنبعاث عبر إتيانها له من حيث لم يحتسب، من إنكساره وضعفه المستَتِريْن بالحكمة، من أصله الفارسي في خضمّ النسب العربي والأصل الشريف لذوي السلطان.

أَتَتْهُ من هناك نعم، فزمان الخلافة والخليفة والدين والعباد كان عربياً خالصاً.

في هذه الأجواء التي إشتد فيها عود الخيزران، عاد المهدي إلى المشرق.

ودخل القصر الزينبدي والياً على خراسان هذه المرة وليس قائداً للجيش فحسب، يصحبه أبو عبيْد الله بن يسار الذي عيّنه أبوه المنصور وزيرًا جديداً له.

إلاّ أن هذا لم يُثر سخط وغضب يحيى البرمكي الذي أعدّ استقبالاً مُهيباً لأميره بعد كل هذا الفراق الطويل، لأنه كان واثقاً تمام الثقة من قيمته وحظوته لا لدى المهدي فقط بل لدى الخليفة المنصور بأسْرِه، ولكن ما أثار حفيظة البرمكي هي عودة الأمير دون زوجته الجديدة التي خلّفها وراءه في قصر الهاشمية، وتلك اللهفة في عينيه، إذ كانت المرة الأولى التي يرى فيها إبن سيده ومولاه يهيم بجارية إلى هذه الدرجة من الشوق والعشق.

أما هي التي كانت على مشارف الإنجاب، عندما علمت بعودته إجتاحتها الفرحة واللهفة وتجلّى إيمانها الراسخ بعودته إليها، فأعدت نفسها بأناقة وإتقان.

كانت وهي تتطيب وتتجمّل من أجله لا تقوى على تجاهل حزن دفين في داخلها، فلو أنها كانت إمرأة حرة لمنعته عنها، لرفضته، لهجرته، إلاّ أنها كانت تعرف حتى هذه اللحظة أن ماهيّتها ما تزال حريرية مُزيّفة في حضرة الأمير.

في لقائهما الأول بعد عودته، عاتبته الخيزران بغنجٍ ودلال على هجرانه المفاجيء لها، دون أن تجرؤ على التعرّض لزواجه من إبنة عمه بسوءٍ أو تذّمر، فهي كانت ذكية في هذا الجانب، وتعرف تماماً إلى أين تصل في حديثها معه هي الجارية لا أقل ولا أكثر، بل هي لا تتفوق على مثيلاتها إلاّ بمقصورة صغيرة فقط.

قال لها وهو يتحسّس بطنها المنتفخة بعد أن أخمد عتبها بقبلة:

- أيكون موسى قد دعا أخاه ليشدّ من أزره؟

كانت تعرف ما الذي يقصده، ولكنها سألته بإنشراح إعتراها بعد أن غمرها بلهفته وشوقه بلقائها أخيراً:

- ومن أخوه يا مولاي؟

- هارون يا جاريتي البهية.

- بمشيئة الله يا مولاي.

- الأمير هارون بن المهدي محمد.

قالت له وكأن وحياً قد نزل عليها فجأة:

- كما أن موسى بحاجة إلى هارون، فإنهما معاً بحاجةٍ إلى عهدٍ يأويان إليه ويحرسان بميثاقه إسمكْ.

التمعت عيناه من نيران حديثها، لم يعقّب بأدنى كلمة بل أخذ يتحسس بطنها ويُقبّلها.

هي التي ستنجب له هارون بعد قليل، وما سيأسره ويجذبه إليها أكثر...

* * *

الفصل التاسع:

ما بين السبي والخيمة

وطأةُ الحزن الشديد تحلُّ بليلٍ مُمتدٍ في تأبّده يأبى الفجر، عليّ يحتلني أنا التي سُبيتُ في غمضة أمي وسطوة غزوة سوداء أشهرتْ سيوفها بوجه براءتي في جنوب الأرض أرضي، لتأخذني معها بدروب النصف الثاني من القرن الهجري الثاني الموافق للشهر الثاني للسبي سبيّ أنا.

نعم.. حيث لي تاريخ الآن، فكل المصائر تصبح كبرى وعظيمة عندما تُحدد في وقوعها حياة أصحابها، لتغدو تقويماً لأحداث تاريخ جديد خاص بهم.

ولكن ليلي لا ينتهي..

إذ أصحو داخل الخيمة على دمعي الساخن المنساب على وجنتي، لأنفض ما تبقى من الرقاد، وأمضي صوب أمي وبلاد الأصل والبدء، إلى الجنوب، إلى حضرموت، إلى بلدتي الصغيرة الملقاة في أحضان الوادي الكبير.

أكنتُ الهاوية من نسل العرب البائدة بأسرة صغيرة أثرُ إرَمٍ ذات العماد على طين بيتها؟

وحدي أنا في ضيق الأرض وسط رايات سود وسيوف سُلّتْ في سبيل السلطان.

وحدي هناك، وكأن البلد لم تكن، وكأن أمير الجند العباسي لم يلمح سواي في معمعان الغبار والدم.

كان بوسعي أن أهرب، أن اصرخ، وأستنجد، ان أفصح عن أهلي ونسبي، ولكن ويحي.. إبنة من أكون أنا حتى أفاخر بنسبي وألطم وجه أمير الجند؟

في ظلال البيت وهدأة أمي وأثر أبي كنتُ أعيش، في حكاية لا تشدّ من

أزر وجودي المتعطش لمياه جذوري.

وفي صعود القرن الثاني الهجري إلى ذروة تاريخه، ليباهي بمجده القرن الثامن الميلادي، سُبيت على حين غزوة بَرْقية، أثناء إخضاع قوم المشرق لمن عرفتُ من الأنهد ورقية بأنهم "الخوارج" الذين كانوا في البداية من أتباع رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، ثم خرجوا عليه بعد صراعه مع معاوية بن ابي سفيان على حق الخلافة وتولي أمور المسلمين، مُطالبين بإرجاع الحكم لله وأن لا تكون إمامة المسلمين في قريش فقط، لهذا كان يصرخ أحدهم وهو يغمد سيفه في هواء العباسيين "ما الحكم إلاّ لله"، لقد عرفتهم الآن وعرفت أصحاب الرايات السود، فلماذا نصبح على قدر من المعرفة عندما يكون شُحّها السبب الرئيسي وراء ضياعنا؟، لماذا أراهم بوضوح الآن؟

إذ أخضعتهم الغزوة العباسية، وأدْمَتْهم حتى الرمق الأخير وسواد قريش، وسبتني أنا التي كنتُ في طريقي إلى أخي، إذ أظلمت السماء وإنشقّتْ الأرض لتبتلع الناس وتبقيني أنا على وجهها في مواجهة أمير الجند.

أعود في هذا الليل إلى أمي التي كانت تقول لي عندما تلمس ضيق جمالي الآخذ بالنمو والتألق من قيظ الوادي وهجرانه المترامي الأطراف:

– أي بنية.. كان ابوك فارساً ذا عزٍ فيما مضى.

كانت تُلَقّمني ذكرى أبي رويداً رويداً خوفاً عليّ من التُخمة وأن أصاب بحسرة وكآبة قاتلتيْن:

– عندما تنضجين أكثر ستخمد أسئلتك وستشتعل إجاباتي لكي تدفئك فاصبري.

فصبرتُ يا أمي، صبرتُ حتى سُبيتُ بجهلي وبأوْج التاريخ، وها أنا ذي في خيمة البدوي لم أُشفَ بعد من جراحي رغم نقاء الهواء وسطوع المعرفة وطيبة أهل الصحراء، لم أُشفَ لأن ما بدأ ينتابني يحرقني يا أمي، فأن أخوض في إخضاع الجهل والقضاء على الضعف المُستَعِرّ في داخلي يتطلب مني الكثير من الجَلَدْ والصبر والمثابرة والمزيد من الألم الذي سيقودني إلى معرفة وثقف كل شيء قد يكفل إحالتي إلى شيء.

في الخيمة..

أصبحتُ أراقب ما حولي برؤية جديدة، أعود بها إلى ماضٍ يكتنفه الغموض وقرية لم تكن تنظر إلينا بعين النسب والأصل والشرف، أكنا مسبييّن بالفطرة؟!

قالت جدة القبيلة لي بأنني من نسل بلقيس، آه يا أمي لو تعلمين بما قالته لي لأدركتِ أسئلتي وحاجتي إلى كشف ما حولي من غموض وسكينة.

- أبوكِ مات من القهر والحسرة.
- مّن ماذا يا أماه؟
- كنا في بلد آخر، اتباعاً نعيش في كنف من باتوا غابرين.
- من هم؟
- لا يهم.
- وكيف هذا؟
- أبوك رحمه الله رمى خيبته في أحضان الوادي ليحمينا مما قد حدث في ذلك الزمان.
- وما الذي حدث؟
- ذهب ملوك وجاء ملوك.
- ونحن؟!
- من نحن؟!
- أنتِ أجيبيني؟
- عندما تكبرين.

أتذكر ما كانت تبوح به أمي إليّ، الملمُ فتات حديثها في هذا الليل الصحراوي، أجمعه، أعيد تركيبه بنشأة بصيرتي التي خُلقت هنا، وأعيد أيضاً نثر الحديث في التاريخ الجديد، أنسجه مع ما أغدقاه رقية والأنهد علي من علم ومعرفة لأكتشف ماهيتي.

هل كنا يا أُمي نعيش في كنف بني أمية؟

هل كان أبي أحد أتباعهم في دمشق أو البصرة أو المدينة؟

أأنا إبنة سبأ؟

لو لم أكن لما ألقى أبي بخيبته في جنوب الأرض، ولما قالت لي الجدة بأن جمالي بلقيسي ومصيري أيضاً!

وحدها أمي كانت سيدة الغموض.

إمرأة في بداية الأربعين من عمر عاشت فيه سعيدة هانئة تارة وحزينة مفجوعة تارة اخرى.

كنتُ أدرك ذلك من حديثها وأنفاسها وحراكها في البيت وأثر الجمال في محياها.

- أورثتك جمالي كما أورثك أبوك هذه القامة المديدة، وغداً سيأتيك صاحب الحظ السعيد لينال من هذا الجمال التليد.

كنتُ أصيغُ السمع إليها بالليل وهي تُدندن بصوت حزين خافت شعراً وأغاني، كان صوتها عذباً شجياً وكان الحلم يراقصني على إيقاعه.

- هل كنتِ تغنين بالأمس يا أماه؟

- كلا.. لا بد أنك كنت تحلمين.

هكذا كانت، تهرب منا وقت تشاء، وعندما تلمس جوعنا للإجابات تسعفنا بفتات منها يبقينا على قيد الحد الأدنى من الذاكرة ويحمينا من موت تسبب به جوعنا للتاريخ والعائلة.

العائلة؟!

لم تكن لنا عائلة ولا قبيلة ولا أصدقاء ولا أحد، كنا في بيت مُلقى على أطراف البلدة السفلى، بيت طيني يبكي من شدة فقره وتهالكه، نعمل في حقل ليس لنا، لم تكن سوى أمي لنا، تلك التي من شدة خوفها عليّ رمتني في طين البيت المشوي إلى أن يشاء القضاء والقدر بزوج عابر أو موت فجائي ولكن ليس بسببي!!

سبيٌّ سريعٌ على مرأى الله والزمان، سبيٌّ عباسي! إمتلك السطوة والسلطان وشرف النسب، على حين غرة أخذوني وقبل أن أصحو على فاجعتي عثر علي الأنهد بفروسيته وشجاعته وصعلكته وقومه.

ليمنحني مكوثي في الصحراء بداية الحكمة ومعنى الأمان، وبقدر ما كنت أنمو وأتفتح في أرجاء الخيام والكثبان، كان التمرد ينتشر في داخلي كالنار في الهشيم، حيث أدركت نفسي، إكتشفتها، وعرفتُ بأني قادرة على النهوض، فهل أعود إلى أمي، أم أمضي في الدرب؟

قومُ الصحراء حطموا قيودي وأطلقوني، قالوا لي: أنت أميرة قدرك وأمّارة نفسك.

هل تسمعين يا أمي أنا أميرة نفسي فأينكِ الآن لتغمري نضجي؟

وأيني منك لتبوحي لي بسرّي وتطردي عني هذا الليل الذي غزاني بأرق وشوق مفترسيْن؟

حسناً.. هكذا سأكتب في رِقِّ ذاكرتي..

كان ابي من قلائل اليمانيين الذين نصروا الأمويين وساندوهم.

كان أبي فارساً مغواراً ومخلصاً فنال حظوة خلفاء بني أمية.

تزوج أبي من أمي التي كانت جارية في حرم الأموي الذي أهداها إليه، فأصاب منها أبي حملاً، فأنجبت له أخي ثم انا ثم أختي، ولا أعلم إذا كان لي أخوة آخرون.

كان أبي يعيش في دمشق الفردوسية، حيث رغد العيش ورخاؤه.

كانت أمي سعيدة معه راضية وتحبه وتغني له أحلى الأغاني.

أمي من أُصل عربي مثل أبي الذي أحبّها حباً جماً فأعتقها وتزوجها على سنة الله ورسوله.

ولكن رخاء الأمويين لم يستمر عندما بدأت تخفق في المشرق راياتٌ سوداء أطاحت بظلالها الثقيلة بدولة بني أمية وبأبي وأُمي أيضاً.

فعندما هُزمَ الأمويون وعلى رأسهم آخر خلفائهم مروان بن محمد الملقب "بالحمار"، في معركتهم الأخيرة ضد السلطان الجديد، لاذ أبي بالفرار متخفياً في ظلام الليل إلى أن وصل دمشق فأخذنا على حين غرة معه في ناقتيْن وفرس دون أن يتمكن من بيع أملاكه وحصر ماله.

سرنا في دروب الله والهروب، إلى أن نزلنا بهذه البلاد.

أصلُ أبي من جنوبها وأمي من شمالها ونحن من صُلبها.

إستقر بنا المقام بها ونشأنا في واديها، وكبرنا من خيرها ولكنها رمتنا بالوحدة والإضطهاد، ورغم اننا لم نعرف أحدا من نسل هذه الأرض إلاّ أنهم عرفونا نحن، فمن يخفى عليه في اليمن أمرٌ، خاصة إذا كان أمر أحد موالي السلطان الغابر والبائد، لهذا سكن أبي في قهره وتوطن به الإنكسار، فلم يدم فوق أديم الأرض ومضى إلى جوفها بقبرٍ من حزن وطين، ولجأت أمي إلى صمتها وخيبتها فسبيتُ أنا.

سأحفظ هذه الحكاية، لكي تحرسني من برد الذاكرة وجوع التاريخ والنسب.

نعم هذا نسبي..

هذه ذاكرتي..

وها أنا ذي أعيش في لحظتي، وحاضري الشاسع بالتجربة وأنسج منه أمانيّ وأحلامي، وأخلق فيه ماضياً صريحاً وأستشرف مستقبلاً سأحققه بعد ان ألقي لقمة ذاكرتي هذه في وجه الأيام المسعورة وأقدارها المخيفة.

إحتلني الأرق، لا بل إلتهم جفنيْ، فبقيتُ على قدر من اليقظة وأحاديث أمي متململة في فراشي الرملي إلى ان سمعتُ صوتاً كفحيح الأفعى يقترب من خيمتي، ثم إنجلى الصوت عن ظل فالظل عن رجل ملتفعٍ بعباءة سوداء دلف إلى خيمتي بخفة وهدوء.

كان مقنعاً، فاعتقدتُ لوهلة الفجر الأولى أنه الأنهد فلم أُذعر، بل تصنّعتُ النوم حتى أراه وهو يراقبني نائمة ثم أفاجئه بالصحو على حين فجر إقترب السواد مني أكثر، أكثر مما يفعل الأنهد، إنحنى، جلس قبالتي، مرّر يديه المرتجفتيْن على جسدي ببطء، فوجئت من إقدامه الفاحش هذا، إلاّ أني لم اقاوم إعتقاداً مني بأن الأنهد يسعى إلى إيقاظي.

أخذت اليدان بجسّي بقوة هذه المرة، على فخذيْ، وصولاً إلى نهديْ فهصرهما بأصابعه الباردة، ثم إنتفضتُ بعدما أيقنتُ بأن ما يحدث غريب كل الغرابة عليّ وعلى الأنهد، تفاجأ هو وارتدّ إلى الوراء، فقلتُ له بصوت خافت

مذعور حتى لا يسمعنا أحد خاصة رقية في هذا الفجر المتلألئ بنجمة الصبح وصداها:

- ماذا تفعل أيها الأنهد؟

إلّا أنه اقترب مني من جديد دون أن يتفوه بكلمة، مطلقاً العنان ليديه القاسيتيْن على ردائي فمزّقتاه بشدة من قُبُلٍ مما أبان ما زاد المقنّع رغبة وإندفاعاً نحوي.

صُعقت بكشفه لستري، لم أعد أعلم ماذا أفعل، أأسترُ على جسدي أم أدافع عنه بيدي الضعيفتيْن، وهو المتوحش يلهث فوقي كذئب ساعياً نحو إخضاعي بعنف وقسوة، تذكرت عباءته فقلتُ له بصوت مختنق ومرتعش:

- عباءتك عليّ، عهدك لي، أيها الأنهد أتوسل إليك لا تُؤْذني.

فقام بوضع يده على فمي وكتم صوتي وتوسلاتي في سعيه الفاحش لإخضاعي، ولكني قاومته بكل ما أملك من حزن ويأس وإنكسار، قلتُ لنفسي أن كفاك ضعفاً وهزائم، فانتفضي، وإنتفضتُ، إنقضضتُ بيدي على وجهه فنزعتُ قناعه، فارتد إلى الوراء بسرعة مخفياً وجهه بيديه، إلاّ أني لمحته في هذه اللحظة، إذ لم يكن الأنهد، بل "الجهم" ذلك المعتوه الفظّ الذي حاول الإعتداء عليّ ليلة اعتراض الأنهد للقافلة العباسية، نعم إنه هو، فكيف لم أقل للأنهد بأنه لم يسأم من مطاردتي بعينيه الفاحشتين حين أكون برفقة رقية في أرجاء القبيلة؟

عندما لمحته لمحت أيضاً جسدي في عينيه وتوحشه المخيف لنيلي، إذ أصابته لوثة جمالي، فانقضّ عليّ مرة أخرى ولكني صرختُ صراخ لبؤة جريحة فلم يرتد، كاد أن يُمزّق ما تبقى من ردائي، وعندما أوشكتُ على الغياب والإستسلام لهذا القدر الممزق إنتزعته عني يدا ملاك بدوي.

يدان من نور وأمان إنتزعتا بهيمة الليل وألقتا به جانباً، ليتجلى الأنهد فارسي الأجمل الذي إستّل سيفه قائلاً للجهم بحزم وغضب:

لقد حذرتكَ من قبل ولكنك لم تتّعظ وترتد عن سوءتك هذه.

وما أن أوشك الجهم على التوسل حتى عاجله الأنهد بضربة ماحقة قاصمة

فصلتْ الجزء الأكبر من عنقه عن جسده، فتدلّى رأسه على صدره بدماء تدفقت بغزارة.

كان مشهداً مخيفاً كابوسياً، ذلك الإقتراب من الموت والقتل في سبيلي.

أُخذتُ بالدماء المُهْرَقة عى أرض خيمتي فلم أنتبه لعُريـيّ الجزئي، عندما إلتفتَ الأنهد نحوي ولمح جسدي المتألق بعرق الخوف، فأشاح بنظره عني بسرعة، إلى ان أدركتُ أنا ما حدث وسترتُ نفسي بعباءته مرة أخرى.

حدث كل شيء في ومضة برق وضربة سيف.

عشتُ أنا وقُتل هو..

هو قُربان هذا الجمال الملعون الذي حلّ بي.

أصابتني الدماء المتدفقة من الجثة بالوجوم، لم ألوِ على شيء في الوقت الذي وصلت فيه رقية ومن إستيقظ من أهل القوم.

إندفعتْ نحوي وإحتضنتني بدفء:

- هل أنتِ بخير يا صغيرتي؟

لم أُجبْ، كنتُ جاثية على الأرض أُحدق في لجة الدماء تارة وفي وجه الأنهد المتجهم تارة أخرى، ثم حدقت في داخلي في أعماق نفسي حيث رأيتُ ما كان يحدث، رأيتُ خيمة تحترق وبركاناً قد ثار..

ثم أُغميَ عليّ...

-2-

أنا المقّاء بنت عطاء بن سبأ

أنا سيدة الأعالي..

أنا إمتداد بلقيس في الأرض، أنفاسها، آثار سحرها وجمالها، وأنتم من أنتم في وجه إعصاري.

أنتم حطامٌ على حطامٍ على حطام..

أنتم عبيدي.. عبيد الشهوة

وأنا التي أسود عليكم.

هذا ما كنتُ أقوله وأنا أرتدي حلّة بلقيسية حمراء شفيفة، حيث كنتُ أمتشقُ جبلاً وأتربّعُ شمساً وأُقبّلُ قمراً وألثمُ عرق خيولي السابحة في فضاء الدخان والنار، وكان أمير الجند العباسي مقيداً بأغلال من جحيم هو والجهم الذي كان بدوره يحاول جاهداً إعادة تركيب رأسه على كتفيه دون جدوى، إلى أن برز من ثنايا الدخان عبدٌ أسود ضخم الجثة لا تستر عوْرته سوى خرقة حمراء بالية وحلقات من ذهب مشتعل غرزها في كافة أنحاء جسده المفتول.

قال لي بصوت أجش قبيح:

- أنا عبدكِ "نفّاش" ماذا أفعل بهما يا مولاتي؟

نظرتُ إليه بخوف ثم سألته بحيرة:

- أريد الأنهد.. أتوسّل إليك.. هل رأيته فهو فارسي الذي سيأخذ بثأري ويُشفي غُلْمَتي ويهرق دماءهما على فخذيْ.

- لأكفينَّكِ يا مولاتي.

نهرتُهُ بقسوة وإستعلاء مفاجئيْن:

- لا أيها الأحمق أريد الأنهد.

أجابني كطفل يتدلل:

- لا.. لا.. بل أنا يا مولاتي أرجوكِ

- ويحك أتجرؤ على عصياني!

- حاشا وكلاّ ولكن منالي رضاكِ وغايتي مُناكِ

- حسناً.

ثم ترجلّتُ عن خيولي وألقيتُ الشمس ورائي والقمر أمامي وإقتربتُ منهما بسوطي الناري:

- يا أمير الجند لم سبيتني؟

كان يرتجف من شدة الخوف، وكاد أن يبتلع لسانه، فعاجلته بضربة من سوطي إنتزعتْ لسانه من حلقه، ثم صرختُ به:

- هيا.. أجب.. عليكَ أماني

- لكي تكوني هديتي لأمير المؤمنين

- لكَ أم لهُ؟ ألا تريد أن تتمتّع بي؟!
- كلا.. كلا والله.
- ويلك وهل أنا بهيمتك لتهديني لمن تشاء؟!
- كلا.. كلا.. انت مولاتي.

لسعته بالسوط على وجهه بقسوة:

- وأين أمير المؤمنين؟
- في بغداد
- وأين بغداد؟
- في شرق البلاد

قهقهتُ بجذل، ثم جلدته من جديد:

- ألا لعنةُ الله عليك أما تعلم بأني شريفة الحسب حُرّة النسب، ويلك.. أما تعلم بأنني بلقيسية؟
- لو كنتُ أعلم لما سبيتُك
- ما سَبيتني، فأنا قد سبيتُ نفسي.
- وكيف هذا يا مولاتي؟
- إخسَأ يا ابن الخرقاء واصمتْ.. لا.. لا.. تصمت الآن بل قل لي بأي حق سبيتني؟

إنفجر بالضحك وكذلك نفاش والجهم، إنخرطوا ثلاثتهم في نوبة ضحك ماجنة، كانوا يضحكون ويضربون على رؤوسهم بأيديهم ساخرين مني.

- لماذا تضحكون يا أبناء الرجس والفحش؟

أمعنوا في ضحكهم المُجلجل في أرجاء العرش، إضطربتُ، وبحثتُ عن سبب سخريتهم مني، إلتفتُّ حولي فلم أعثر على ما هو مُريب أو مثير، ثم نظرتُ فجأة إلى جسدي بذعرٍ إذ كنتُ عارية، ممشوقة العُريْ، لا ستر علي، لا شيء سوى السوط، ذ هلت وأخذتُ أتخبط في عرشي، ثم وضعتُ يديْ على نهديْ ومُلتقى فخذيْ، وضربت الأرض بقدميْ صارخة بجزع:

- نفّاش أيها العبد الغادر إليّ بعباءة الأنهد، اين عباءة الأنهد هيا؟

إقتربوا مني والأغلال بأيديهم، كانوا يضحكون بشدة وإثارة، إقتربوا أكثر، شعرتُ بنيران أنفاسهم القذرة تلفح جسدي، وما أن كاد أولهم الجهم أن يفترسني حتى رأيتُ عباءة الأنهد تُحلّقُ في سماء العرش إلى أن حطّتْ عليّ، فاستعدتُ سطوتي، وأخذتُ أجلدهم بسوطي بعنف وشتائم إلى أن إرتدّوا إلى الوراء مذعورين:

- لأقتلنّكم وأقطعنّكم وأشوينكم وليمةً على مائدة أمي، إليَّ بهما يا نفاش الغادر.

فأمسك بهما نفاش مطبقاً بيديه على عنقيْهما قائلاً بعد أن إستعدتُ هيبتي وسطوتي عليه:

أتعصيان مولاتي، ستريان لا بل ستشعران بجحيم عذابها الآن.

إقتلعَ من لسانه حلقة ذهبية نارية ثم أمسك برأس الجهم التي كانت تتدحرج على الأرض قائلاً:

- عينا السوء يا مولاتي زنتا بكِ، ها أنا أسمِلهُما، هل أنتِ سعيدة ها؟

أجبته بجذل وأنا اتحسس بإثارة صدري وعنقي:

- نعم.. نعم هاتِ حلقة من حلقاتك النارية وأغرزها هنا.. لا.. لا.. بل يداه يا نفاش إقطعهما وضعهما في إسْتِكْ.. أقصد في إسْتِ أمير الجند.

- سمعاً وطاعة يا مولاتي.

كانت حشرجة الجهم كخوار خنزير مسّه لهب الجحيم:

- لا.. لا.. الرحمة يا مولاتي الرحمة،

- أية رحمة يا عبد شهوتك ومنالي، أية رحمة وقد لجأتُ إليكم لتحموني..

فويلٌ للذين ينتهكون حرمة الضعفاء...

ويلٌ للذين يُلوثون العهود بنزواتهم..

والويلُ لك لأنك مسَسْتني،،،

نفاش إقتلع ذكورته، إجتثّها وضعها في فمك.. اقصد في فم أمير الجند هيا.

- سمعاً وطاعة يا مولاتي.

صرخ الجهم لا بل عوى حتى بُحَّ صوته وأصبح يَئِنُّ كجرذٍ في جوف أفعى، في الوقت الذي كان أمير الجند يختنق من إمتلاء فمه وحلقه بذكورة الجهم، ونفاش يضحك وينظر إلي، يحشر اللحم والدم في فم أمير الجند ويضحك بفجور:

- أسعيدة مولاتي؟! أراضية الآن؟!
- لن أرضى عنك بعد.. إليّ بسيدي أمير الجند.. إقذفه بين قدميْ.
- سمعاً وطاعة يا مولاتي.

أخذ أمير الجند في لثم قدمي وتقبيلهما، فرفسته وبصقتُ عليه:

- هل تذكر؟ هكذا فعلت بي، جعلتني أتوسل إليك، ولكنني سأُبقيكْ، لن أقتلك الآن، سأصلُ بك إلى ذروة شهوة الإنتقام، سأدعك تنكحني.. لا.. لا.. أنا مُلْكُ يمين الخليفة.. لا.. لا.. سأشويك بشمسي أيها الجسد المتعفّن.

ثم نظرتُ إلى نفّاش بسرور مثير:

- نفاش.
- أمر مولاتي.
- يا عبدي الأسود، يا عصا أبنوسي، يا سوادي أدْخِلْ قدمكَ في إسْتِ أمير الجند.

وضحكتُ، ضحكتُ بفحشٍ وأخذتُ أُصَفّقُ وأنا أنظر إلى وجه أمير الجند المحتقن.

- ها هي ذي بعد أن كانت تخفق بيدك أصبحت في إسْتِكْ.
- الرحمة يا مولاتي الرحمة.

صَفَّقْتُ، صرختُ، عويتُ كذئبة راودها قطيع ذئاب، ثم رقصتُ حولهما بفحشٍ شديد إلى أن سقطتْ عني العباءة، وإنتابني العُريْ من جديد، فتوقف نفاش فجأة عمّا أمرته به وحدّق بي برغبة مُتأججة في عينيه البركانيتيْن.

قلتُ له بخفوت وتدلل:

- نفاش

- سمعاً وطاعة يا مولاتي.
- بل سحقاً وندامة يا عبدي.. أدخل قدمك بي.. بل به أيها الأحمق الغادر.. هيا.

ضرب بقدمه الأرض وسالَ لعابه لاهثاً ككلب مسعور:

- لا أفعل
- بل تفعل هيا بإسم الجبال.. بإسم سبأ.. بإسمي ستفعل هيا..
- سمعاً وطاعة يا مولاتي.

إرتديت عباءتي على عجل، وتشبّثتُ بها بقوة، ثم إلتفتُّ ورائي فرأيتُ أمي والأنهد ورقية يحيطون بجدّة القبيلة التي كانت تقول لهم:

- هل صدقتموني الآن؟

أجابوا بصوت واحد مذهولين:

- والله نعم.

أصبتُ برعشة مريعة حين رأيتهم، وإعتراني الخجل فنكّستُ رأسي متشبثّة بالعباءة بقوة قائلة لهم بجزع:

- لا.. لا.. الأمر ليس كما تعتقدين يا أمي الحنون الساكنة في الصمت والغموض..

ليس كذلك يا معلمتي رقية..

لا.. لا.. أيها الأنهد الذي أحاطني بالأمان والعشق الحرام..

صرخت بي رقية فجأة:

- ويحك ماذا تقصدين بالعشق الحرام؟

رمقتها بصرامة وكراهية، ثم أشحتُ بنظري إلى نفاش قائلة له بغضب:

- نفاش.. يا نفاش الغادر يا عبدي الناري أخرج قدمك من إست أمير الجند وضعها.. لا بل إذهب وأتني بتلك الصغيرة مأوى القُحاب الصحراوي صغيرتي رقية..
- سمعاً وطاعة يا مولاتي

في غمضة عين ألقى بها بين قدميْ ككلبة على أربع، وأحاطها بقرة من

الخلف وهو ينزع عنها رداءها عاجزاً عن كبح جماح رغبته في فضّها، فنهرتُهُ:

- صبراً صبراً يا عبدي الآثم.

سألتني رقية بسخرية:

- ماذا تفعلين يا صغيرتي المقاء؟

- هَبَلَتْكِ أمك ومن قال أنني المقاء، وكيف تجرؤين على مناداتي بهذا الإسم؟!

فأجابتني بضحكة فاحشة:

- والله إني لا أخافكْ.

- بلى..

- كلا.. لا أخافك وهذا العبد اللاهث ورائي أشعلني بأنفاسه اللاهبة.. هلُمَّ.. هلُم فاخترقني يا عبد الجحيم هيا..

إلتصقت به فأثارتني، ثم صرختُ بأعلى صوت:

- أرأيتَ أيها الأنهد.. إنها تُفضّلُ العبد عليك، أما أنا فعبْدَتْكَ أيها الفارس فهلُمَّ إلي.

كان الأنهد يحتضن أمي ويواسيها في نكبتها فصرختُ:

- نفاش.. لا تُؤذها فإن لذّتها تكمن في أذيتها.

إلتفتُّ نحو أمير الجند وقلت بسخرية حادة:

- ما بال أمير الجند مختنقاً صامتاً.. قل لي يا سيدي العباسي أتأخذ رقية سبيّة لسادتك؟

فأجابني بذعر وألم:

- كلا.. كلا يا مولاتي خذيها أنت.

- ويحك.. أما أنا فتأخذني.. نفاش إقطع اليد التي نزعت البرقع عن وجهي.

- سمعاً وطاعة يلا مولاتي

لطّخَ دمه المتدفق وجه رقية فذعرت وإرتمت عند قدميْ:

- إلى أين يا صغيرتي؟

- أنا معلمتك أيتها المقاء أزيلي الدم عن وجهي.

- أُصمتي يا زانية الصحراء فأنا بلقيس ولست المقاء ألا تري هول عرشي وشدة طغياني؟!

ثم أطبقتُ على رأسها بيدي وقلتُ لها بهمس مخيف:

- لعنتكِ يا رقية في حجاب من دم يخفي فتنة وجهك حتى لا ينالك ما نالني.

تعمّدتُ أن أقسو عليها فصفعتها بقوة حتى أُثير الأنهد وأدفعه إلى الإقتراب مني، ولكنه لم يستجب بل ظل صامتاً في عناق أمي التي دفنتْ بكاءها في صدره دون أن تلتفت إلي، ثم عادت الجدة فصرخت مُتلعثمة:

- ألم أقل لكم.. رأيتكْ زانية لتعمّ.. رسوله.. لا.. لا..

أقصدُ رأيتك قمراً يحتجب ليقتل رأيتكِ قمراً يعمُّ بالنور ليعشق

- إصمتي أيتها العجوز الشمطاء، نفاش خذ هذه إلى حِجْر الأنهد، وأتِ لي بتلك العجوز الفاجرة هيا.

- سمعاً وطاعة يا مولاتي.

رفعتْ جدة القبيلة رأسها وهي بين قدميْ وحدقت بي بقوة عينيْها الزرقاويْن، فواجهتها بسلطان سوادي فكسرتها وهزمتُ عينيْها:

- أرأيت يا جدتي الطاعنة بالعُهْر، ها قد رأيتني مرة أخرى وساد سوادي على زُرْقَتك.. نفاش إنزع عن الجدة عباءتها، وأعدها إلى عهدها الأول، أعِدْ لها لذتها، أدخل جحيمك بها.. هيا إحرقها.

- سمعاً وطاعة يا مولاتي.

صرختْ الجدة من خشونة نفاش الذي إخترقها كرمحٍ من نار، صرخت في البداية من شدة الألم، ولكنها ما لبثتْ أن تأوّهَتْ بشهوة إبنة عشرين في ذروة نشوتها قائلة وهي تتشبّث برأسه:

- أكثر.. أكثر يا نفاش.. بقوة حتى أعود إلى عضّ اللذة من جديد.

أغمضتُ عينيْ بعد أن أثارتني العجوز ثم صرخت:

- كفى.. كفى.. أتركها يا نفاش الآن لتتحسّر في أوْجها المُنْحسِر، أتركها.

سمعاً وطاعة يا مولاتي.

- هاتِ أمير الجند.
- سمعاً وطاعة يا مولاتي
- إقطع لسانه الذي أعلنني سبية.
- سمعاً وطاعة يا مولاتي.
- إنتزع قلبه الذي لم يرأف بحالي.
- سمعاً وطاعة يا مولاتي.
- إلتهم كبده يا نفاشي.
- سمعاً وطاعة يا مولاتي.
- إشوه بالشمس ثم إبعثه وليمة لضيوفي هناك.
- سمعاً وطاعة يا مولاتي.

إلتفتُّ صوب أمي والأنهد والجدة ورقية، فلم أجدهم إذ كانوا قد تبددوا في البعيد مع الدخان، أردتُ اللحاق بهم، شعرتُ بوحدتي، قهرني إنتقامي، عدوتُ في أرجاء العرش، ثم تعثرتُ بعباءتي فوقعت على الأرض، وإنحسرت العباءة كاشفة عن جسدي الصارخ بالغواية.

كان عُريِيَّ يتلألأ في عيني نفاش الذي بصق كبد أمير الجند من فمه وإتجه نحوي بوجهٍ دامٍ.

بحثتُ عن العباءة لأستر نفسي بها فلم أجدها بجانبي، ذُعرت وصرخت به:

- ويحك يا نفاش لا تحدق من أمام كي لا يحرقك نوري.

إتجه صوبي بسرعة وأحاطني من الخلف:

- ومن قال بأنّني أسعى إلى الحضور في سطوعك.

سألته بلهفة وإثارة:

وكيف إذن؟

- من الخلف يا مولاتي.. حيث ظِل بلقيس مأمن ما هو قادم.

إلتصق بي، تعربش عليّ من الخلف، خفتُ منه، حاولت التملّص والانفلات من أنفاسه اللاهبة، ولكنه أطبق عليّ بقوة يديه الساخنتين، ثم

أغمضتُ عيني بإستسلام لذيذ، ثم سَفَدني سَفْداً وحشياً ثم صرخت..

صرخت وصرخنا معاً:

سمعاً وطاعة يا مولاي..

سحقاً وندامة يا مولاي..

صرخنا حتى إهتز العرش.

-3-

إستيقظتُ في الصباح على صوت رقية:

حمداً لله يا صغيرتي ها قد عدت لنا أخيراً.

- وأين كنت؟

- ويلي عليك.. لقد غبتِ في هاوية الحمىّ لأكثر من عشرة أيام بعد تلك الليلة المشؤومة.

بدأتُ أعود بالتدريج إلى واقعي، إلى أن إستعدتُ عافيتي ووجودي، إذ كنتُ في خيمة رقية التي إعتنت بي جيداً وأسكنتني لديها إثر إمتلاء خيمتي بالغدر والدماء.

سألتها عن الأنهد بحذر، فأجابتني بأنه يعتني بتجارة له في مكة المكرمة وسوف يعود بعد بضعة أيام.

في خيمتها تعافيتُ من آثار الحمى التي أثقلَت عليّ بكوابيسها قاذفة بي في أعمق أعماق النوازع والرغبات الغريبة والمتوحشة، وحاولتُ قدر النسيان أن أهرب من تلك الليلة الدامية وما تبعها من حمى شيطانية لم أبُحْ لرقية بأسرارها وأنفاسها الحارقة.

- لقد كنتِ تتأوهين وتتفوهين بتمتمات غريبة.

حقاً؟

- لا تخجلي فتلك عوارض الحمىّ السقيمة.

- كم أنا ممتنة لك يا رقية.

- لا عليك يا صغيرتي فالجدة بعثتْ إليك بترياق عجّلَ بشفائك وطرد سُمّ

الحمّى من دمك.

عندما ذكرتْ الجدة أعادتني إلى ما قالته لي هذه الأخيرة في خيمتها، حيث قالت لي بأنها لن تراني من جديد، فهل آن أوان رحيلي إذن؟

- عليك أن تستردّي عافيتك الآن فما حدث قد حدث.

إلاّ أني لم أصدق ما حدث، إذ كيف لإنسان أن ينقلب فجأة إلى وحش يسعى إلى إفتراسي، أنا المنكسرة الضعيفة ملاذ المُلّوثين بشهواتهم؟!

لأدرك الإجابة من مصابي الجلل الذي أدى إلى شفائي ليس من الحمى فقط، بل من الضعف والإنكسار، فمع تعاقب الأيام على جرحي في القبيلة، إزداد بريق تمردي وتجلّى في عينيْ خاصة بعد أن إنكَشَفَتْ أمامي دربي القادمة.

وكنتُ أنتظر عودة الأنهد على أحر من الجمر، أنتظره بلهفة لأنني إشتقته أولاً، ولكي أخبره بما نويتُ على الخوض فيه ثانياً، بعد شهرين من الإنكشاف على سحر الصحراء ونورها.

أثار إنتباه رقية ما أنا فيه من تجدد وتغير، وكانت بأسئلتها الحائرة تحاول أن تسبر أغوار حالي الجديد والغريب، ولكني كنتُ أمنعها بتهربي من الإجابة إلى المزيد من علمها ونضجها.

إلى أن عاد الأنهد من رحلته دون أن يأتي للإطمئنان علي كما كنتُ أعتقد وهذا ما أثار حيرتي، فهو الذي كان يزورني فجراً ليأخذني معه الى أحلام الصحراء، ها هو يعود بعد أن عدتُ أنا من جحيم الحمّى دون أن يعودني.

إعتقدتُ للوهلة الأولى أن سبب ذلك هو إقامتي في خيمة رقية التي حاولتُ أن أخفي عنها حماستي ولهفتي للقائه، ولكن إنشغاله عني قد طال، وسئمتُ من الإنتظار فسألتها عنه، قالت بأن تجارته في مكة المكرمة لم تكن موفقة، وأنه عندما يكون مكتئباً محزوناً يحتجب في خيمته عن القوم لبضعة أيام.

شعرتُ بأنها تخفي عني أمراً ما، فأثقلتُ عليها بالأسئلة وإلحاحي على رؤيته.

- حسناً سيأتي لرؤيتك غداً، لقد إلتقيته عشية أمس وقال لي بانه سيحدثك

في شأن هام.

– حقاً؟!

سألتها بلهفة لم أقوَ على إخفائها، فنظرت هي إليّ بدهشة مشوبة بالإمتعاض:

– نعم سيأتي غداً صباحاً.

-4-

كان جالساً في صدر الخيمة مُتجهّم الوجه على غير إشراقته الصباحية البهية، وما أثار حيرتي أكثر هو إختفاء رقية، فدخلتُ وألقيتُ عليه التحية، وجلست قبالته مضطربة.

دقق في وجهي قليلاً ثم سألني:

– أرى أنك قد إستعدت عافيتك؟

– الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

ثم أسهم لبعض الوقت مُنكّساً رأسه بالأرض، ولم أشأ ان أقطع عليه شروده الغريب هذا، إلى أن رفع رأسه ونظر إلي قائلاً بحزم:

– سأعيدك إلى ذويك.

أهال عليّ جبل جملته هذه ثم صمتْ، فإختنقت وإرتبكت متململةً في جلستي دون أن أنبس ببنت شفة إلى أن أردف قائلاً:

– لم اكن في مكة، بل في أعماق الصحراء لأُفرّج عن نفسي كَرْب ونكبة خيمتك، ولكي أمحو آثار دماء جحود إستحق العقاب لأنه مسّ بعهدي إليك، كما أنني عزمتُ على الأمر الذي لطالما فكرتُ به منذ إتياني بك إلى هنا.

سألته بريبة:

– ما هو؟

– عزمتُ على إعادتك إلى ذويك؟

قالها مرة أخرى ليؤكد صدق نيته وحديثه، فسألته فجأة:

- ولكني سبيتُكَ؟!

أجابني بحدة:

- كلا.. أنت حرة وكريمة منذ أن عثرتُ عليك في القافلة العباسية..

قاطعته بحدة مماثلة:

- سبية الخليفة إذن!

- ماذا تقصدين؟

- لن أعود إلى ذويّ

كان الكلام يخرج من فمي كصيّبٍ من نارٍ دون أدنى تفكير، كما لو أنه كان مخبأ مكبوتاً في داخلي منذ ألف سنة:

- لن أعود.. لن أعود.. أنا مِلْك يمين الخليفة.. أنا هديته..

كنتُ على وشك البكاء وأنا أرتعش في جلستي ولكني أخرستُ معهود ضعفي ودمعي وأردفتُ:

- خذني إلى هناك.

- إلى أين؟

- إلى قصر الخليفة.

بعثره إعصاري المفاجئ، صمت قليلاً ثم إنفجر بالضحك قائلاً:

- ويحك.. ماذا تقولين؟

- أقول لك الحق.

- أي حق؟!

- حق مصيري وما هو مكتوب عليّ ولي، لقد عقدتُ العزم وعليك أن تفي بعهدك لي.

- عهدي أن أحافظ عليك.

- أنت أسكنتني لديك وعطفت علي بكرمك وشهامتك، وتقول بأنني حرة ولكنني لست كذلك، أنا سبية وعليك أن تأخذني إلى هناك.

كانت حدتي في تصاعد مستمر، لم يصدق هو ما تفوهت به معتقداً بأن الحميّ قد أثّرت على عقلي وبأنني سأفرح بالعودة إلى أهلي، فأردفتُ مؤكدة

الأمر له:

- أيها الأنهد لقد عزمتُ على الأمر.

- ويحك أتدركين ما الذي ستصنعينه بنفسك؟

أتريدين أن تصبحي جارية في حرم الخلفاء والأمراء؟ أهذا ما تسعين إليه؟ أمَةٌ تباع وتُشترى في أسواق النخاسة؟!

قسا عليّ بكلامه، كان يريد أن ينتشلني من مغبة قراري، أن يكشف لي ما الذي تعنيه كلمة جارية، إلاّ أن الأمر قد قُضي ولن أعود عنه، لن أعود إلى ضعفي وخيمة دمي، فنهضتُ فجأة واقفةً بشموخ وثبات وأجبته إجابة قاطعة:

- يجب أن أكمل الدرب.. وأن أنتزع حريتي ممن تسبّب لي بكل هذا.

- ولكنك حُرّة.

- لا هذه ليست حرية.. فأنا سبيّة منذ خُلقت في ملاجئ الضعف والمسكنة والمذلّة، لهذا عزمتُ، سأذهب إلى هناك، لأنتزع حريتي من قصورهم.

كدتُ أنفجرُ بالبكاء عندما هبّ واقفاً وهرع صوبي قائلاً بصرامة:

- ويحك أتعتقدين أن ما تبغينه سهل المنال، أنت ماضية إلى جحيم العبودية وطواف النكاح في ساحات الجاه والسلطان، لن تكوني سيدة نفسك بل عبدة غيرك، وقصور العباسيين مليئة بمن يَفُقْنَكِ جمالاً من جوارٍ وغلمان، فلا يغرنّكِ جمالك يا مقّاء وعودي إلى رشدك وذويك.

- جمالي كان لعنتي عندما كنت جاهلة، ولكني الآن سأجعل منه ناراً ستحرق من سباني، وبركة تحلّ عليَّ بحريتي.

- لا هذا مُحال.

- المحال هو أن أبقى أسيرة ضعفي وخنوعي.

دنا مني ثم هزّني من كتفيْ بقسوة قائلاً بغضب:

- ويلك أين كنتِ تخفين هذا التمرد، ومن أين لك القوة أيتها الجارية الصغيرة حتى تُغيري مصيرك؟

أزحتُ يديه عن كتفي بحدة قائلة له بحزم:

- الجارية التي سُبيتْ هي الجارية التي ستنتزع حريتها.

أخذ يتفرّس في وجهي بذهول كما لو أنه يبحث عن أخرى لم أعد أنا أشبهها أو أمتُّ لها بأية صلة، ثم قال بصوت مخذول:

- يبدو أن الحمى قد ذهبت بعقلك.

ثم عاد أدراجه إلى خيمته كريحٍ عاتية.

-5-

هالَ الأنهد ما رآه ولمسه من شدةٍ أصابتني، وعزمٍ سكنني ليحثّني على الرحيل، وشعرتُ أنا للمرة الأولى منذ سبييّ وأمَدْ عمري الصغير بأنني قلتُ بلا وجل ما كنتُ أومنُ بقدرتي على فعله.

إذ إمتلأتُ بما هو قادم، وبإيماني على التحكم بمصيري، وهذا ما فاجأ رقية أيضاً التي دفع بها الأنهد من أجل ثنييّ عن قراري، حيث أبرزتْ لي بقسوة ملامح الحياة كجارية في حرم أولي الأمر، قائلة لي بان الحرية لا تُقدر بثمن فلماذا أفرّط بها بعد أن إمتلكتها مزهقة نعمة جمالي في حرير الدهر الحرام.

توغلت بي رقية وأتتني من حيث أمي التي تنتظرني وتبحث عني مفجوعة محزونة في مناكب الأرض الشقية، ولكني لم أعد إبنة الجنوب، لم أعد إبنة أمي، إذ أصبحتُ منذ الآن في مكان آخر، أسيرُ في درب سيرشدني إلى نهاياتها الأنهد سيد عباءتي..

فارس الصحراء الذي أصابني عطفه الجارف وخوفه العظيم عليّ بالألم، فهو لم يتعثّر بي إلاّ منذ أشهر معدودات، وها هو بحزنه وكآبته وغضبه يستر عليّ كما لو أنني كنتُ امرأته أو أخته، ورغم ما شعرتُ به من جحود ونكران بحقه وحق كرمه وأمانه، إلاّ أن الدرب قد شُرّعتْ والأحلام قد عزمتْ على الرحيل معي إلى بغداد التي فتنني بها هو عندما كان يحدثني عن أبهتها ورحابتها الآخذة بالنشوء والإمتداد.

من رحم الخيمة وُلد ما أنوي فعله، إذ هو الخَلْق، نعم خلقي انا إبنة السبعة عشر، فقد أعزّني الدهر بأضعاف عمري ورماني بالحزن المقيم، لأقدر اليوم على الخلق، واثقة بقدرتي على صعود القرن الهجري الثاني بكل ما اوتيت

من سر إنعتاقي.. الألم..

لاشيء سوى الألم.

-6-

سأسألك مرة أخرى هل أنت جادة؟

أجبتها بلا تردد عندما كنا جالستين على مشارف القبيلة نترقب إنغماس الشمس في رمال الصحراء:

- نعم.
- نعم يا صغيرتي؟!
- نعم يا معلمتي ومنيرة دربي، نعم لأن ما هو مكتوب سيتحقق.
- وما هو المكتوب؟
- عندما أرحل أسألي الجدة.
- أيتها المقاء لن أعيد على مسمعك هوْل ما هو بإنتظارك..

قاطعتها بتودد:

- صدقيني لقد رأيتُ من شدتي وحزني ما سيكفل تحقيق مناي، سأتألم أكثر ولكني سأنعم بالراحة والسكينة في آخر الأمر.

حدقت بي كما لو أنها تراني للمرة الأولى ثم قالت:

- لقد كنتُ على يقين تام بأن المقام لن يطول بك هنا، ولكني لم أكن أعلم بأنك ستلقين بنفسك إلى أعماق السبي والإستلاب يا صغيرتي.

ثم طأطأت رأسها حزناً وشرعت بالبكاء، فدنوتُ منها وكفكفتُ دموعها:

- لن أنساكِ ما حييتُ يا رقية فؤادي.
- حسناً لن أخفي عليك الأمر أكثر من هذا، إذ خضع الأنهد لعزمك أخيراً، وأعدّ قافلة صغيرة سيقودها هو إلى الكوفة، غداً سترحلين.

ثم إنخرطت في البكاء من جديد، والغريب بالأمر هو أنني لم أبكِ بل راقبتُ الشفق الأخير وهو يزفُّ شمسه إلى الغروب لكي تشرق في مكان آخر.

* * *

الفصل العاشر:

محظية ولي العهد

مع هـارون زهتْ الخيـزران في القصـر، وأينعت أمـاً منحت لولدهـا الثاني مالـم تمنحه لـلأول من رعايـة وإرضاع وعطـف، ورأت فيـه تجليات العشـق لا تجليات الفضّ، فـي أجواء كانت فيهـا أواصر المحبـة والصداقة قـد توطدت ما بينها وبيـن الأسـرة البرمكية، بـل إزدادت ألفـة بإرضـاع أم الفضل زوجـة يحيى لهارون ورعايتها له، وهذا مـا قامت به بدورها الخيـزران ليصبح جعفر بن يحيى وهارون أخوين في الرضاعة، فعّمتْ المودة أرجـاء القصر، في الوقت الذي كان فيه المهـدي يقـضُّ مضاجع الفتنـة بقوتـه وإلتفاف جيشـه حوله، خاصـة بعد أن اصبح والياً على خراسان.

كل هذا الحضـور السـاطع والنجاح الباهر التـي أحرزته لم يمنحها شـعوراً بالكفاية والقنـوع بما أغدق عليهـا المهدي من حب عاصف ومـن بنائه بها، كان ينتابها ذلك الإحسـاس بالنقص حين كانت تعاقب نفسـها بالوحـدة والصمت في مقصورتها التي كبرت وإزدادت أناقة وفخامة.

ففي رحـاب وحدتهـا كانـت تواجه ذاتهـا إثر يـوم صاخـب بالحيـاة داخل القصر، يـوم تحقق فيـه ذرة مما تصبو إليـه، أو بعـد أن تلمس مبتهجـةً أثر هيام المهـدي المسـتعرّ بهـا، إذ كانـت تتفحـص مقدار مـا حققتـه حتى هـذه اللحظة وسـط الجواري وقصر الدولة العباسـية، هي الجارية التي فاجأتْ كل من حولها بعنفوانها الذي لا يعرف حدوداً مُحّرمة وإن كانت حدود جناح مولاها وسـيدها، كانت تنساب حلماً ذهبياً يصبُّ في واحة حقها وحقيقة أمانيها.

فـي خلوتها وهنيْهـة جمالهـا الفارع، كانت تحسـب بدقـة مقدار مـا أصابته بحسـنها المملوك في القصر، وتتفقد أيضـاً ما أصاب روحها مـن عطب، روحها

الموالية لحلمها وريعان تمردهـا، كانت وحيدة في الصمت وفـي لحظات البكاء تصير حـرةً، تحدق بالمرآة. تسـألها: هـل وصلتُ؟ هـل إكتفيـتْ؟ فيجيبها دمعها السـاخن ثم أنينهـا الـذي يرافقها نشـيد حـزن حتـى مطالع الصبـاح وبدايـة يوم حريري جديد في القصر.

قصر المهدي الذي أخذ في تجنّب وتخفيف حدة مجالسه الصاخبة بمجون أصحابه وجواريه بسـبب أعباء منصبه الجديد، وتأجج لوْذه بها في جناحه، لأنها تألقـت في عينيه بشـدة حيـن كان يبوح لهـا بما يختلـج في صدره ويشـكو همه مُفصحاً عن أمـور الدولة وأعبـاء الحكم في خراسـان، وكانت هي تسـتمع بكل ما تملكه من حسن الإصغاء والتعلم، سـعياً منها وراء خَلْبِ لُبّه ببصيرتها الثاقبة، هوالـذي بقـدر مـا كان يسـتمع ويسـتمتع بنثرهـا للـكلام عليـه، كان يطلعها في سريره على أحلامه وأسـمى أمانيه وتطلعات أبيه، ويُبيح لها دواخله ولكن بحذر وبسطوة السيد قائلاً لها:

- عندما يأتيني ابن يسـار أو رسـول من طرف أبي أمير المؤمنين لا تُقْحمي نفسك بجدالنا وحديثنا بل إبقِي مستمعة في ستر حجابك.
- لماذا يا مولاي؟
- إني أخاف عليك من ألسـنتهم القاتلة ومن تداول سـيرتك بين الناس إلى أن تصل إلى مسامع أبي.

في تلك الليلة، أصابها بخنجر تحفظه، وتشبّث يمينه بشَعْرِها وإلقائه للكلام في وجهها بقسوة أمير لا تأخذه الرأفة في قلبها المُرهَف والهش.

خفّفت مرارة حديثه بحلاوة تفكيرها مقنعة نفسـها بأن الخوف أولُ العشق، وأن نحـرص على أحدهم فإن هـذا يعني حبنـا وتقديرنا له، قطع عليها شـرودها الحزين موضحاً لها:

- أنـتِ لا تعرفيـن يا جاريـة مقـدار الخبـث والرياء في حواشـي الدولة، في الوقت الذي يحرص فيه أبي على إستئصال الفتنة أينما وجدت، فأن يقولوا تُمْلي على المهدي جارية فإن هذه والله لطامّة كبرى قاضية على ما أنا فيه الآن من بهاء وذكاء.

وبفطرتها أدركت ما كان يرمي إليه، فمن هي في أوْج الذكور، والأمراء؟ من هي في ريح المنصور الصرصر العاتية؟ مجرد جارية لا أقل ولا أكثر في لحظات الغضب تُحالُ إلى رماد.

في نفس الوقت أدركت الخيزران مدى تأثير ابن يسار وزير المهدي عليه، فسعَتْ إلى أن يصبح في مركز إهتمامها لكي تُلحقه بمغبّة حضورها وفصاحتها، إبن يسار الذي عيّنه المنصور لإبنه المهدي وزيراً متقداً بالحكمة والذكاء والرصانة والأهم إخلاصه العميق للدولة العباسية، إذ كان المهدي شديد التأثر به في الوقت الذي إبتعد فيه يحيى البرمكي مؤقتاً ليصبح والياً على أذربيجان.

ففي حديثه وإسدائه النصائح للمهدي، أدركت الخيزران أن إبن يسار يختلف عن البرمكي في شأن عظيم، ألا وهو أصله العربي ونسبه الرفيع، ولهذا كان رجل ثقة وعزم وصلابة، وكان يسبقها دون أن يعلم إلى عقل المهدي من خلال تأثيره عليه ببلاغة آرائه وأحكامه، فلم تضمر له حقداً في حجابها، بل قدّرَته وأُعجبتْ به أكثر، لأنه بالنهاية رجل سيدها الذي يحميه ويُربيه على الحكمة والفطنة إستعداداً لأمر عظيم.

أمرٌ لم تقف الخيزران حجر عثرة في طريق تحققه، لأنها تسعى إليه أيضاً هي التي أصبح القصر الزينبدي في ثلاث سنوات مرتعاً لطموحها، وملكاً لصولاتها وجولاتها فيه، فعلى قدر جمالها كان عطفها على الجواري وجناح عيشهن، بالإضافة إلى التصدّق بما يغدقه عليها المهدي من هدايا ومال على الفقراء والمساكين الذين كانوا يتوافدون على القصر طمعاً في كرم المهدي وكرمها.

حيث لم تكن تلهث وراء الذهب وبريقه وزخارف القصر بل كانت سيدة القنوع إذ يكفيها قلب المهدي وتقدمها الحثيث في الدرب الصحيحة، كان يكفيها هارون الذي أنزل عليها السرور والسعادة بإنجذابها القوي بحبها ورعايتها له مقابل موسى الذي لم يكن له ذنب سوى دماء أمه التي فضّتْ مصيرها لأبيه الأمير في ليلة التحول من جارية غرّة إلى إمرأة فاتنة تلهث وراء أحلامها.

من ظل حجابها في مجلسه الليلي، رأته للمرةالأولى وقد تملّكه الغضب والسخط بعد ان اعتادت عليه وألِفَتْه وديعاً هادئاً في أحضانها.

إذ كان إبن يسار يرافقه إثنان من قادة الجيش داخل المجلس المشحون بالتوتر يسعون في تهدئة المهدي وطمأنته، وهي تترقب في سترها ما الذي ستؤول إليه الأمور بعد مقتل الشاعر الذي مدحهُ في بلاط أبيه وهو في طريقه إلى "الري" لينال عطاء المهدي ومكافأته له.

حيث كان المهدي في وقت سابق قد ألقى على الخيزران مطلع تلك القصيدة التي صدح شاعرها بالمهدي ولياً لعهد ابيه الخليفة دون إبن عمه عيسى بن موسى قائد جيوش المسلمين وولي عهد المنصور:

"أنت الذي ولاّكَ ربُ المسجد

أحسنَ ولي عهدها بالأسعدِ

عيسى فزَحْلَقَها إلى محمد"

وقتذاك كانت الخيزران تهزج بالكلام وتُرقّصُ الشعر في حضرة المهدي الذي أدرك أخيراً مرامي أبيه الهادفة إلى جعله ولياً لعهده، وكانت هي صاحبة السعادة القصوى بهذه الأبيات، بعدما أيقنت أن طريق الحكم في بغداد يبدأ من خراسان مهد الرايات السود ومنعة العباسيين.

ولكن ما يجري الآن في جناح المهدي يشي بأمر خطير، فقتلُ الشاعر "أبي نخيلة" كان بمثابة رسالة شديدة اللهجة لأصحاب الأمر فحواها أن العهد هو العهد، ولا يجوز المساس بالمواثيق المختومة التي تنصُّ بصراحة ويقين على أن ولاية العهد من بعد المنصور ستكون لإبن أخيه وليست للذي إحتفى به الشعر والشعراء.

كان غضب المهدي آخذاً بالتصاعد، ترافقه خشيةٌ مما سيلي هذا الحادث الآثم من دماء تُهرق مرة أخرى في سبيل السلطان:

- إنه لحدثٌ جلل قام به جبان غادر، أهكذا يصبح مدحي ذنباً يُقتل عليه

الشعراء؟!

أجابه إبن يسار بهدوء ساعياً إلى إمتصاص غضبه:

- قُتِلَ الشاعر ولم يُقتلْ الشعر يا مولاي إثر إنتشاره كالنار في الهشيم في بلاد المسلمين.
- ويله يا إبن يسار.. ويله الذي فعلها فإن قصده لعظيم يريد من ورائه بالفتنة محاصرة عزم أبي في إيلاء العهد لي.
- ولكن أثر من فعلها جليٌّ وواضح للعيان.
- أعلمُ أنه هو.. عيسى ومن سواه.. فما الذي يريده إذن؟ أيجرؤ على أمر أبي؟
- كلا يا مولاي بل يجرؤ على إشعال فتنة لا تُحمد عقباها، ونحن بتدبير أمير المؤمنين وتريثك يا مولاي لن ننساق وراء نيته الخبيثة.
- وما هي؟
- الفتنة والخروج، فهو يتحصن بشرعية الميثاق الممتد بين الرعية، ميثاق أبي العباس لأمير المؤمنين أبي جعفر القاضي بإيلاء العهد من بعده لعيسى، إلاّ أننا بحكمة أميرنا وحسن درايته بشوؤن الخلافة سنكون قادرين بإذن الله على الإنتهاء من أزمة عيسى.

كظم غيظ المهدي حديث إبن يسار المتزن والبليغ، وأدرك أن وزيره أصاب عين الصواب، فالمنصور أعدّ العدة منذ أن لقّبهُ بالمهدي، ليُشهر بذلك للرعية بأنه سيكون أميرهم القادم الذي إصطفاه الله برحمته ورعايته، وما أماني عيسى بن موسى وميثاقه سوى سراب ريثما يتبخر بأُوار المنصور الحارق.

ولهذا كانت الخيزران تتراقص سعيدة بما سيؤول إليه أمر سيدها، ومطمئنة داخل حجابها الذي لم يؤثر على حضورها في ميدان الأمراء والرجال الذين كان يصنعون تاريخاً سلطانياً للعباسيين، لتشحذ ذكاءها وتُثري معرفتها بالإنكشاف عليهم من عتمتها المباركة، ففي الوقت الذي تنام فيه الجواري من شدة التعب واللذة في جناح الحريم خانعات لمصيرهن، كانت هي على أتم اليقظة سيدةً للتشوّف والبصيرة والقادرة على هداية المهدي إلى الصراط

تنسيق: علامة تعجب www.ibtesama.com

المستقيم الذي سيقوده إلى الخلافة، فما الذي كان يعوزها سوى تقاطع المصائر وإنقلابها إلى غاية واحدة، الإنعتاق والتحرر وإمتلاك الأمر والذات.

في المجلس الذي هدأت ثائرته كانت الخيزران تصغي باهتمام بالغ إلى ما كان يجري من جدال وحديث أخذ هذه المرة منحىً آخر أثبتَ لها أن الرحمة لا وجود لها في البلاط العباسي، وأن من يمتلك القوة والدهاء هو الواحد الأوحد القادر على السلطان، وهذا ما رأته في الوجه الآخر للمهدي إبن المنصور الذي لن يفرط بحق أبيه فيه ولا في عهده.

قال له ابن يسار إثر إستكانته في جلسة هادئة:

– لا بد لنا يا مولاي من أن نولي خراسان المزيد من الإهتمام، لما عهدناه منها من فتن وعصيان، فلن يطول هذا الحال حتى ينقلب الأمر إليك، ولهذا علينا أن نضبط الرعية بأناة وحذر هنا.

– فابعث إذن إلى أولي أمرنا وصاحب الشرطة ليسوس الرعية بما لا يأخذها بشدته ولا تأخذه هي برأفته، وأكتب أيضاً ليحيى، فهو على بالغ تدبير في أمور المشرق ولن تفوته الفتن النائمة.

– سمعاً وطاعة يلا مولاي.

– عسى أن يُفضي عناد عيسى إلى السلم والحمد.

ثم إنصرف إبن يسار برفقة القائديْن اللذيْن لم يتفوّها بأدنى كلمة لخشيتهما من سخط المهدي، وما أن أغلقا وراءهما الباب حتى صفّق المهدي بيديه متسائلاً بتودد:

– ها.. أشكُّ في نومك في معمعان القول يا جارية؟

فانبعثت من الحجاب جذلى:

– ألا نامت عيني ولا رقد جسدي وأميري في كَرْبِ الأمر وضغائن الغادرين.

جلستْ بمحاذاته، فتحسّس هو وجهها بنعومة قائلاً:

– لقد آلمني بقتله للشاعر يا جارية، فمغزى خنجره والله لا يبشّر إلاّ بالدم الحرام.

أجابته بثقة إكتست صوتها:

- لن يطول به ذلك يا مولاي، فالأمر لك بإذن الله وما قاله ابن يسار الحكيم عين الصواب.
- ها قد نال من فطنتك بعد أن نلتِ أنتِ من يحيى في تدبير شؤوني.
- وأين أنا من وزير الأمير، ولكن فليعذرني مولاي...

أمسكت عن الكلام وأخذت تُقّبل يديه بإغراء ودلال، فقال لها:

- قولي فإني عذرتك.

حدقت في وجهه بعينيْن من برق وبصيرة:

- لقد ذّكركَ بما هو واجب ومُتاح لك وأنارَ ما هو خافٍ عليك ولكنه غفلَ عن ذكر ما يفوق حسن تدبيره في ضبط الأمر في خراسان.

سألها بحزم:

- وما الذي غفل عنه يا جارية؟
- لقد ثقفتَ أمور المشرق يا مولاي بحسن تدبيرك وقوة تأثيرك وشجاعة جيوشك، وما خراسان إلاّ طيّعةُ شيمتك، ولا خوف منها ومن الذين سئموا الفتنة وعواقبها، وما أنت بحاجة إليه الآن هو شد أزر أمير المؤمنين في مسعاه الحثيث، أي أن تكون في دار السلام لتنال الرضا من الرعية وتؤكد حضورك في البلاط ولياً للعهد في وجه عيسى الذي يواجهه أمير المؤمنين هناك الآن.
- أتركُ أعباء الراعي والرعية؟ فما لبثتُ أن عدتُ سالماً من آخر فتن هذا البلد فكيف أمضي إلى بغداد؟
- هي العبء الأكبر يا مولاي، فحجةُ عيسى شرعية ونافذة ولها تأثيرها بين الرعية وبين أصحابه وعمومته من الأمراء، وما وجودك في بلاط الخليفة لتكون إلى يمينه في مجلسه أميراً وولياً لعهده، إلاّ رسوخ دعواه وتسييره للأمر من بعده إليك، فليعذرني مولاي، فمكوثك هنا ما هو إلاّ منح عيسى المزيد من فُسحة التطلع والأمل.

حدق بها بصمتٍ قاسٍ للحظات، إلى أن نكّستْ هي رأسَها بعد أن شعرت

أنها أثارت سخطه بكلامها، ثم أمسك رأسها بيديه وجذبها إلى صدره بشيء من القوة:

- الويل لفطنتك.. كيف فاتت هذه إبن يسار الحكيم، فوالله ما قلتِ إلا الصواب...

قاطعته مُتحررةً منه بغنج:

- ولكن ثمة ما يزعجني في هذا يا مولاي.

سألها بحزم ولهفة:

- وما هو؟

- بُعْدكَ عني يا سيد أمري.

فضحك بإنشراح وجذبها إليه من جديد قائلاً:

- ويلي.. ويلي منك ومن دهائك.

كانت ليلتها برفقته تتلألأ بإنتصارها الثاني على الجارية فيها وعلى الحجاب، رغم ما أوصاها به من الصمت في حضور إبن يسار والحاشية.

إذ ها هي تشتدُ بأبهة العقل، وتسير بثبات نحو كامل فؤاده، بعد أن أخذ بسديد قولها وأخذها إلى سرير العشق الذي أتقنته وأتقنت أيضاً كيف تعرجُ به في لحظات إلى سماء النشوة ولذة الإمتلاك، إذ بمقدار وميض بصيرتها كان جسدها بسحره ورعشته وأريجه وأنّاته يذهب به إلى أعمق أعماق الفردوس، حيث المُدامُ والإستدامة وطول السفر في الشهقة شهقتها.

كانت تتدفق في دمه عذبة بإنتصارها، دافئة بأحضانه، تموج به، تتراقص فوقه، تهِبُ شَعْرَها لوجهه أثيرَ نشوة.

وتأتيه من حيث لا يحتسب، فكان خاضعاً بإمتياز لجبروت الفتنة التي كانت عندما تمتطيه تنبعث حشرجات النشوة من جسدها شعراً.

وبعد أن عاد من مشواره الليلي في جسدها، وإستلقتْ هي بجانبه وسكن لهاث العشق فيهما، مرّر يديه في شعرها قائلاً:

- أنت لا تدركين ظلمة البلاط وجحيم قسوته ودهائه يا جارية، آه لو كنت تعلمين لأدركتِ أن غضبي نابع من الخوف والخشية.

لم ترغب بمقاطعته بأسئلتها المعتادة، أرادت له أن يسهب في لحظات صفائه هذه التي لن تتكرر، لحظات يعترف بها أميرُ الأرض لجارية بخوفه وخشيته.

- إن عماد هذه الدولة وسر عزيمتها سنّة الدم وإفناء الذين يقفون في وجه سلطان بني العباس، إن أبي هو صاحب هذه السياسة التي أراد لها أن تشتد في طوْر التأسيس، وهذا ما أخشاه، الدم والقسوة مع ذوي القربى، وأن تذهب بنا الفتنة وبدولتنا، ولكني حين أذكر ما قام به أبي عندما تولى الخلافة إثر وفاة عمي أبو العباس أطمئن وأستكين لأنه حقاً كان وما يزال ولي العزم والأمر بإيمانه وبصيرته وصلابته

سألته بفضول:

- وما الذي فعله يا مولاي؟

التفت نحوها وضمّها إليه مبتسماً:

- حسناً.. فليكن السمر من نصيبي هذه الليلة.

ثم أزاحها بلطف، وحدّق بسقف المكان بصمت للحظات ثم قال:

- حينذاك كان عمري أحد عشر عاماً، وكان أبي يأخذني معه دون أخوتي في صولاته وجولاته ومعترك الخلافة لكي أنمو وأنضج في ظلال سياسته وحكمته.

في ذلك اليوم كنتُ معه داخل بلاطه في المدائن عندما علمتُ بترقب أبي لقدوم أبي مسلم الخراساني، الذي كنتُ أتحرق شوقاً لرؤيته لما له من دور عظيم في الدعوة والإعداد للثورة وبناء الدولة.

لم أكن أعلم لحداثة سني بما كان يدبره أبي له، إذ خلى البلاط من الحاشية بأمرٍ من أبي الذي كان ينتظر في عرشه أبي مسلم، طالباً مني التخفي وراء ستار العرش، وذلك ما أثار حيرتي، إلى أن دخل أبو مسلم بشموخ زاده هيبة سواد لباسه وعمامته، فرحّب به أبي بفتور دون أن ينهض من عرشه لإستقباله أو حتى أن يدعوه إلى الجلوس بجانبه كما درجتْ عليه العادة فيما سبق، فظلّ واقفاً بريبته وحيرته إلى أن شرع أبي في معاتبته قائلاً:

- أخبرني عن كتابك إلى أمير المؤمنين أبي العباس حين تنهاه عن الموات في الأرض. أردتَ أن تُعلمنا الدين؟

قال: ظننتُ أنه لا يحل لي فلما أمرني بأخذه أخذتُ بقوله.

قال الخليفة: أخبرني عن كتابك لنائبك بالري تقول فيه إذا قدم عليك عبد الله بن محمد فأشخصه إليّ. أما كان لي ما أخاطب به إلا عبد الله بن محمد؟

قال: إني وجدتُ الله يقول محمد في حق نبيّه وقال في حق عدوه (تبت يدا أبي لهب) فسمّى نبيه بإسمه وكنّى عدوه.

قال الخليفة: فأخبرني بتهاونك بنا حين قدمنا عليك وإستخفافك؟

قال: ما قصدتُ إلاّ إقامة الهيبة لأذل أعداءكم.

قال الخليفة: فأخبرني عن تقدمك إياي في الحج؟

قال: كرهتُ إجتماعنا على المياه فنضرُّ بالناس.

قال الخليفة: فأخبرني عن ستمئة ألف من المسلمين.

قتلتهم صبراً.

قال: لتستقيم دولتكم.

قال الخليفة: فلم أردت أن تذهب إلى خراسان مخالفاً معاصياً؟

قال: دخلك مني شيء فأردتُ المقام هناك وأكتب إليك.

قال الخليفة: فأخبرني عن نصلين أصبْتَهما من متاع عبد الله بن علي[1]؟"

فاستلّ أبو مسلم سيفه وناوله إياه قائلاً: هذا أحدهما.

هزّ أبي السيف وتفقده ثم وضعه أسفل العرش قائلاً له:

- "ما تقول فيمن سلَّ على مولاه سيفاً؟

قال: يُقتلُ به.

قال الخليفة: فقد سَلَلْتَهُ.

قال: ما سَلَلْتُه عليك بل لك. لا يدخلنَّ على نفسك فقدري أصغر من أن يبلغ ما ذكرتْ"

---

(1) عبد الله بن علي: عم المنصور الذي خرج عليه مطالباً بولاية العهد فأخضعه المنصور بأبي مسلم الخراساني وحبسه حتى مات.

فأمعن أبي في إذلاله وتأنيبه إلى أن ضاق صدر أبي مسلم فقال:

- "دع عنك هذا وأذكر صنيعتي معكم فما أخاف إلاّ الله تعالى".

فغضب أبي وقال:

- "يـا إبـن اللخنـاء فإنما كان ذلك بريح دولتنا ولو كانت أمَةٌ مكانك لفعلتْ أعظم مما فعلت".

- ثم صفّق بيديه وصاح بأعلى صوته:

- إليّ برأسه.

يومذاك، رأيتُ ستائر العرش تلد فرساناً ذوي بأس شديد أسوَدْ إنقضّوا عليه بسيوفهم فصاح قائلاً لأبي:

- إبقني لعدوك.

فقال أبي:

- "وأي عـدو أعـدى لي منك.. ألسـتَ الـذي بابعتنا على أن من خُرج علينا قتلته وأنت الخارج علينا فقد حكمنا عليك حكمك على نفسك".

ثم نهر أبي فرسانه:

- ويحكم.. إليّ برأسه.. إذبحوه.

قالوا يومها لأبـي الآن قد بـدأ حكمك يا أميـر المؤمنين، بمقتلِ أبي مسـلم الذي كنتُ أتحرق شوقاً لرؤيته، فإذا بي أراه مضرجاً بدمائه عند قدمي أبي.

أمسكَ عن الكلام متنهداً بحرارة ثم قال:

- هذا حال أبو مسـلم يا جارية فما قولك فيما سـيؤول إليه حال ابن عمي عيسى إذا إستمر في عناده وتمسكه بميثاق العهد.

كانت الخيزران مشـدوهة بما سـمعته منه، إذ أغرقها بهطول كلامه السـخي عليها فلم تقوَ على الكلام أمام سيله العارم:

- إنه العهد الذي إستمدّيناه من حقنا في إمامة المسلمين، حق قرابتنا لرسول الله محمد عليه السلام، فمن ذا الذي يقف في وجه الحق؟

إن أبا مسلم كان من كبار ثُقاتنا ودعاتنا حتى أطلق على نفسه لقب أمير آل محمد عندما أصبح والياً على خراسان، إلى أن أخذته العزّة بالإثم، متناسياً أصله

وخصمه أبو جعفر الـذي لم يكن ليتهاون مـع الذين يعاندون رغبتـه ويقفون في وجه دولته مهما كان قدرهم وحسن وعظيم صنيعهم معه.

كانت فاغرة الفاه على وشك الشهقة وهي تستمع إليه مسهباً في تاريخ أبيه الحافل بالسيف، أبـوه المنصور الذي قالـت أمه الجاريـة البربرية "سـلاّمة" حين حبلتْ به بعـد أن رأته فـي حلمها: "رأيـت كأنّ أسـداً خرج منـي وزأر، وضرب بذيله الأرض فأقبلت عليه الأسود من كل ناحية فكلما إنتهى إليه أسد سجد".

وها هي الخيزران على وشـك اللبؤة في ليل القصـر تجلس في حضن إبن الأسـد شـبلها هي الذي على سـينقض حقه وحق بنيه من بعده، فكيـف بها هي التي بإتقادها تسعى إلى شأن صغير مقارنة بالسـاعين وراء الحكم والخلافة، شيٌ صغيرٌ هو تحررها... حريتها لا أقل ولا أكثر.

-3-

وأما في بغداد فقد كان المنصـور متربعاً في أبهة قصر الخلـد الذي بناه قباباً زاهية وأعمـدة مُزخرفة بالصور والرسـوم، وأبواباً مـن الذهب ومفاتيـح من الفضة والجـاه، كان خُلـداً بحـق إتخـذ فيه المنصـور عرشـاً عظيماً مـن الرخـام وقضبان الذهب، تُحيطـه فُرُشٌ من الديباج الزاهي بألوانه البراقة، وبسـطٌ موشّـاة بأبيات من الشـعر تمدح الخليفة، وكراسـي مُرصّعة باللؤلؤ يُسـبّح فيها الجالسـون سلطانه هو الذي كان يفوقهم بالجلوس في قبة مفروشة بأفخر أنواع الحرير الموشّى بالذهب.

وكان إتّقاده في مجلسـه يشـي بعظمة ما يختلج في صدره مـن عواقب نيّته بإيلاء العهد لإبنه المهدي، وكيفية التعامل مع عيسى إبن أخيه موسى.

إلتفت إلى وزيره أبي أيوب بعد أن ضاق ذرعه من عُسر الأمر قائلاً له:

- دمه في عنقي، ويداي مقيدتان بالدم فماذا أصنع؟

إحتار الوزير في إجابته بعد أن إعتاد على إستبداد المنصور في الرأي وعدم أخذه للمشورة من حاشيته إلاّ ما ندر فقال مضطرباً:

- ثمة خشية من تطاوله بحجّته أمام الرعية يا أمير المؤمنين إثر إشهاره لحقه بقتله للشاعر أبي نخيلة، فلم يأبه بشفاعة الرحم والعهد فأتِ به وأنّبه تأنيباً

شديداً وخذها حجّة عليه.

رد عليه المنصور بصرامة:

- وماذا أفعل بعد؟! أأخضع لتشبثه بما أثنيه عنه لا والله لا أفعل، لأعزلنّه عن البصرة ثم أحبسه في مجلسي هذا حتى يستكين وتنجلي عنه ضلالته.

لم يُعقّب الوزير بل نكّس رأسه أمام هيبة المنصور وسخطه من إبن أخيه، إلى أن تقدم حاجبه الربيع بن يونس قائلاً بخفرٍ وإجلال:

- أيأذن لي مولاي أمير المؤمنين.

فأومأ له المنصور بتؤدة وعظمة، فقال الحاجب:

- أرى أن ندرأ حجته عن الرعية بذوْدنا عن حجة إبن مولانا الأمير المهدي بسوْق الأدلة والبراهين على المنابر وفي الأسواق والمجالس، حتى لا يأخذ عيسى الرعية بشرع ميثاقه، فما بلاء أميرنا المهدي في خراسان ودفاعه عن بلاد المسلمين وإعلاء كلمة الدين إلاّ برهان جليٌ جلّل محبة الرعية له وإلتفافهم حوله.

قال المنصور بعد لحظات من الصمت والشرود في فكره:

- أشهدُ الله أمامكم أني قد عصمتُ يدي عن أذية رحمي عسى أن يفتح الله سبحانه وتعالى عليّ بخاتمة لغيْ إبن أخي مجنباً إياي لوعة الدماء.

فلم يدخر المنصور جهداً ولا حيلة إلا وسلّطها على عيسى بن موسى، لكي يتخلّى هذا الأخير عن حقه في ولاية العهد للمهدي، فكاتَبَهُ كما هو دأبه عندما يشرع بالإعداد لمحق من يقف في طريق مشيئته، موضحاً لعيسى أن إيلاء العهد للمهدي مكفولٌ بسنّةِ رسول الله ومحبة الرعية ورعاية الخالق سبحانه وتعالى، فلم يُجبه عيسى سوى تأكيداً على حقه الراسخ بالولاية من بعده، فغضب المنصور غضباً شديداً أسفر عنه عزله لعيسى عن ولاية البصرة ومطالبته له بالقدوم إلى بلاطه في بغداد بحجة أنه يريده قريباً منه في عرشه، ففعل عيسى مُتحصناً بعهد المنصور وقسمه له بألاّ يمسّه أو يؤذيه.

إذ تجنّب المنصور الوقوع في مغبّة الدم مرة أخرى، كما فعل حين قضى

على محمد النفس الزكية حفيد علي بن أبي طالب، فعيسى بالنهاية كان إبن أخيه، ولم يحدث أن قتل المنصور أميراً عباسياً، فعندما ثار عليه عمه عبد الله بن علي قام بإخضاعه ثم حبسه ولم يقتله صوناً منه لحق الرحم والقرابة والبيت العباسي.

ومع تصاعد حدة هذه الأزمة وصل المهدي إلى بغداد بتأثير بالغ من الخيزران، لتزداد حدة الترهيب والضغط على عيسى، حيث أخذت الأمور تنحو منحى جديداً تمثّل بتهميش المنصور لعيسى في بلاطه، وإحلال المهدي مكانه على يمينه في مجلسه، كما أنه ضيّق الخناق عليه من خلال إبعاده عن الحاشية، فتجنّب الأمراء والقادة مخالطته خوفاً من سخط المنصور عليهم.

وبحضور المهدي المؤثر سعى المنصور إلى الإنتهاء بسرعة من هذا الأمر العصيب، خوفاً من أن يلجأ عيسى للرعية البعيدة كل البعد عن خفايا البلاط، والمتمسكة بشدة بالثوابت والمواثيق الشرعية التي يتحجّج بها عيسى، لهذا لجأ المنصور إلى حيلته الأخيرة الخالية من أثر الدماء، حيث قام بإختطاف موسى الإبن الأكبر لعيسى وحبسه لديه في قصره، ثم جاء بعيسى بعد عدة أيام إحترق فيها قلب هذا الأخير ملتاعاً مفجوعاً على مصير إبنه المجهول، فقال له المنصور أمام حاشية مُصغّرة من مقربيه وثقاته مهدداً متوعداً:

- والله ما كان لي قصدٌ في الدم يا ابن أخي ولكنك طغيت متمسكاً بما ليس من حقك بعد أن أتيتك بالحسنى وآية المهدي الجلية.

تملك الهلع عيسى بعد أن شعر بدنو أجله وأجل إبنه، مدركاً بأن المنصور لن يرجع عن عزمه في الإنتقام منه في سبيل سلطانه وبنيه فقال موشكاً على البكاء:

- "يا أمير المؤمنين ما ظننتُ أن الأمر يبلغُ منك هذا كله فمرُ بالكف عنه فإني لم أكن لأرجع إلى أهلي وقد قُتِل بسبب هذا الأمر عبدٌ من عبيدي فكيف بإبني. فها أنا أُشهدك أن نسائي طوالق ومماليكي أحرار وما أملك في سبيل الله تصرف في ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين وهذه يدي بالبيعة للمهدي".

وكان هـذا بمثابة تنـازل صريح عن ولاية العهـد، فتهلّلت أسـارير المنصور وتنفس الصعداء بعد ان تجنّبَ دم إبن أخيه قائلاً له بإنشراح:

- "إسلُ عنها تنل منها عوضاً في الدنيا وتأمن تبعتها في الآخرة".

فأعلن عيسـى عن تنازله مقابـل أن تكون له ولايـة العهد من بعـد المهدي بالإضافة إلى منحه القطائع والمال قائلاً بمرارة:

- "إنّـي قـد سـلّمتُ ولايـة العهـد محمـد إبـن أميـر المؤمنيـن وقدمتـه على نفسي..."

فقاطعـه إبن يسـار وزير المهـدي بحنكتـه ولباقته قائـلاً له بتهذيـب بعد أن أدرك ما يكتنف الميثاق الجديد من غموض:

- "ليس هكذا أعزَ الله الأمير ولكن قل ذلك بحقه وصدقه وأخبر بما رغبتْ فأعطيت".

فأجاب عيسى بإرتباك:

- "نعـم بعـثُ نصيبـي من تقدمة ولايـة العهد من عبد الله أمير المؤمنين لإبنه محمـد المهـدي بعشـرة ألاف درهـم وثلاثمائة ألف بين ولدي وسـبعمائة ألـف لزوجـي أم موسـى بطيـب نفس عني وحـبّ لتصييّرها إليه لأنه أولى بها وأحق وأقوى عليها وعلى القيام بها".

قُضيَ الأمر..

وخُتم الميثاق وشهد عليه الشـهود وإنتصر المنصور مرة أخرى، ولكن هذه المرة في قصر خلده بدون دماء، وعلى مرأى ومسمع ولده المهدي الذي أصبح ولياً لعهده.

عانـق المنصور ولـده بحـرارة ودمع بعـد أن خرج عيسـى من البـلاط يجرّ وراءه أذيال هزيمته وخذلانه:

- بارك الله فيك يا أمير المؤمنين وبولد العباس من بعدك.

في هـذه اللحظـة لم يكـن المهدي فـي أحضـان أبيه بـل مُحلّقاً في سـماء سـلطانه، بعمره الغضّ هو إبن الخمسـة والعشـرين عاماً أصبح ولياً لعهد الحكم والدين والدولة، فكيف به وبحاله عندما سيغدو بعد قليل أميراً للمؤمنين.

وأما ما زاد من بهجته وسعادته قول المنصور له في أجواء العهد والإنتصار:

- يتوجب على ولي العهد يا ولدي أن يكون قريباً من أمير المؤمنين.
- سمعاً وطاعة يا مولاي.

ابتسم المنصور قائلاً:

- وولاية العهد يجب أن تكون في مدينة أبيّة تليق بسيدها.
- وما أطيب المقام في دار السلام وبغداد أمير المؤمنين.

ضحك المنصور قائلاً بمحبة وسعادة:

- لا والله بل تسكن مدينتك أنت ومعك حاشيتك ورعيتك، إذ هي الرصافة يا ولي عهدي، الرصافة قد بينتها إليك لتكون أميرها وواليها.

هكذا في غمضة دهره الباهي أهداه مدينة جديدة بسكانها لا يفوقها في العمران سوى أمها بغداد، فكان منتشياً بإغداق أبيه عليه من الحكم حتى مكان الحكم فانكبَّ على يديه بالتقبيل:

- ويحي أكل هذا لي؟
- بل وأكثر أيها المهدي محمد، أكثر يا أمير المؤمنين.

-4-

لو أنها كانت في ذلك الوقت في حجاب المنصور حين إنتزع العهد للمهدي من براثن عيسى، لإنبعثت منه عاصفة راقصة تجود بالغناء فرحاً وسعادة بمكانة سيدها الجديدة، فهي التي كانت قبل قليل مجرد جارية لدى والي خراسان، أصبحت الآن محظية فؤاد ولي العهد الذي سيصبح أمير المؤمنين بعد قليل.

إذ هذا ما أحسّت به الخيزران عندما جاء بها المهدي إلى الرصافة مدينته الجديدة، رصافة ولي العهد التي دخلتها محظيته وجاريته الأحلى والأجمل بموكبٍ من جَمالها وولديْها الصغيرين موسى وهارون وجنين آخر كان ينمو في أحشائها، بالإضافة إلى صاحبة حريرها الحارق خلوب.

فكل ما حولها كان جللاً وذا شأن عظيم، بعد أن أسعفها القدر بخليفة أصاب الزمان بسهم عزيمته وأرداه بين قدميْ سلطانه ذليلاً، مُنصّباً ولده ولياً لعهده وأميراً على العباسيين والمسلمين من بعده.

هي الخيزران التي دفعت من يملكها بيمينه إلى أوْج الأمر، قالت له أن إذهب فالسماء قد شرّعتْ أبوابها في سبيل من يدعو إليك وإلى أمرك، إذهب فأبوك الظهر والسند وأمير البلد فمن يجرؤ عليه وعلى سُؤدده.

في قصر الذهب كانت أسمى أمانيها أن ترى المنصور في مجلس ولده المهدي من وراء حجاب، وأن ينال ولداها البهيان من حظوة جدهما الخليفة، فهل كان مقدراً لها أن تكون قريبة إلى هذه الدرجة من جوْهرة السلطان وأصله؟

أن يفصلها حجاب أسود رقيق عن أولي الأمر وأصحاب الحق؟ّ وأن تكون أم الأميريْن اللذيْن أصبح والدهما ولياً للعهد؟

في خضم هذه الأسئلة التي راودتها داخل قصر الذهب أعزّها المهدي بجناح صغير لها ولولديْها، ليثبت مع مرور الوقت عشقه لها ووقوعه في حبائل فطنتها وبلاغة جسدها، وإكتشفت هي أن واقع الحال في الرصافة القريبة من بغداد يختلف عن القصر الزينبدي الجاثم فوق أرض المشرق بعيداً عن أعين الخليفة، حيث إشتد حذر المهدي في رعايته لمجالس السهر والسمر في بلاطه، بسبب ما أخذ يُلقيه أبوه على عاتقه من أعباء الحكم وأصوله رويداً رويداً، إذ يوشك أن يصبح أميراً للمؤمنين.

في قصرها الجديد الذي كان آية من الزخرف والعمران، كانت الخيزران تعبق بثورانها وتجلّى جلال قدرها لدى المهدي رغم أن جناح الحريم كان أكبر وأوسع من ذلك المُشيّد في القصر الزينبدي، إذ رأت الخيزران فيه العشرات من الجواري السابحات في أسرّتهن وزينتهن، فبهاء القصر لا يكتمل إلاّ بالجواري والهدايا والسبايا في ميادين الديار العباسية، وكانت هي جزءاً منهن وإنطلقت من أجوائهن إلى حظوة المهدي، متفوقة على أجمل الجميلات بذكائها ودهائها.

كذلك لم يؤثر على هيام المهدي بها إتيانه لزوجته العباسية ريطه بنت أبي العباس السفاح نزولاً عند رغبة أبيه، ولكي لا يشعر المنصور ايضاً بالعشق

المتأجج الذي يُحيط به ولده المهدي الخيزران.

حيث لم تكن ريطه بالنهاية سوى أميرة عباسية حرة لا يدفعها إلى نيل رضا زوجها أيما شيء، فهي منذ أن خُلقت كانت وما زالت صاحبة حظوة وتاثير ما دامت أميرة وإبنة أول خلفاء الدولة العباسية، وما دام المهدي ولي العهد زوجها على سنة الله ورسوله، لذلك لم تَسْعَ إلى أسره بحضورها لا لأنها أميرة فقط، بل لأن ثمة خيزران تفوقها حسناً وذكاءاً وطموحاً وأحلاماً وعشقاً أصابت به فؤاد المهدي الذي أخذت لياليه برفقتها تتّقدُ أكثر بالشغف والإفتنان، وقسوة فصاحتها وجزيل جمالها.

حيث قال لها ولي العهد في ليلة تتدلّى أبهةً في سماء قصر الذهب:

- توسّلتِ فؤادي يا جارية في غفلة مني.. فانظري فيما ترغبين.
- لا أرغب إلاّ بالمزيد من فؤادك يا مولاي.
- جُلّه بين يديك يا جارية.
- فهو إذن دون العطايا والهدايا والذهب.
- حسناً.. قولي لي بحق من اين لك كل هذا السحر يا جارية؟

حدقتْ في وجهه بإثمد عينيْها النجمتيْن ثم قالت بجذل:

- من فضل مولاي عليّ وعلى ولديْ.

إنتفض فجأة.. إذ تذكر أنه أصاب منها ولديْن فسألها بدهشة:

- ويحي.. وكيف هما؟
- بأحسن حال وأفضل مقام بعد أن نالت أمهما من رحابة هذا القصر يا مولاي.

سألها مداعباً:

- وأما أبوهما يا جارية؟

باغتها بسؤاله فأجبته بغنج:

- ومن أين لهما ما هما فيه سوى من ولي عهد جدهما أمير المؤمنين، آه كم أود يا سيد أمري لو يكبر، في غفلة عمري حتى يُبصرا سمو أبيهما ولي العهد ومولاي وأميري.

ضحك قائلاً:

- يالحلاوة حديثك يا جاريتي البهية.

راقص مشاعرها بكلامه العذب ثم إنهمر عليها قُبلاً:

- قولي لي حلماً من أحلامك.. فُضّي غموضك أمامي؟

- ولكن ها أنا أمامك يا مولاي!

- وكيف هذا؟!

- أنا حلمك..

وأنا..

حقيقة..

حلمي...

* * *

الفصل الحادي عشر:

ليل القبيلة الأخير

هي الليلة الأخيرة..

أقضيها في خيمة رقية القلب وأنثى الصحراء، ونجمة الأنهد المتالقة في سمائه،

أحبُّ معلمتي رقية، ولكني بقدر الحب الذي أُكنّه لها أحمل أيضاً في هاوية نفسي الضغينة ربما، أو الغيرة لأنها ستكون خيمته الأخيرة التي سيأوي إليها بنهاية مآله في دروب القرن الهجري الثاني، هوالذي بمثالبه ومآثره الأصيلة كان بإمكانه أن يغدو قائداً أو صاحب حظوة وجاه في بلاط أمير أو قصر خليفة، ولكنه آثر النأي بنفسه عما تزدحم به الأرض التي إنشقت عن سادة بعثروني فيما أنا فيه الآن من تشرد ومعارك قادمة لا أعلم ماذا سيكون مثواي الأخير فيها.

الليل..

ليلة الرحيل.. والهجرة، ليلة منح النفس إلى سادة الأمر ومُدبري شؤون الرعية، بعد أن أصبحتُ على قدر مما وسَمَتْني به الصحراء وشماً على جبيني الحزين، وشمٌ ساطعٌ ببلاغة الإرادة وفصاحة الحاجة والتوق إلى مصير قد أنفذُ من خلاله نحو سُموّي وإنعتاقي من بالغ جرحي وفادح دهري هذا.

ويحي..

ألم يكن بإمكاني الخنوع، لما أنا فيه من صحراء آسرة، وأفق منحني فيه الأنهد حريتي وإرادتي؟

ألستُ قادرة على العودة الآن إلى أحضان أمي والبيت العتيق؟

هل ينتابني التردد في هذا الليل.. الخوف.. الشك في عزيمتي وعزمي، إثر هوْل ما قاله لي الأنهد عما ينتظرني في قصور سادة الأمر؟

فمن أكون أنا المُهرَةُ الغرّةُ في وجه الخفقان العظيم للرايات السود.
من أكون في مدارات التاريخ الهجري؟
مجرد أنثى ممشوقة الجمال والقوام لا أقل ولا أكثر.
أنثى أنضجها مصيرها لتسدَّ رمق جرحها بفتات الزمن المعلوم على أيدي رقية والأنهد وجدة القبيلة، أكان هذا كافياً لأثور على ضعفي وتلك الجارية الفاتنة التي ترقص في داخلي على نيران الفتنة والشهوة؟
والله لا أعلم ولا أدري!
إذ كل ما أشعرُ به الآن هي نكهة الإنعتاق، حارقة ولكنها لذيذة، مُرَّة ولكنها مُسكِرة، تقودني بإصرار إلى المشرق، إلي غيٍّ يؤدي بي إلى ثمة جدوى.. جدواي أنا.
فراشةٌ لن أزلزل الأرض بل سأثور، سأحترق لأنير درب الأنثى بي، أحترق لأتجدد إمرأة قادرة على النشوء وخلق حريتي وتأثيث مصيري بيدي.
في منتصف القرن الهجري الثاني، في شمسه الساطعة أمضي نحوالمزيد من قيودي وأغلال تيهي، أنا من أوّلْتُ الجرح والضعف والمذلة، أوّلْتُ طفولتي تمرداً وشرارا.
أعلمُ أن لا زمان لي، أعلم أني مجرد جارية لا أصل لها ولا فصل في متن التاريخ العربي، وفي إزدحام الزمان بالفرسان والسلطان الذي تتجاذبه سيوف وأيدي وألسنة سادة الأمر والبأس، أعلم أني لن اقلب الدنيا على رؤوسهم ولكني أعلم أن مسّاً قد أصابني في صميم فؤادي، مسّاً من نورٍ إلهي أنار لي جبال التمرد في داخلي ودروب آمالي وأحلامي الوردية القادمة.
إذ أنا الآن أخرى..
إمرأةٌ من تشوّفٍ وبصيرة وألق في خيمة رقية التي كانت تلحظ وتلمس بإندهاش إنبثاقي من ثياب ضعفي شجرة سامقة.
إذ أغدقت علي في الليلة الأخيرة بالنصائح والوصايا والتعاليم، كانت تفضُّ الحكايات بقسوة لتزجّني بها، لتريني فداحتها وآلامها المبرحة، مُوحية لي بمرارة الدرب لكي أتّعظ وأرتد، فما زال أمامي فرصة البقاء حرة كريمة أو العودة إلى

أحضان أمي، ولكني كنت بلهفة أطالبها بالمزيد من الحكايا والأحاديث فحدثتني بما أثار خوفي وحيرتي، عن الجواري وكيف أن لهنّ سوقاً كاملة تُسمّى سوق الرقّ أو النخاسة تُباع فيها وتُشترى الجواري، والغلمان الذين تفاجأتُ أيضاً بأنهم ينافسون النساء في جمالهم وخصائصهم.

قالت بأن الجواري بتوفرن إما سبايا أو هدايا أو عبر البيع والشراء في أسواق المدن الكبرى مثل البصرة والكوفة ودمشق، وأن الجارية منهن يتم تثمينها وتقديرها من خلال عدة مزايا أهمها جمالها وحسن صوتها ومفاتن جسدها ثم فصاحتها وفطنتها، والجواري أصناف وأنواع كالبضاعة، كالبخور والعطور والحرير والعقيق والذهب، فالجارية الرومية خصالها في قوتها فهي تصلح للأشغال اليدوية وأعمال البيت، وأما البربرية فللمتعة واللذة لما تتمتّع به من جسد عامر بالفتنة وحسن الصوت وغنجه، والجارية الأرمينية لئيمة غادرة وسارقة ونادراً ما تُباع وتُشترى لتذهب هديةً لا يطول بها المقام في بيت سيدها، وأما الفارسية فإنها تُؤخذ للإنجاب لما تتوفرّ عليه من جمال وذكاء وقوة جسد وهي أوفر الجواري حظاً في الدلال والعطاء، وأما الهندية فصاحبة خبرة ودراية في اموالجسد وحاجاته ولكن عيْبها الأوحد يكمن في موتها المبكر المفاجئ وهي صغيرة السن ولهذا فإنها نادراً ما تُقْتَنى.

سألتها بلهفة:

- والعربية؟

أجابت بإبتسامة ماكرة:

- العربية هي سيدة الجواري وأغلاهن ثمناً وأعلاهن قدراً ومقاماً لدى سيدها وولي أمرها، ولكن توفرها شحيح ونادر في الأسواق.

كنتُ مأخوذة بحديثها، اضحك تارة وأوشك على البكاء تارة أخرى، فما كانت تقوله وتكشفه لي رقية هو واقع بديهي، ومجرياته وأحداثه مألوفة ومكفولة ومدعومة سلفاً بما جرت عليه العادة في أمور الدنيا، وما مفاجأتي وذهولي من حديثها إلاّ دليل على سذاجتي وجهلي وعدم درايتي بهذا الواقع المخيف للوهلة الأولى، لأنني شعرتُ أن ما سأقحمُ نفسي به في قادم الأيام سيحتلّني ويجعلني

معتادة على الحياة هكذا دون أن أفاجأ لأنني سأسكن في بيت قذفته رقية في وجهي بيتاً للحريم.

أسهبت في حديثها أكثر قائلة:

- ثمة أيضاً الغلامَيات.

سألتها ضاحكة:

- ومن هم؟

- بل من هن؟!

فضحكت بإثارة إلى أن أسكتتني بحديثها عنهن:

- هن شبيهات الغلمان والرجال، ويسلكن مسالكهم، وهذا ما يجعل الجارية منهن أو الغلامية شهية أكثر في عين سيدها، ولكنهن لسن متوفرات بكثرة كالجواري اللواتي يعملن في الأسواق والبيوت والقصور حريماً لمالكي أمرهن.

أدهشتني درايتها الواسعة في شؤون الجواري فسألتها من أين لها كل هذه المعرفة بأمورهن فأجابت بأنها تجمع أخبارهن من أحاديث الأنهد ورجال القبيلة الذين لطالما صالوا وجالوا خلل الديار الإسلامية، وهكذا كانت تُنّمي خبرتها ومعرفتها لا بالجواري فقط بل بكل ما هي بحاجة إليه من معرفة وعلم بشؤون العباد ودنياهم، فلو كنتُ على ضآلة من علمها وحسن درايتها فقط، لعرفتُ من قبل ماذا كانت تقصد بقولها عندما قالت لي بأنني سأصبح أمَةً مُلْك يمين من يشتريها ويصبح مولاها.

نعم.. لقد أصبحتُ سبية والسبيّة جارية والجارية أمة والأمَة تُباع بثمن والثمن يُحدده راعيها ثم جمالها، وجمالها يُقدّر بالسوق والسوق هي سوق النخاسة أعزّكم الله وعزّز من حريتكم.

توقفت رقية بعد هذا الحديث الطويل الشائق والشقي قائلة لي:

- لقد أرهقتني يا صغيرتي، ألا تسأمين من الأسئلة؟

ثم نهضت إلى زاوية الخيمة وإنهمكتْ في إخراج صندوق صغير من ثنايا متاعها، إلى ان عادت به ووضعته أمامي:

- إفتحيه.

فتحتهُ بلهفة وفضول، فإذا هو يحتوي على حليّ نفيسة وجواهر برّاقة تأخذ الأنفاس والأبصار.

تفحصتُ محتوياته بإثارة وهي تنظر إليّ بجذل وسرور، ثم قلتُ لها بخفر:

- لا حاجة لي بشيء من هذه الحلي.. تكفيني سُبحة الجدة.

وكشفتُ لها عن جيدي، فرأت السُبحة المتلألئة بالعقيق واللؤلؤ وقالت مستغربة:

- ومتى أعطتك الجدة هذه السبحة؟!

- حين زرتها برفقتك في خيمتها.

أسهمتْ بالسبحة، كما لو أنها رأت شيئاً يخفق ويلتمع في حبّاتها ثم قالت بخفوت بعد لحظات من الصمت:

- ألن تأخذي من هذا الصندوق ما يذكرك بي؟

- ذكراكِ في القلب يا معلمتي، وفي فصاحتي التي إستمدّيتها منك.

لم تُجب، بل أخذتْ تُقلّب في محتويات الصندوق إلى أن أخرجت حجراً صغيراً أسود قُدَّ من ليلة دهماء:

- خذي هذا إذن، إنه حجر إثمد تدقّينه فيصبح كحلاً وبصيرةً لعينيك الساحرتين.

سألتها بحماسة:

- وكيف هذا؟

دنت مني قليلاً إيذاناً منها بالعودة إلى ما تبقى لنا من أحاديث الليل:

- قالت لي الجدة ان أحجار الإثمد الصغيرة المتناثرة في بحر الصحراء كانت قد سقطت من أيدي الحور العين اللواتي كن يتكحلن به في الجنة ليزيدهن بهاءاً وعفة وجمالاً..

قاطعتها بلهفة سؤالي:

- وأما البصيرة؟!

- تلك قصة أخرى، حيث كان في قديم العرب وسالفه أقوام من أثر عاد

وثمود، ومنهم قبيلتا جديس وطسم، وكانت الغلبة في غابر تلك الأيام لملك طسم على جديس، فكان مُستبداً قاسياً عليهم حتى أنه كان يدخل على الفتاة الجديسية البِكْر من قبل أن يدخل عليها زوجها في ليلة عرسها، ولما إشتد البلاء على جديس ثاروا على طسم وقضوا عليهم إلا أميراً منهم قد نجا ولجأ إلى ملك اليمن وسيد ذلك الزمان "حسان تبع"، فأغاثه وأجاره في الوقت الذي كانت فيه قبيلة جديس تعتز وتفتخر بين سائر العرب بإبنتها التي كات تُكنّى بزرقاء اليمامة لما كانت تتمتع به من بصيرة ثاقبة وبعد نظر خارق، فكانت ترى البعيد وما يبعد عن قبيلتها مسافة ثلاثة ايام من المسير، فلم يخشَ قومها من عواقب ثورتهم إلى أن لجأ حسان إلى حيلة ماكرة تنكّر فيها جنوده بأوراق وأغصان الأشجار، وهم في طريقهم للقضاء على ثورة جديس، وعندما إقتربوا من مشارفها أبصرتهم زرقاء اليمامة، فحذّرت قومها قائلة لهم: إني رأيتُ الأشجار تجري إلينا فاستعدوا وتجهزوا.

ولكن قومها سخروا منها حتى غافلهم ملك اليمن وقضى عليهم وإنتقم من زرقاء اليمامة رمز عزتهم ومنعتهم بأن إقتلع عينيْها ليكتشف سرّ قوتها وسبب بصيرتها الثاقبة، فعثر على ما أدهشه.

أمسكتْ فجأة عن الحديث كعادتها في إستثارة من يستمع إليها إلى أن سألتها بجزع ودهشة:

- وماذا بعد.. ماذا وجد؟!

أمسكت الحجر الأسود بيدها ثم قالت بحزم وكبرياء:

- لقد وجد عروق عينيْها محشوة بالإثمد الذي عرفت العرب فيما بعد بأنه سرّ زرقاء اليمامة، وبأن هذا السواد القاتم قادر على كشف الدرب والبصيرة.

ثم قامت بلفّ الحجر بمنديل حريري أبيض دون أن تُعير إنتباهاً لدهشتي من قيمة الإثمد الخفية ومصير زرقاء اليمامة البهية ثم قالت بمرارة:

- خذيه فما أشد حاجتك إلى البصيرة في الأيام القادمة يا صغيرتي.

-2-

في منتصف ليلتي الأخيرة في القبيلة، تركتني رقية في أثر قصصها علي وخلدتْ إلى النوم لكي تصحو باكراً على مساعدتي في توضيب متاعي ووداعي كما قالت.

تركتني لتعود إليّ تلك الليلة الدامية التي قضيتها في مخزن الجيش العباسي في صنعاء.

إذ هناك رأيتُ الرايات السوداء ولمستُ دموعي بها، ولحستُ أسنّة الرماح وذبالات السيوف التي لم ترتوِ بعد من الدماء. كانت ليلة الرجفة والخوف والإنكسار وعويل أمي الذي سبّبه أولئك الذين أمضي إليهم الآن بإصرار.

كانت العربة تموج بي كسفينة في ذروة عاصفة بحرية هوْجاء يتقاذفها الموج، وأنا مقيّدة في داخلها بكُومة أشواك القدر الحادة التي أدمتني لأغرق في بحر الدم والدموع، فمن اين أتت العربة بتلك السرعة الخارقة والخاطفة في غفلة أهل بلدتي وجنوب جنان الله، في غفلة من عمري اليانع وخوف أمي وخنوعها المتشبّث بها صمتاً وسكينة.

في المخزن ألقوني بضاعة سلطانية وتجارة للمتعة والزهو، الآن أرى..

الآن أبصرُ بالجرح والإثمد والإصرار والإنبعاث، الآن أسمع لَهْوَهم في تلك الليلة، وهم يتسامرون بما صنعوه من غزوة سريعة لم يخرجوا منها بالخوارج بل بي أنا التي تعثرتُ بهم وهم الذين سبوني.

كنت بجلجلة ضحكهم أزداد خوفاً وأحشر نفسي أكثر في طيات الرايات السود، لكي لا يروني حين تأخذهم نشوة نصرهم ويدخلوا عليّ وبي بسيوفهم ورماحهم.

إذ أحطتُ نفسي بمعوذات أمي، وتلوتُ بهمس خائف ما لقّنتني إياه مما تيسّر لها من آيات الذكر الحكيم، فتلوتها لتحرسني من القيامة المفاجئة التي زلزلت أرضي وسلبت أحلامي وقطعت علي طريقي أنا الطفلة الذاهبة لإطعام أخي في حقل القمح.

فهل أعود؟

بعد كل ما حدث، وكل ما تعلمته وأدركته في الصحراء، هل أعود إلى أمي مكسورة الجناح لألوذ بخنوعها وقنوعها؟

كلا.. أبداً..

بل سأمضي إلى الألم، إلى المزيد منه، والذي لن يشتد بطوله، إذ أرى في هذا الليل وأُبصرُ ما ينتظرني خلف الكثبان من نور.. ألقيتُ نظراتي الحانية على رقية، رأيتها حسناء نائمة بدعة وأمان، لا شيء يقلقها.. لا خوف عليها.. لا حزن يخنقها.

نائمة أميرة الصحراء بسواد يحرسها وقلب يدفئها بحب الأنهد، هي رقية الفؤاد لم تبُحْ لي بعشقها له، بل أوحت به أن إبتعدي عنه يا صغيرة فهو ليس لك، هو أميري وفارسي وسيد قبيلتي، هو الذي يرويني في نهاية عطش العشق ومطافه الأخير، هو الذي يسكنني وأسكنُ إليه كما يراود الليل النهار والنهار الليل.

تحبه رقية، تعبقُ به هو الذي دثّرني بعباءته أمناً وسلاماً وإنبثاق غرام، ومنحني وأنا خلفه على متن فرسه إيقاع الأنوثة والحياة، وجعلني أؤمن أن ثمة ما يُعاش بها، سبب نحيا من أجله ونضحي في سبيله.

كان الأنهد سيد قومه رغم انه يمقتُ وينكر هذا عليه، إذ كانوا يحبونه دون أن يخشوه، ويبجلونه دون أن يقدسوه، ويسيرون خلفه دون أن يكونوا عبيداً له، هكذا تفتحتُ عليه وعلى قبيلته الصغيرة التي إستطاعت أن تستمر بالبقاء على قيد الحياة والتاريخ بسبب بعدها الجارف في أعمق أعماق الصحراء.

إذ قال لي الأنهد يوماً بعدما سألته عن سبب بقائهم هنا وعدم عثور العباسيين او من سبقهم عليهم:

- ومن يجرؤ على التوغل في أعماق الصحراء المهجورة حيث لا حياة ولا أنس ولا جان؟!

قال لي بأن هذا المكان الذي يقيمون فيه ليس ثابتاً ودائماً، فالصحراء موطنهم الأكبر ولكنهم يغيّرون أماكن سكناهم سعياً وراء الأمن والكلأ والماء.

كانت صحراؤهم قاحلة ماحلة خالية من كل شيء سوى منهم ومن

إصرارهم على البقاء أحراراً فمن يقوى على البحث عنهم فيها؟

لذلك كانوا آمنين ساكنين إلى معشوقتهم الكبرى الصحراء التي منحتني أنا أيضاً حبها بعد بضعة أيام من الخوف والذعر، فأخضعتْ مواطن ضعفي وأزالت آثار بلاد الجنوب المحفورة في دمي، آثار الخضوع مواعظ الركوع أمام مصائب الدهر وويلاته.

لم يسأم في إحتفائه الأخير ليلُ الصحراء من زجّي في مخزن الجيش العباسي، حتى أُحدق في محتوياته بعينيْن من نور وبصيرة، ولأُدقق في أركانه وزواياه، ولأبحث فيه عني أنا الصغيرة المنكسرة، إذ أتلمسني وأتحسّسني، وأحتضن الجارية المرتجفة من قسوة زمانها عليها، أُقبّلُ جمالها الذي بات بضاعة تُباع وتُشترى ثم أصرخُ في وجهها أن قومي.. إنتفضي.. إحرقي ثياب السبي وتعالي معي إلى الصحراء لتكبري، لتنضجي في نجمة.. في لحظة.. في خيمة، لتبزغي من جرحك قصيدة تحدٍ وعزمٍ ونورٍ تُلقينها على أمك وجنوب الأرض وسادة الأمر، وامتشقي راية سوداء لتسودي بل إرْتَديها، إرتَديها خفقانها وسطوة سلطانها لتكوني بلقيس ما شئتِ.

-3-

طرد ليلي الأخير النوم من عينيْ، ليعدّ لي حفل وداع حافل بالذكريات وإشتعال أخير في سدوله الناعمة، ألقيتُ نظرة أخرى على رقية النائمة، ثم نهضتُ بهدوء من فراشي، وإرتديتُ عباءة الأنهد وبرقعي، ثم خرجتُ من الخيمة نحو فرس رقية "الصهباء" التي حين أخذتُ أداعبها بأناملي إعتقدتُ لوهلة بأنها كانت تنتظرني.

همستُ بأذنها:

- خذيني في رحلة أخيرة صوب عمق الطهر والنقاء. ثم إمتطيتها بخفة علمني إياها الأنهد، فانسابت بي إلى خارج القبيلة كدمعة على وجنة ناعمة ثم إخترقتْ كسهمٍ ناري ظلام الليل بعَدْوٍ سريع فرحة بي إذ هي أنا.

شعرتُ في لحظة التحليق بأنني قد إمتلكتُ نفسي، وإمتلأتُ بالإنعتاق

ونسيم الليل، لأرقص على متن فرسي التي خلقتْ من أنفاسها ودبيبها إيقاع الحرية حريتي.

لم أتشبّث بها، بل إحتضنتها بكل ما أوتيتُ من حزن وعشق وحياة، كنتُ في ذروة حلمي وهي السابحة في فضائه، مُحلّقة بي، لأتوق إلى العُريْ وإنتزاع برقعي وعباءتي، إلى أن اصير نجمة من ألق وخلود.

كنتُ في الذروة..

ذروة الصحراء ووحدانية البذْءِ وحقيقة حريتي، لا شي يشدني إلى أصلي أو إلى الخيمة، بل كان إنجذابي نحو مجهول يعصف بي على متن الصهباء، ثم صرختُ..

صرختُ بأعلى صوتي:

- أنا المقاء بنت عطاء بن سبأ

أنا اصل البلاد والعباد

أنا جنوب الأرض وتاجي السماء.

ثم بكيتُ.. عَلا أنيني، ثم طغى نشيجي على كبرياء الصحراء فبكتْ معي، كما الفرس التي توقفت على قمة عالية لتريني زينة القمر ونجومه المتلألئة وإنعكاس سحرها على خدود الصحراء..

بكيتُ..

بكيتُ بحرقة وغزارة، ثم أقلعتُ فجأة عن البكاء ومسحتُ دمعي ببرقعي بعد أن نزعته عن وجهي، ورفعتُ رأسي نحو السماء وقلتُ بُبحّة حزني ومرارة أيامي:

ثمة عرب بائدة وعرب مُستعربة وعرب عاربة..

وأما أنا..

أنا إبنة العرب الهاربة..

إبنة

العرب

الجارية...

الفصل الثاني عشر:

رعشة الظل

هي مكنونة البربرية وقد اشتراها من إبراهيم الموصلي بمئة ألف درهم.

- وما كنزها المكنون؟

- ينبعثُ منها شجنٌ يُطربُ السامعين ويخلب ألبابهم.

بهذا الخبر الذي كشفتْ لها من خلاله خلوب سرّ إنشغال المهدي عنها، غابت الخيزران داخل حجابها وإعتزلت، بعد أن كانت في البداية تشك بإبتعاد ولي أمرها عنها مقنعة نفسها بأن غيابه يكمن في تداعيات الفتن وشؤون الحكم وولاية العهد، إلى ان أردتها خلوب بالكارثة، لتكتشف أن ما يحدث لها الآن ما هو إلا الهجران وبداية تحولها إلى المعتاد من مصير الجواري الذاويات في جناح الحريم.

كانت تعلم أن الرصافة هي إبنة بغداد المتفتحة، التي تحتوي قصورها ومجالسها ما يفوق تصورها من ملذات العيش ومباهجه، وتعلم أيضاً أنها تسكن ارض الغواية المُلتبسة بآيات الجحيم وآيات الفردوس، المكتظّة بالجواري والغلمان في وقت لم تكن فيه هي سوى جارية في هذا الركب الحثيث، وإن حظيت فمحظية، محظية ولي العهد الذي إنشغل عنها بمهام منصبه الجديد وما يحتويه في طياته من حرير وأنّات أجساد وإنسياب آهات ووأد فتن في القصر الذي لا يرتوي من الفتنة، ولا منها هي التي إعتقدتْ للحظة أنها باتت على مقربة مما تصبو إليه، إذ يراودها اليأس الآن، يعتلي قامتها المديدة في زحمة الجواري ويقسو عليها أن لن تنالي سوى مراثي جمالك الغابر في سرير عابر مكسو بالحرير المتهالك وصدأ اللذة المحترقة.

فقد كادت في أبهة قصر الذهب أن تُحقق حلمها إثر هيام المهدي بها

عشقاً أصاب به منها موسى وهارون وإكليل حبها له إبنته "البانوقة"، التي أنجبتها الخيزران على هيئتها رغم تفوقها عليها بدماء شريفة الأصل والنسب، عباسية جعلتْ من المهدي أباً هائماً بإبنته الآية في الجمال والحسن، مما دفعه إلى الإهتمام بها أكثر من أمها، إذ كان يصطحبها معه في صولاته وجولاته وهي إبنة عشر سنين، ويلبسها لباس الفرسان الأسود في رحلات صيده في البرية، وموكبه الفاره في طرقات بغداد والرصافة، فكانت هذه عجيبة زمان المهدي لما لم تعهده الرعية من قبل من إفتتان أمير بإبنته وليس بإبنه.

وكانت الخيزران في غمرة الحب هذه مسرورة في ركنها المتألق ولكنها لم تكن راضية ومكتفية، فقد كان طموحها أكبر من أميرهائم بإبنته، حتى وإن كانت إبنتها التي خُلقت على هيئتها.

ففي توْقها الشديد للإنعتاق من ثيابها الحارقة وقسوة وحدتها، كانت تشاهد من وراء ستائر جناحها في القصر موكب ريطة إبنة أبي العباس السفّاح زوجة المهدي الشرعية، وهي تتمتع بكل ذلك البذخ الذي أسبغه عليها أصلها ونسبها، إذ لم تكن الخيزران تتطلع إلى أناقة مولاتها ولا إلى موكبها المزدان بالعبيد والغلمان والجواري وسدائل الترف، ولا إلى حظوتها لدى المهدي، بل كانت تتطلع إلى الحرية التي كانت تستحم بها ريطة، وذلك الدلال المُتلبّس أميرةً عباسية لا تمتلك نصف ما تزخر به الخيزران من رجاحة عقل وفصاحة لسان وآيات جمال، إلاّ أنها تمتلك الحق كل الحق في رفع رأسها بشموخ والإستحواذ على كل ما تأمرها به نفسها الزكية.

فقد كانت ريطة بدورها تعلم أن الخيزران هي محظية المهدي الأولى والمُفضلة، خاصة بعد أن بنى بها ثلاثة من الأمراء، ولم تكن لتنزعج أيضاً من سطوة خيزرانية شديدة أحاطت بالمهدي وأوقعته فريسةً لجمالها المتوحش، ولكن الفرق هنا كان أن ريطة لن تتأثر بغياب المهدي وهجرانه لها، في تجاذبه لحرير الجواري فتلك كانت سُنّة القصر التي لن تؤثر على حضور أميرة عباسية شامخة في رحاب زواج عباسي سلطاني شرعي أملاه المنصور على إبنه المهدي، كما أنها لن تحتجبْ ايضاً في سبيل "مكنونة" ذات المئة ألف درهم

التي دفعها المهدي ثمناً لها، ليثبت في ذلك أنه الأمير الوحيد الذي دفع ثمناً باهظاً في سبيل صوت جارية.

ولكن فيما يتعلق بالخيزران فكان هذا الغياب يعنيها تماماً لدرجة أنها مبعثرة في حجابها على مشارف القنوط واليأس، تبحثُ عما يقّيها من لحظتها المقيتة هذه التي ألقى فيها المهدي عليها الهجران، بعد أن سلبته إشراقة جارية ألقت بصوْتها عليه سحراً مبيناً، فوحدها كانت تعرف ما الذي تعنيه الفتنة التي تشعلها الجارية الذكية في دماء سيدها، إذ هي وسيلتها الوحيدة لنيل الحظوة.

كانت تدرك أن الخسران الذي يسكن الجواري يمكن إحالته إلى ربحٍ ونيران تُحرق سيد أمرهن باللذة والألم، وبأن الجارية قادرة على محق جارية أخرى تنافسها على الحظوة والتميز لدى سيدها، فهذا ما فعلته هي في سالف عهدها الخيزراني الأول، بما إمتلكته من فطنة مكسوة بالجمال القمري الخالد، حيث إستطاعت أن تحقق بعض ما تصبو إليه، مقتربة من المهدي إلى أن أصابت فؤاده، وتميزت عن بقية الجواري بجناح خاص بها وببنيها وبما كان يغدقه المهدي عليها من هدايا وعطايا.

إلاّ أن كل هذا النعيم لم يكن ليجعلها تتنكر لأسرتها وأصلها البعيد المُوغل في القدم، فقد كانت في لحظات وحدتها وإحباطها تلمحهم ظلال أهلٍ كما لو أنها لم تكن بينهم يوماً، لتطاردها أسئلة اللهفة الباحثة عن إجابات قد تشي بحالهم ومصيرهم وحياتهم، بعد كل هذا الغياب والأحداث التي ألّمتْ بإبنتهم العاجزة عن كبت شوقها إليهم وحاجتها إلى عطفهم الصادق، فهم أصلها الذي ينبثق الآن عاصفاً حارقاً من جرح هجرانها ليضعفها ويقسو عليها أكثر في عزلتها، فمن قصر ليس لها كانت ترسل إليهم بأسئلة الحنين واللهفة المُحمّلة بالأشواق والمال الوفير والهدايا مع رسول جنّدته بسرية تامة ساندتها بها صاحبتها خلوب، لترسله إلى أهلها مرة في كل عام من أعوام حريرها الحرام، فهل كانت على قدر من الجرأة لتبوح لهم في رسائلها المُذهّبة والخجولة بأنها جارية في القصر العباسي نالت بفضل روعة جسدها ورجاحة عقلها حظوة ولي العهد؟ هل كانوا سيفتخرون بها؟

هي التي لم تعد الآن قادرة على المضي قدماً في تحقيق مرادها الذي سيجعلها تتباهى بنفسها مُسْبغة شرفاً رفيعاً على أصلها الذي ستجلبه إلى هنا، إلى قصر سيصبح قصرها وجاهاً سيدفئها بالحرية لا والله..

بعد ان هُجرتْ لا والله..

بعد أن ألقتْ مكنونة بخمار صوتها على عقل المهدي لتذهب به ويذهب بها لا والله!

كان يحتلها اليأس في سريرها الشاسع بالخواء والخيبة، ويتشبث بها الخسران إثر إعتقادها وتوهّمها للحظة بأنها قد إقتربت أكثر من أي وقت مضى من مشارف الحظوة القصوى وذروة الحلم، بعد أن حقّقت أمنيتها العظيمة برؤية المنصور عن قرب وكثب في قصر إبنه وولي عهده المهدي.

ففي ذلك اليوم كانت قد علمتْ بقدومه، فطلبت من المهدي متوسلةً إليه بأن تكون حاضرة في خفايا حجابها السري الذي يفصلها عن سطوع البلاط العباسي والمجلس الأميري، فرضخ لها المهدي مُشدداً عليها بألاّ تجرؤ حتى على التنفس في حضرة أبيه وأن تسكن كصخرة صمّاء في حجابها لا أقل ولا أكثر.

كانت تلك لحظات فارقة ومهمة في حياتها الجارية، لأنها رأت عن قرب صاحب السلطان والأمر العلي، رأته في هيبة ووقار أسبغا عليه هالة من القداسة والرهبة في مجلس المهدي الذي كان في ذلك اليوم خالياً من مظاهر البذخ واللهو والصخب ومفعماً بالتقوى والزهد والخوف من المنصور القادم من بغداد لزيارة ولي عهده، بعد أن إستتبّ سلطانه وإشتد بالرخاء والإستقرار.

يوم دلالها ذاك إستمعت إليه بخشوع وهو يوصي إبنه قائلاً له:

- "يا أبا عبد الله. الخليفة لا يُصلحه إلاّ التقوى، والسلطان لا يُصلحه إلاّ الطاعة، والرعية لا يُصلحها إلاّ العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقَصُ الناس عقلاً من ظَلَمَ من هو دونه، ولا تبرمَنَّ أمراً حتى تفكر فيه، فإن فكرة العقل مرآته، تُريه قبيحه وحسنه، أي بني إستدم النعمة بالشكر، والمقدرة بالعفو، والطاعة بالتألف والنصر بالتواضع والرحمة للناس".

إن إتّقـاد طموحها وإشـتعال ذكائها وإحتـراق ضعفها، كل هـذه النيران هي التي دفعت بها إلى الوصول حيث هالة المنصور، إذ لم يكن يفصلها عنه سوى حجاب خفيف وعظمته هو الذي إستطاع أن يؤسس دولة عزيزة شامخة بالتاريخ والأمجاد وإمتداد الدين، فأصغتْ إليه وهو يوصي إبنـه بصوته الرخيم الفخم بما يتوجب عليه فعله عندما سيصبح الخليفة ومالك الأمر وسلطان العباد والبلاد.

كادت أن تفقد عقلها في ذلك اليوم من سطوع المنصور القوي في البلاط، ومن شدة فرحتها وسعادتها لقربها الشديد منه دون ان يعلم هو بذلك.

ولكنها اليوم داخل مواطن اليأس والهجران تكتشـف انها على وشك التبدد والـزوال، فالأمـر لجارية وليـس لزوجـة شـرعية مُتحفظة فـي خَفْرهـا، جارية لا تخشى من التهتك والإنفراج والتبرّج والتغنّج والتمسّح بقدميْ سيدها، فما بالكم حين تكون تلك الجارية هي مكنونة صاحبة الصوت المكنون؟

ومع تطـاول ليلهـا بالإثمد والحـزن، وسـريان قنوطهـا وعزلتها المُوحشـة، ثمة مـا كان يواسـيها ويجعلها تتشـبّث بمـا تبقى لها مـن أمل فـي القصر، حيث أبناؤهـا الثلاثة الذيـن تجري فـي عروقهـم الدماء العباسـية الشـريفة، فهـم كانوا ضمانتها وركيزة شـرعيتها الوحيدة داخل القصـر ومنبع إصرارهـا على حقها في المهدي الذي كان بـدوره وإلى جانـب طغيان حنانـه ورعايته لإبنتهمـا "البانوقة" يخصُ موسـى وهارون بمحبته وإهتمامه بهمـا أكثر من بنيه مـن ريطه والجواري الأخريات.

فإبنها الأكبر موسـى كان على وشك الرجولة بإثنيْ عشـر عاماً لم يكن فيها يوماً قريباً من أمـه، التي عجزت حتى الآن عن إحتوائـه وإحتضانه إبناً لها، وهذا ما سـاهم في نشـوئه بعيداً عنها في بيئـة أميرية غالباً مـا تكون التربيـة فيها بدنية وعقلية على نحوٍ قاسٍ يكفـل جعله أميـراً ذا رباطة جأش ورزانـة عقل، رغم ما كان يعانيه من تشـوّه خُلقي في شـفته العليـا المتقلصة والمزمومة أكثر من شـفته السفلى، الأمر الذي دفع المهدي إلى تخصيص غلام يرافقه ليذكره دائماً بإطباق شـفتيه حتى لا يبرز تشـوهه وعيب وجهـه قائلاً له" "موسـى أطبق" فـكان يُطبق، وهذا ما أثار سـخرية الخيـزران المريرة التي كللّـتْ بها نُكرانها لـه ونفورها منه،

فهو كان كما سيكون دوماً إبن فضّ لا إبن حب.

وأما هارون فكان أمير فؤادها وسلوى مصيرها، وابن عشقها الحقيقي، وتجلّي هيام المهدي بها، مما دفعها إلى الإهتمام به أكثر من موسى، عبر إيلائه للمزيد من الرعاية المُشبعة بالحب له خلال أحد عشر عاماً من عمره في ظلالها، خاصة بعد ان دفعت المهدي بأسلوبها الساحر والمؤثر إلى أن يجعل من يحيى البرمكي مُربياً ومؤدباً لهارون، لما يمتلكه من شؤون وأصول الحكمة والعلم، فكان لها ما أرادت لينشأ هارون متفوقاً على أخيه بشفتيْن كاملتين وذكاء لم يتوفر عليه موسى الذي لم يكتسب من بيئة الأمراء سوى قوة الجسد وشغفه بشؤون الفروسية.

فترعرع هارون أميراً بهياً في ظلال الخيزران ويحيى البرمكي.

يحيى الذي لم يرها سافرة الوجه سوى مرة واحدة في حياته، وذلك في تلك الأيام الظالمة التي تركها فيها المهدي وحيدة في القصر الزينبدي من أجل الإرتباط بإبنة عمه ريطه، يومذاك رآها فأصابته بسحر وجهها فلم يقوَ على الإنعتاق، لدرجة أنه أدرك حينها بأنه سيقضي ما تبقى له من عمر بحسرة خفية وشغف مكتوم بها.

إذ أقسمتْ الخيزران عشية ذلك اليوم الحزين بألاّ تكشف عن وجهها إلاّ لسيدها المهدي وأبنائها وصاحبتها خلوب فقط، فكان لها ما أرادت من إضفاء هالة غموض سامية على جسدها وحضورها في مجالس القصر وأروقته، مُفضلة السواد ستراً لها لتغدو سيدة السواد بلا منازع.

السواد في وجه موكب ريطة العباسية الذي يطاردها الآن في عزلتها، بأصلِ وحرية لطالما سعت إليها هي، إذ تدوس عليها حوافر الخيل والعز وتُدمي جسدها الغضّ، تبعثرها في كارثة توشك على احتلالها وحبسها في مذلة الجواري، فلماذا إذن إبتعدت واختلفت عنهن؟

لماذا إنتابها ذلك التدفق القوي من الأحلام والطموحات والأماني التي قضتْ بتميّزها وتفردها عنهن لتقضي عليها الآن في عتمة قدرها؟

لماذا لم تقتنع بمصيرها الحريري وديباج المتعة؟

في قمة عزلتها..

تنتفض فجأة، تنبذ الأسئلة الجبانة وترفض الإعتراف بواقع الجارية التي لا تصلح إلاّ للمتعة والإنجاب ومسامرة الأسياد، إذ هي فتاةٌ صغيرة، وردةٌ في أوْج العنفوان الممشوق، طفلةٌ تخيفُ من حولها دوماً ببراءة الرفض ومعاندة الخنوع بنقاء تمردها الساري في دمها، لتغدو سيدة اللامتوقع والمباغت، سيدةٌ تستحمُّ بوطأة الفجر الشديدة الهائمة ما بين الديجور والنور.

لكي لا ترضح لمصير أم ولد وثلاثة أمراء من أمير سيخفق بعد قليل بالخلافة، لكي تنبعث من العدم وأشجان عزلتها بصارخ جمالها وبالغ ذكائها، فهل إلى العدم ستؤول كوردة تذوي في نهاية مطاف تفتحها؟

-2-

كانت قد سئمتْ من التململ في طيات إحتجابها وخيبتها، فعزمتْ على الإنقضاض والإنتفاض من جديد على حظوة سيدها، فما الذي ستخسره ما دامت لا تمتلك من أمرها شيئاً، ولماذا تخاف من سعيها إلى إعادة تماسكها ولملمة حضورها؟ ومن ذا الذي يقبض عليها في هروبها من سُنّة الجواري؟

فعقدتْ العزم على ضرورة الإنبعاث من أنقاضها، وإسترداد قوتها وعافية إرادتها أكثر من اي وقت مضى في خضمّ أرض الغواية وتقلبات الفتن والمصائر، فما أن إنجلى ليلها السقيم حتى طلبت من صاحبتها خلوب أن تُدبر لها حضوراً سرياً في مجلس المهدي لكي ترى بأم عينها وتستمع بحسن إصغائها إلى تلك الجارية الملعونة التي سرقت منها حظوة المهدي، ساعية في ذلك إلى أن تكون على مقربة من مجلس اللهو والغناء لكي تدرك حجم كارثتها، وما الذي يتوجب عليها فعله لتستردّ المهدي.

إذ تخفّت الخيزران في ليل تمردها بمعهود حجابها داخل المجلس المزدحم بالحاشية التي يتربع فوقها على عرشه المهدي مطروباً بشدو مكنونة المنبعث من أثير الفردوس ليحل نسيماً ونعيماً على أجواء المجلس:

"إذا وجدتُ أُوار الحب في كبدي عمدتُ نحو سقاء القوم أبتردُ
هبني بردتُ ببرد الماء ظاهرةً فمن لنارٍ على الأحشاء تَتَقدُ"

كان طربها مزداناً بإيقاع فتنتها وتأوهات وعُرَبِ صوتها الذي كان يراقص فؤاد المهدي.

فهال الخيزران صوت مكنونة وحضورها البهي في المجلس، فإذا كانت هي قد تأثرت بطربها فكيف بالمهدي المنصهر بها والمتحد بغنائها، والمُحلّق بشدْوها الخلاّب؟!

في عز الطرب..

رأت واستمعتْ وراقبت ولاحظت وأدركت في نهاية السمر أن الأمر أمر خسران وكارثة قد حلّت عليها، فما رأته من المهدي وما سمعته من مكنونة لم يردّ سيدها إليها بسهولة، لذلك كان يتوجب عليها أن تتحرك بسرعة لأنقاذ ما يمكن إنقاذه من حظوتها وتأثيرها عليه.

هذا ما كانت تفكر فيه عندما عادت أدراجها إلى جناحها الذي تملّكها فيه غضب أعمى قاده جنون جهنمي إلى إحراقها في سرير الحرمان والهجران.

في اليوم التالي..

لجأت الخيزران مرة أخرى إلى صاحبتها خلوب، حيث طلبت منها برجاء خاص أن تدعو مكنونة إلى جناحها بحجة أنها تريد أن تستمع إلى غنائها لما عرفته وسمعته عنها من الجواري.

فقالت لها خلوب بصوت مشوب بالريبة والخشية:

- إحذري يا خيزران، فالأمير مفتون بها وأي حماقة منك ستؤدي بك إلى غياهب المجهول.

قالت لها الخيزران بصرامة:

- وهل ثمة حمقاء ترينها أمامك الآن؟!

إضطربت خلوب وتلعثمت:

- كلا.. بل أرى صاحبتي ذات الفطنة والدهاء.

- حسناً.. لا تخشي شيئاً ما دمتُ قد كبحتُ غضبي وحبستُ جنوني فأتِ بها الآن.

وما أن خرجتْ خلوب حتى إنقلبت هي إلى لبؤة هائجة أغارت على جناحها بالتوثّب والإنقضاض، وقلبٍ مفترس أضمرت فيه الشر لمكنونة.

ولكنها في أعماق شراستها المفاجئة وحدة مخالبها القاتلة كانت خائفة بالفعل، خائفة من تحولها في لحظات ضعفها إلى مجرمة رجيمة سينتقم منها المهدي أشد إنتقام، فما الذي كانت تدبره لمكنونة؟ وهل تقوى على إفناء أنثى لا ذنب لها سوى تقاطع دربها مع درب أمانيها؟

كان يدفعها إلى لقاء مكنونة رفضها للإستسلام والتنازل عن حقها في القصر وفؤاد المهدي بعد كل هذا العمر المهروق على رخام القصر، عمرها هي التي إشترتها راعية الحريم من غرفة مهجورة في سماء سوق الرقّ، ليذلّها بَخْسُ مصيرها ورخص زمانها الذي لم يكافئها إلاّ بالمهانة وبجارية دفع المهدي مئة ألف درهم في سبيل صوتها، فهل كانت هذه هي نهاية المغامرة؟

هربت من الإجابة على هذا السؤال بدخول خلوب التي نجحتْ في جذب المغنية إلى طعم الخيزران.

إذ دخلت مكنونة بثمانية عشر عاماً وبراءة طفلة تلبّسها جسدٌ غضّ وصوت حسن، لتصبح جارية تتدلل بثمنها الباهظ.

جاست عينا الخيزران فيها من شعرها حتى أخمص قدميها دون ان تنبس ببنت شفة، لتلاحظ بعد أن أنهتْ حدسها الأنثوي فيها أنها لم تكن لتفوقها حسناً وجمالاً لولا ذلك الطرب المنبعث من أحشائها ثم إقتربت وأخذت منها العود قائلة لها بلطف مُصطنع:

- هل تعرفين من أكون؟

أجابتها مكنونة بصوتها الطفولي العذب بكل دعة وبراءة:

- نعم.. أنتِ الخيزران أليس كذلك؟

إكتسى صوت الخيزران بالضجيج ودنتْ منها أكثر:

- نعم.. وماذا تعرفين أيضاً؟

تململت مكنونة في جلستها إثر تسلل الخوف إلى نفسها:

- أنتِ.. أنتِ محظية مولانا الأمير.

إنتفضت الخيزران وصفعتها بشدة على حين غرّة جاذبة شعرها بقسوة:

- ومـا دمـتِ تعرفيـن هذا يا جارية، كيـف تجرؤين على حظوتي لديه بفجور سحرك؟!

راقبتْ خلوب المشـهد المريع بحـذر وخوف، دون أن تجـرؤ على التدخل بعدما لمسته لدى الخيزران من لبؤة مُتزيّنة بأفعى حول عنقها، وفي الوقت الذي بدأت فيه مكنونة بالصراخ والتوسّـل المبتل بالدمع وخيط دم رفيع إنسـاب على عنقها من فمها:

- والله لا ذنـب لـي فـي طربـي ومراعـاة الأميـر لي، فما أنـا إلاّ مغنية تُطربه وتؤنس وحدته.

- إخْسئي لا أمَّ لكِ فقد خلبتِ لبّه وخمَرتِ عقله بسحر صوتك، والله إنكِ لأقْوَدُ من ظُلْمَه، لأقتلنَك بفجورك.

ثم ازدادت شراسـة اللبؤة، غـرزت مخالبها فـي عنق الجاريـة الصغيرة التي جحظت عيناها وإزْرَقّ وجهها وشَحُبَ جمالها وبُحَّ صوتها.

حدقـت الخيـزران المُنتفضة في المـوت الذي بدأ ينتشـر في وجـه الجارية الموشـكة عى لفظ آخر ألحانها، ثم رأت فجأة في عينيْ مكنونة ماهزّها وبعثرها، رأت في لحظة الإحتضار راعية الحريم الفارسـية التي إشـترتها من سـوق الرقَ، وأحسّـتْ بتلك الصفعة التـي إلتهمـت وجهها الطفولي فـي ذلك اليـوم، تذكرتْ الحبشـية السـوداء التي كادت أن تلوكَ جمالها بفاحشـتها، تذكرت أهوال السـبي وظـلام جنـاح الحريـم، وماضيهـا المكتـظ بالمآسـي والدماء فـي عينـيْ مكنونة الجاحظتيْن، لترتـد عنها في اللحظـة الأخيرة مُتخلية عن عنقها وإزهـاق روحها بيديْها اللتيْن تحولتا إلى إحتضانها بلهفة وحنان وبكاء عميق حار:

أعذرينـي يا مكنونـة.. أعذريني يا صغيرتي فوالله قد أوشـكت علـى قتلي أنا وليس قتلك فحسب.

غمرتها أكثر بالبكاء والعناق، ثم قالت لها في نشيجها المفاجئ:

- إن صوتك فتّان قتّال يا مكنونة، فقد دفعني إلى الجنون إثر هذا الهجران، وما جزأني على أذيتك سوى المثل، فها أنا أمامك إصنعي بي ما تشائين.

وأما مكنونة المبهوتة، فقد كانت تسعى إلى تدارك ما حدث، بإسترداد أنفاسها وتمالك نفسها التي كانت تتأرجح ما بين الحياة والموت، ثم أخذت تتفرّسُ في ملامح الخيزران التي إنقلبت فجأة إلى أم حنون تخفق بالألم والبكاء على ما أصاب إبنتها من أذى، إذ لمستْ مكنونة صدقها طيبة فوائدها، وحدقتُ بها بعمق دون أن تتفوه بأدنى كلمة أو إيماءة تشي بعودتها إلى الحياة.

كانت تستمع إلى نشيج الخيزران الصادق وعلى إيقاعه كانت تغني حريرهما المشترك وتشابك مصيريْهما داخل قصر واحد، لتوقظ بها أصداء الموت أساها النائم منذ أن ترعرع صوتها وشَبَّ طرباً في مدرسة إبراهيم الموصلي لتعليم الغناء والتلحين، هي القادمة من مغارب الأرض لتصدح في مشارقها إشراقة نغم وطرب باهظ الثمن أشفقت على الخيزران، رغم أن هذه الأخيرة كادت أن تقتلها بغيرتها وأحلامها المتوحشة.

إستعادت مكنونة سكينتها، ثم جذبتْ الخيزرانَ فجأة إلى عناق دافئ قائلة لها بصوت مبحوح:

- لا بأس يا خيزران.. لا عليك إني قد عذرتك ولمستُ جرحك وشعرتُ بألمك.

خَفَت نشيج الخيزران، وانتزعت نفسها من عناق مكنونة بلطف، ثم كفكفتْ دمعها قائلة بظل ابتسامة:

- لن أنسى يوماً غفرانك وتحملك لأذيّة جنوني.

قالت مكنونة بضحكة عذبة:

- كدتِ أن تذهبي بصوتٍ أشجى مولانا الأمير، ولو أنك منحتني فُسحة الحديث لقلتُ لك بأنه كان في لحظات شجنه وطربه يذكركِ أنتِ.

غمرتها الخيزران من جديد بلهفة وحماسة:

- حقاً.. حقاً يا مكنونة كان يذكرني.. هو لك إذن.. لك بأذنيه وطربه بصوتك فقط.

- هذا عرفان منك بحسن صوتي.. فهو كذلك إذن.

أصاب هذا الحدث السريع والمريع وما تلاه من حوار خلوب بالذهول، بعد أن كانت ترتجف من شدة الخوف عندما إشتمّتْ رائحة الموت تهبُ من جسد مكنونة، ذهولٌ ما لبث أن تبدد بإلتحاقها في جلسة أنثوية صاخبة بالإيحاءات والأغاني والحكايات التي لم تخلُ من آثار الفحش ومجون المجالس.

إذ هكذا في لحظات معدودة كان فيها الموت سيد الموقف تأتي لحظات أخرى لتطرده بالحياة المفعمة بالضحك وجوارٍ ثلاث جمعهن رغم ما حدث لهن من مصاب مريع مصيرهن المشترك الذي أضفى عليهن إحساساً واحداً ألا وهو الإنكسار.

إنتهت الجلسة بإنسحاب مكنونة في المساء من أجل أن تُعدَّ نفسها وصوتها وعودها في سبيل مجلس السمر الليلي، خاصة بعد أن شدّدتْ الخيزران وأكدتْ على إعتذارها منها مراراً وتكراراً بكل ما امتلكته من صدق وإخلاص قد يسهمان في كتمان مكنونة وإخفائها لما حدث عن المهدي.

وما أن خلا الجناح لهما حتى إلتفتت خلوب نحو صاحبتها قائلة لها بحدة:

- ويحك.. كدتِ أن تلقي بنا في مثوى الجحيم بسبب جنونك.

أجابتها الخيزران بمرارة:

- لولا أن تمالكت نفسي وتذكرتُ خيبتي لقتلتها وقتلتُ نفسي.

فانقلبتْ حدة خلوب إلى إبتسامة خبيثة:

- ولكن بالله عليك قولي لي ما الذي قصدتِه عندما قلتِ لها بأنها أقْوَدُ من ظُلْمة؟

سألتها الخيزران بخبث وجذل:

- ألا تعلمين معنى هذا القول يا صاحبتي؟!

- لا والله!

فأجابتها الخيزران بتباهٍ شرَّعته لها درايتها العميقة بقصص الأعراب:

- هي إمرأةُ من قبيلة هذيل زَنَتْ في ريعان عمرها لأربعين عاماً من أعوام

العرب القديمة، ولما عجزتْ بعد أن نال منها الكِبَرْ عن القيام بفاحشة الزنا والقَوْد، إتّخذَتْ تيساً وعنزاً فكانت تُنزّني التيس على العنز، فقيل لها لماذا تفعلين ذلك يا ظلمة فقالت: حتى أسمعَ أنفاس الجماع، فأصبحتْ بذلك مثلاً يُضرب على المرأة التي تُدمن اللذة والفجور.

ختمتْ حديثها بنجاح وسعادة، ونظرت إلى خلوب التي كانت بدورها تحدق بها للحظات من الصمت، ثم إنفجرتا وإنخرطتا معاً في نوبة ضحك صاخبة عارمة.

-3-

إكتشفت الخيزران بخروجها عن طوْرها، أن مكنونة مجرد جارية بريئة غُرّة، وما بوْحها لها بأسرار جلساتها في حضرة المهدي وذكره للخيزران في لحظات شجنه سوى إشهار صادق لهيامه بها، رغم صوت مكنونة التي لم تكن تتمتع إلا به في منافستها مع الخيزران العربية التي لم تمتلك جارية داخل القصر ما يُضاهي فصاحة لسانها وبيانها وجمالها، إذ كان كل هذا من نصيبها هي المحظية التي تعمّق إيمانها أكثر هذه المرة بعودة المهدي إليها، دون أن ينتهي بها مسعاها لإسترداده إلى قتل جارية بريئة لا ذنب لها إلا ثمنها الباهظ وصوتها الشادي.

فبعد شهرين من الغياب الذي آذاها كثيراً، إستعادت بريق عينيْها المتلألئتيْن بثبوت عشق المهدي لها، مما دفعها إلى أن تستعد وتتجهز كفارسة ماضية إلى حرب عاتية.

فبعد ان علمت بعودته من وداع أبيه المنصور الذي كان في طريقه إلى أداء فريضة الحج، أرسلت إلى سيدها المهدي في تلك الليلة تفاحة ملفوفة بقطعة من سواد حريرها كانت قد قضمت منها قضمة صغيرة شهية، دون أن تكتب عليها ما سبق أن كتبته من قبل على التفاحة التي أرسلتها إليه برفقة خلوب في أول عهدها بالقصر.

إذ حمّلَتْ حاجب المهدي التفاحة موصية إياه بألا يقول له من صاحبها، ففعل.

وفعلتْ هي في جناحها الكثير مما لم تفعله يوماً في تاريخ جمالها وتجمّلها وتزينّها، وإنتظرت واثقة تمام الثقة بما ستثيره التفاحة من أشجان وأشواق داخله، واثقة بيقين غريب أسبغّ عليها الإيمان بعودته إليها، جاذبية ما ملعونة ستجذبه إلى مرتعها من جديد.

فكان لها ما تريد..

إذ كانت هي المرة الأولى التي يأتي فيها المهدي إلى جناحها، بعد أن كانت تحطُ رحال غوايتها في ركنه هو.

جاءها في إنتصاف الليل، ليلها الذي أعدت له فيه ذروة المُشتهى بطقسٍ كان أثيره يعمهُ بالبخور واللبان، ويتعربش في أفُقهِ البهي أريج العنبر والمسك، وتتراقص في أجوائه الغاوية ألسنة نيران هادئة ساحرة تتلألأ في شفقها المثير غلالتها السوداء الشفيفة، في هذه الأجواء العامرة بها إستقبلتْ بكفاءة فتنتها وشراسة اللبؤة فيها الأمير الذي حلَ عليها بعباءة عهده وطول غيبته وقسوة هجرانه، تمالك أنفاسه وجلس بمحاذاتها على جمر الأنين قائلاً بتودد:

- ويحك.. لم يُصبكِ أسىً ولم تهرمي في قنوطٍ من غيابي يا جارية.

أجابته بغنجٍ لطيف إنبعث من غيمة:

- ألم أقلْ لكَ في وصالي أنا حلمك يا مولاي.

تلمّس وجهها قائلاً بهمس:

- وهل أقوى على هجر حلمي يا جارية، والله ما برحتِ خاطري ولو لم تنشديني اليوم لنشدتك غداً.

قالت له وهي تُمسّد على شعره في عتاب خفي تشوبه مكنونة:

- ولكني هَلِكتُ دونك يا مولاي، وسَكَنتْ ريحي من شدة هجرانك.

- ها أنا أهُبُ عليك الآن، وأهِبُكِ هذه الليلة لكِ وحدك فكيف ستكافئينني على حسن صنيعي يا جارية؟

- بإئتلافك مع فؤادي يا مولاي، وتشبّث شغفي بأطراف ثوبك الطاهر.

- ويحك أهذا فقط؟!

- وهل من منشود لي سوى إهتمامك بي يا مولاي؟!

إستغلّ إنحسار غُلالتها عن جسدها المثير، ليسُلَّ يده بخفّة في خفايا سُرّتها وما يُحيط بها من شامات وزُغب يُشرف على الصهيل بأصابع أميرية بارعة في إثارة فتن الجسد النائمة في لُجّة العماء السفلى فأنّتْ أنيناً إندلقَ عليه لهيباً، فقال لها هامساً في أذنها:

- وإنّي قد إهتممتُ وهِمْتُ بكِ فَهُمّي بي وهلمّي بغدق سحرك..

تشاجتْ.. تفتّلتْ.. إرتجّتْ ثم شهقت ثم ضحكتْ:

- عجباً.. فما تقول إلا الشعر يا مولاي:

- وما الذي يليق بك أكثر؟

خمدَ عتابها، وبدأ الطقس يتدفق بحلاوته وطراوته مُدغدغاً أنوثتها خاصة بعد لطف المهدي وحميمية حديثه معها، طمأنينة حلّت عليها لتثبت لها عودته إلى مزاولة هيامه الأبدي بها.

ثم أمسكت يديه وقبّلتهما ببطء مثير ثم قالت:

- في هذا الليل يا مولاي سأسرد لك أنفاس العشق وسأقصُّ عليك نبأ الجسد المخبوء حتى مطالع الفجر.

تألقت عيناه اللتان راودتا غلالتها السوداء الشفيفة الستر العتية العُريْ، كانت ليلةً قد أتقنتْ فيها كيف تزفُّ إليه ترفها ترف طقس لم يُقَمْ من قبل في قصر الذهب.

قال لها بعد أن أسكره اريج شعرها:

- حتى مطالع الفجر يا جارية.. هاتِ مخبوء غلالتك بعد هذا الغياب.

لملمتْ عريها ومنثور شعرها في وجهه، ثم تربّعت في جلستها أمامه آيةً من عاج ومرمر ثم قالت:

"لغَطَفَان" عهد في الجمال وأصالته لما لنسائهم من الحسن ولرجالهم من إصابة الوصف وبالغ الدراية في جمال النساء، وكان في مجلس أحد خلفاء بني أمية[1] الغابر عهدهم والملعون زمنهم، رجلٌ من أهل غطفان فسأله الخليفة:

(1) عبد الملك بن مروان.

"صِفْ لي أحسن النساء، فقال: خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين، ردماء الكعبين، مملوءة الساقين، جمّاء الركبتيْن، لفّاء الفخذيْن، مُقَرْمدةُ الرفْغَيْن، ناعمة الأليتيْن، مُنيفة المأكمتيْن، فعمةُ العضديْن، فخمة الذراعيْن، رخصة الكفين، ناهدة الثدييْن، حمراء الخديْن، كحلاء العينيْن، نباء الثغر، حالكة الشعر، غيْداء العنق، عيناء العينيْن، مُكَسَّرة البطن، ناتئة الركب.

فقال: ويحك! وأنّى توجد هذه؟!

قال: تجدها في خالص العرب، أو خالص الفُرْس".

وما أن أنهتْ كلامها حتى وقفت فجأة بشموخ وسط السرير أمامه هو الجالس المسلوب الفاغر الفاه من هوْل حديثها، ثم نزعتْ غلالتها السوداء كاشفة عن جسدها الصارخ بالعُريْ والجمال المُحلّق في سماء الفتنة، ثم قالت له بكبرياء قتّال:

- وأنا يا مولاي..

أنا من خالص العرب فاسكُتْي وأسكتْ أنيني.

-4-

بعد عودتها الصاخبة من جديد محظية لولي العهد، إستيقظت الخيزران في صبيحة يوم الأحد السابع من ذي الحجة من سنة 158 هجرية، على ظلال الموت القاتمة التي إتَشحَ بها قصر الذهب.

كان الحزن قد خيّم على أهل القصر في ذلك اليوم الذي وصل فيه خبر الشؤم والحسرة، خبر وفاة الخليفة المنصور وهو في طريقه إلى الحج عن عمر ناهز الثلاثة والستين عاماً ودولة عباسية قوية إمتدت وإشتدت في بلاد الله لتصبح منارة العباد والمهد الذي ينطلق منه المزيد من جيوش الفتوحات الإسلامية المُتّشحة بالرايات السود.

كانت أجواء الحزن..

فالنادبات يندبن، والباكيات يبكين والراثيات يرثين، إذ هو دورهن في المصاب الجلل الذي حلّ على الدولة العباسية، ولكنه لم يكن مصابها هي

بل سرورها السرّي، وغبطتها المكتومة بعد أن أيقنت بأنها قد أصبحت محظية الخليفة الأولى، وصاحبة التأثير خاصة بعد عودته العاصفة إليها وحميمية إهتمامه بأبنائه منها.

أصبحتْ في حضرة الخليفة، بعد أن مات الذي صنع تاريخاً مجيداً لدولته في إثنتيْن وعشرين سنةً إلا ستة أيام، أسسَ خلالها مُلكاً قوياً فتح به آفاقاً جديدة للمُلكِ على الطريقة العباسية لتنعاه بحزن الأحد الأسود وترثيه بما أملاه عليها حداد القصر، وتزفّه إلى جنان الخلد بفرحةٍ إجتاحتها وعصفت بها، إذ هو ليس موتها، ليس موت من تُحب بل حياة ما تُحب، حياة محظية الخليفة.

كانت تخشى في إمتداد حزن المهدي من فتنة قد تُشعلها فوضى رحيل المنصور، وتترقب بحذر ما ستؤول إليه الأمور، إلا أنها تفاجأت من الإعداد الذكي والفطنة السريعة الذي كان سيدها حاجب المنصور الربيع بن يونس، الذي يعود إليه الفضل في إقامة البيْعة للمهدي على وجه السرعة في مكة والمدينة، ثم بإرساله لشارات الخلافة المتمثّلة ببُردة النبي عليه السلام وقضيبه وخاتمه، وميثاق عهد المنصور للمهدي لتتم مبايعته في بغداد على عجل، خشية من أن ينقضّ الطامعون وعلى رأسهم عيسى بن موسى على حقهم بالخلافة مُستغلّين حداثة المهدي بشؤون الحكم وحزنه على أبيه الراحل.

ولكن الربيع كان ذكياً، إذ كتمَ منذ البداية خبر وفاة المنصور عن الحاشية المرافقة له في رحلة الحج، إلى أن أعدّ العُدّة بشكل يكفل إيلاء العهد للمهدي وإستعداد هذا الأخير لتسلّم شؤون الحكم والسلطان.

تنفّستْ الخيزران الصعداء لأن أهم مرحلة في تاريخ ولي أمرها ومولاها قد إنقضتْ على خير وسلام ووافر سلطان، وفرحٌ إختلجَ في صدرها وحجابها وظلَها الذي سيبدأ بالتمدد نفوذاً وجاهاً داخل القصر بل في كافة أرجاء الخلافة.

في اليوم الذي أُشهرتْ فيه خلافته، رأته هي من شرفة حجابها في موكبٍ كان يتقدمه قادةالجيش العباسي بالرايات السود الخفاقة، يليهم أمراء الأسرة العباسية على الخيول المُطهّمة يمهدون درب سلطانه هو الذي كان يمتطي جواداً أبيض، ويتّشحُ بعباءة سوداء، تكلّله قلنسوة سوداء طويلة مُرصّعة بالجواهر

النفيسة، ويحمل في يده اليمنى قضيب النبي وخاتمه، وتتدلى على صدره سلسلة ذهبية مُرصّعة بالجواهر.

رأته..

في فخامة سلطانه وتؤدة أسرته العباسية، لا بل رأت نفسها داخل عباءته سيدة حُرة تليقُ به هو الذي خطبَ في الرعية إثر وفاة أبيه قائلاً:

- "لقد فارقتُ عظيماً وقُلّدتُ جسيماً وعند الله أحتسبُ أمير المؤمنين وبه أستعين عز وجل على خلافة المسلمين".

كانت معه في ذلك اليوم..

داخل ظلّها المُرتعش من شدة فرحتها..، لا بل من صدمة أحاطت بها وأردتها بالبكاء بعد أن أحسّتْ وشهقَتْ أكثر من أي وقت مضى بقربها الشديد من حقيقتها..

حقيقة أمنية عمرها المرهق من نوازع السبي وزيف الجواري...

الفصل الثالث عشر:

قافلة الجارية

على إيقاع الصحراء، كنتُ قصيدة مُعلّقة على هودج ناقة مُحاطة بقافلة صغيرة أميرها الأنهد الذي ومنذ أن إنطلقتُ بالمسير نحو مجهول المصير لم يكلمني ولم يلتفت إليّ أدنى إلتفاتة.

منذ خمسة أيام وأنا اموج على متن ناقتي في أول رحلة لي في هذه الحياة وربما ستكون الأخيرة أيضاً.

كل ما حولي كان كثباناً وتلالاً وقفراً هاثلاً لا أحد يتنفس فيه سوى نحن وقلبي اللاهث من شدة سخط الأنهد عليْ.

كان يعاقبني بالصمت والتجاهل في كل مرة كنتُ أبعثُ له فيها أحد حراس القافلة لكي يسأله عن الطريق، أو متى سنصل إلى إستراحتنا المقبلة، ساعية من وراء هذا إثارة إنتباهه وجذبه إليْ ولكنه كان على متن الدآديء منصهراً بسوادها بعد أن إرتدى لباسه الأول الذي رأيته في ليلة إغارته على القافلة العباسية، كان شامخاً من رأسه حتى أخمص قدميه بالسواد، فارسٌ قديرٌ يتمسك بعهده ويفي به، وإن كان هذا يُغضبه مني الآن إلاّ أنه العربي النقي الذي اخذ على عاتق فروسيته الرضوخ لحاجتي التي فاجأته، فمن كان يعتقد بأنني سأصبح على قدر من القوة والعزيمة لكي أطلب منه بالنهاية إلقائي في جُبّ الجواري؟

أنا التي أسيرُ في هذه الدرب بعد أن أقسمتُ ألاّ أرتجف أو أرتد عن غايتي في الوصول إلى حريتي، إذ ماذا سأخسر؟

ما الذي سيُدميني أكثر؟ فلا شيء أقسى من وأد الحرية في زمان حُرّم فيه وأد البنات ولم تُحرّم إستباحتهن بأيمان أولي الأمر.

أراني في مرايا النفس وأسألني: هل رأيتِ.. هل رأيتِ مقدار ما يسكنك

من نور وقوة وأمل؟ فهل سترضخين للضعف فيك وعباءة البدوي وخيبة أمك؟

ففي ثلاثة شهور كويتُ جراحي بالتطلع إلى حريتي، وداويتُ سذاجتي بفصاحة لا تُؤتى إلاّ في البوادي ونقاء الصحراء، ولكن من كنتُ أسابق في هرولتي نحو المجهول؟

أُسابقُ نفسي الخاضعة والذليلة تحت أقدام الوادي الكبير، وها أنا اليوم في الطريق إلى أرض السواد والسلطان أمتلكُ القدرة على كشف ما حولي وما في داخلي من طموحات وتحديات ومجاهيل سأفضّها وسأخوض فيها بما زرعته بي الصحراء من تجدد أبدي، وعقل يثقف بلحظات أمسّ ما يحتاج إليه من العلم والنور، إني أهرولُ بجمال لطالما كان لعنتي نحو قصر الحرير وملذات الحريم، جمالي الذي خشيتْ منه أمي علي، والآن في دفقات روح جديدة إخترقتني أخشى عليه مني.

أعود إلى الأنهد، أفكرُ به بحدسٍ أنثوي لا يخيب ولا يخفي شغفي الآخذ بالتصاعد الآن في هودج هذه الناقة التي أنظم على إيقاع خطاها شعراً أحيطه به حباً دفيناً في فؤادي، فقد كان مُقدّراً له بأن يكون فارسي الأجمل منذ اللحظة الأولى التي حررني فيها من قيد الجند العباسي وذلهم، فارسي الذي أعثره القدر بي ليرمي عباءته على جسدي المنهك من السبي، ويحميني في عمق الصحراء، لأدرك فيما بعد بأنه حين كان يأتيني فجراً كان قد وقع بغرامي، فما مقاطعته لي الآن وإحتجابه عني إلا برهان عشق وحزن على ما إخترته لي من مصير، كان رجلي الأول ولكني لم أكن أنثاه الأولى، بل هي تلك الممتدة بالجمال والفصاحة بوشمٍ يدوي ساطع تحت شفتها المكتنزة بجمرة الفتنة، رقية إمرأة الصحراء ومعلمتي التي طردت جهلي وأحلّتْ محله علي، وعطفتْ علمي رغم سطوة جمالي وتفوقي عليها بالحسن والبهاء، كانت تعشقه بصمت لم ينكث به هو أيضاً، لم لا؟

فهم أهل العشق المكتوم الذي يردي صاحبه بالهم المُميت، إذ طيلة مكوثي لدى رقية وصداقتي لها في خيمة حكايا العرب وخفايا علومهم وأخبارهم، لم تلمح لي بأدنى كلمة عن عشقها للأنهد، بل كانت توحي بصمت

أن دعي عنكِ حبه فأنت لا تقوين عليه يا صغيرة.

فبعد أن طال المقام بي في القبيلة، كانت قد شعرتْ هي بزيارات الأنهد الفجرية لي وسفكه للدماء في سبيلي وحدة غضبه حين قذفت في وجهه قراري، وبدأتْ تتململ في كبريائها من إهتمامه المتزايد بي، ومن أسئلتي المحشوة باللهفة واللوعة على غيابه، فقد كنتُ أتردد دوماً في مصارحتها وسؤالها عن شأنها به لأنني كنتُ أحبها ولا أريد أن أفقدها بكرهٍ وغيرة وحسد، لما أغدقته علي من علم ومكارم.

كان حدسي واثقاً بشغفها الصامت والخفي، من درايتها به وصمته في حضرتها، من قلقها عليه وفرحتها الخفية بلقائه، وكنتُ أنا وسطهما أُخمدُ العشق لأهدم ما تبقى من تهالكي وأبني في ظّلهما بيتاً جديداً، ولكنه ليس من طين بل من حديد الإرادة وصخر الصمود.

إذ عندما إنبلج الصباح في القبيلة وجلّل نوره موكب رحيلي، كانت رقية على أتم جاهزيتها لوداعي بتنهيدتيْن حارتيْن وعناقيْن حميميْن وبضع دموع وكومة تعاليم أخيرة، إلا أنها لم تكن قلقة عليّ بمقدار قلقها على الأنهد الذي سيرافقني برحلة قد تطول وتصل مدتها إلى ثلاثة شهور ستكون كافية في الذهاب لإنفجار عشقه في قلبي، فهل كانت تعلم بأن شأن فارسها سيتحول إلى غرام أبدي سيظلّ يطاردني حتى مماتي من شدة إستحالته؟

إحتضنتني بودٍ وصدق لن يُخيّب حبي لها قائلة:

- فليحرسك الله ويرأف عليك برحمته وعطفه، وأن يحميكِ من شر الزمان ونوازع الشيطان..

أي صغيرتي.. خوضي في الخطأ بلا دنس وفجور، الخطأ يقيكِ ويقودكِ إلى الصواب حيث الخير مُكدّس في وجه الشر، ولا تخشي من خيرك شيئاً حتى وإن كان في إعتقاد الآخرين شراً، إذ هو بالنهاية خيرك المحض ورجاؤك المبتغى..

إن ما أنتِ ماضية نحوها ما هي إلاّ بلاد الغواية وإندلاع الفتن، فلا تَنوني شمساً تسطع في سبيل الآخرين، إذ تمنحينهم النور ولكنك تعمهين أبد الدهر

في الظلام، بل كوني أنتِ سيدة الظلال المرتعشة التي تتراقص على نغم النور المنبعث من داخلك منارة لك تهديك إلى الدرب الصواب.

ثم إقتربتْ مني وعانقتني من جديد بقوة أشد وهمست بأذني بحزم:

- لقد كنتُ على يقين برحيلك فهذا ما قالته الجدة، ولو أنك بقيتِ لنلتِ مما هو ليس لك وكنتُ أنا لقتلتك يا صغيرتي.

صباح الوداع كان صاخباً بلهاث كلامها وتعاليمها، وقطع الشكّ بيقين عشقها للأنهد، فبعد أن أحاطتني بالتعاليم والوصايا التي كان وقعها عليْ مُثيراً للرهبة، باغتتني بعشقها له وإستعدادها للقتل في سبيله.

أهكذا يفعل العشق بصاحبه.. إرتكاب الدماء؟!

نعم، لم لا، كل منا يعشق على طريقته، فالخليفة يعشق السلطان والحكم ولهذا يقتل، والفارس يعشق مروءته وشجاعته ولهذا يقتل، والأم تعشق خوفها على أطفالها ولهذا تقتل، ورقية تعشق الأنهد ولهذا تقتل، وأنا أعشق حريتي القادمة ولهذا سأقتل.

-2-

خمسة أيام من المسير في ركام عاد وثمود، وأثر عقاب الله بأقوام كفرت بالنعيم ونبذت نعمة الخالق.

حيث كانت قافلتي تُبحر في القفر والهجير الذي لم تسكنه سوى تلك القبيلة التي إستعدتُ فيها حريتي وفقدتها في ذات الوقت، إذ فيها إكتشفتُ معنى أن أكون امرأة على غاية من الفطنة والذكاء الذي يُجلّله البهاء، في الوقت الذي منحتني فيه الصحراء الأمان ومعنى أن أكون حرة، وأن أنتزع حريتي من دهر يحكمه المُتجبرون والظالمون.

قالت لي الصحراء أن إنتفضي وخذي مني الإمتداد والسواد والأمان والحرية، ولكنني لم أكتفِ بما أغدقته علي من بركاتها، فقد شعرتُ بأني لم أزل سبية وبأن دمع أمي وحسرتها عليّ وعلى ما أصابني من مذلة وإستباحة لن يكون ذا جدوى في الصحراء، إن الجدوى هناك فيما أنا ماضية إليه، حيث

الخلفاء والأمراء والقصور والأمر الذي إمتلك الحق بإستباحتي، والراية السوداء التي خنقت طفولتي في إلتفافها حول رقبتي، هناك سأكون يا صحرائي ما تلوته علي من وصايا.

كلما نظرتُ إلى ما حولي، وألقيتُ عينيّ على إمتداد الصحراء بجسدها المُكتنز بالكثبان وبدايات الحياة، أدرك مدى سحر القبيلة التي أقمتُ بها طيلة أيامي الماضية، وما حماها من الإندثار وجنون الدهر المحيط بها، إذ هي تعيش خارج الزمان وتُقيم في صحراء خالية من البطش والفتنة والسلطان، ومليئة بأعراب لم يعثروا على الأمان إلا بها، وعلى الحرية إلاّ في رمالها، في عمق الأرض الخالية، ما تحيط وتتحد بها من صحاري أخرى لها أسماء كأسماء البشر مثل صحاري سليل وليلى والنفود والدهناء، وهذا ما قالته لي رقية ذات جلسة مفعمة بأسرار وطنها:

- الأمان هنا سببه غموض الصحراء ووحشتها وخشية الحضر من الخوض فيها، لما عهدوه منها من شظف وجفاف وموت مقيم، لهذا نحن ما نزال على قيد الحياة وحبها لنا، أنظري إلى ما حولك لن تري سوى المزيد من الصحاري، بحر شاسع بالرمال وقلة الكلأ والماء، نعيش على قدر حاجتنا وليس على قدر طمعنا وجشعنا.

هم الذين زاولوا الترحال من كثيب إلى آخر، ومن واحة إلى أخرى بحثاً عن الماء فإن لم يجدوا وعانوا من شحّ الحياة شربوا مما تجود به بعيرهم من حليبها!.

كانوا على سنّة أجدادهم الذين أنجبتهم الصحراء من رحمها العتيق، لم يطمعوا بأي شيء خارجها، بل كانوا يخرجون في الليل ثلّةً ن فرسان صناديد يُغيرون على ما يحتاجون إليه من سُبل الحياة، وغالباً ما كانت غاراتهم تأتي ما بين فترات متباعدة يكون سبب خروجهم فيها شظف العيش والقحط لا سعيهم إلى المتعة وإكتناز الثروات.

كانوا يُغيرون على قوافل الجند الصغيرة المُحملة بإمدادات المال والطعام، أو على أطراف قافلة تجارية غنية بالبضائع لم يسعفها الحظ في درب آمنة

فاقتربت من مكامنهم هم الذين يتقنون ببراعة كيف يثقفون حاجتهم بسرعة البرق، دون أن يُمعنوا في الإفساد والتقتيل، وهذا ما أذهلني، فعلى مقدار تقواهم كانت فروسيتهم، إذ يدفعهم ليلاً حقهم المشروع لهم منذ القدم في البادية، سُنّة الغزوات والغارات والدماء والترحال، التي تقابلها أيضاً سنة المروءة والشجاعة والكرم والشهامة، فكانوا يجمعون ما بين الجنة والنار في خيمة واحدة.

وها هم الآن من أجلي أنا الغريبة عنهم يتكبدون عناء السفرالطويل في سبيل إيصالي إلى مبتغاي، بعد أن عقدوا النية بعهد وحق فارسهم الأنهد على حمايتي وصوْني إلى أن أخرج من عباءتهم هم، لا من عباءة الأنهد التي طويتها وخبأتها في أعماق فؤادي، لتبقى معي حتى مماتي رمزاً لمهد إنعتاقي، وغطاءاً يقيني من برد القادم ووحشته.

-3-

وحدهم الذين ولدوا في هذه الأرض، يعرفون طرق الصحراء وإتجاهاتها، ومعهم عرفتُ ما معنى الشمال والجنوب والشرق والغرب، يسيرون بدعة وطمأنينة واثقين من خطى قافلتهم، فالغريبة عنها مثلي ترى الصحراء بحراً مخيفاً عاصفاً بالمجهول لا يُعرف شرقه من غربه وسط خلائه من الخضرة والأشجار والأنهار، حيث لا شيء سوى الأصفر ذهب يختبئ في ذرّاته الموت، ولكن عندما أكون برفقة سادة الرمال سأعرف حتماً أن هذه الطريق إسمها طريق مصر أو البصرة، وتلك طريق هيت وأخرى إسمها بطنُ السرّ، وهكذا كأنها طرق مرسومة بعناية سحرية لا يكتشفها سواهم، لأعرف فيما بعد سرّ الطمأنينة في دروب الصحراء، إذ هو نور السماء في الليل، نجومها كانت منارات القوافل، ومن لا يدرك النجوم يبتلعه كثيب أو وادٍ قفرٍ ينقضّ عليه بالوحشة فيقتله ذعراً وخوفاً.

معهم عرفتُ بأنني ذاهبة بكل ثقة بإتجاه الشرق حيث جنة السلطان وأمير العباد والمؤمنين.

في رحلتي الشرقية.. رحلة شتائي وصيفي أنا، كنا نرتاح على فترات تعتمد

على سرعة البعير وأجواء المناخ، وغالباً ما كانت البعير تحثُّ المسير من وقت الصباح وحتى مشارف الظهيرة التي كان يشتد فيها القيظ وأُوار الشمس علينا، لنلجأ إلى جمع نخيل صغير إنبثق من رحم القفر فجأة ليحمينا من شدة الحر، أو في فيء جبل أجرد فقير إنسابَ من تصدّعه المحزون علينا دمعه ماءاً خجولاً، أو في رطوبة صخرة عاتية من اثر العرب البائدة.

وكنتُ في فترات الراحة أتوقُ إلى الأنهد، دون أن أقوى على مبادرته بالكلام لما شعرتُ به من حزن إجتاحه هو بسببي، ولهذا كنتُ أسكن هودجي عندما تكون فترة مكوثنا قصيرة، فإذا أطلنا ففي خيمتي الصغيرة التي عرفتُ فيما بعد أن إسمها خباء.

كنتُ ألمحهُ مسهماً في أشجانه طيلة الوقت، رغم ما كان يهزج به حراس ورفاق الرحلة حوله من شعر وحكايا تشد من عزم السفر في الصحراء، فكان إذا أراد شيئاً إنفرد بعُقْبة صاحبه الذي لمستُ فيه أيضاً الشهامة وما أسبغته عليه صداقته للأنهد من فروسية، أو بأبي عمرو شيخ القافلة الطاعن بالحكمة وخبرة الصحراء.

كانت قافلتنا بعدما أصبته من حسن التقدير في معرفة الإتجاهات تتجه شرقاً، إلى أن أخذت رويداً رويداً تنحو نحو الغرب المائل لجنوب الأرض، فسألت عقبة عندما حاذاني بجواده:

- ما أشتمُّ إلاّ نسيم الجنوب يا عقبة؟

فأجابني باسماً:

ها قد بدأتِ تكنهين جوانب الصحراء فقد صدقت..

- وإلى أين نمضي؟

- لقد أوشكنا على الخروج من صحراء الدهناء، وسنحاذي بعد قليل طريق مكة حيث المسير أيسر والدرب أجلى وأأمَنْ.

سألته بلهفة مفعمة بالفرحة:

- وهل سندخل مكة المكرمة؟

أجابني بمكر:

- هذا شأن الأنهد فهو أمير ا قافلة.

ثم لكز جواده وإنطلـق إلى مقدمة القافلـة حيث صديقه الأنهـد، وبقيتُ أنا في فرحتي لا لأنني سـأرى مشـارف مكـة فقط، بـل لأن الأنهد كان قـد حدثني ذات فجـر عـن رهبة المسـجد الحـرام وجمال مكـة، وبأنـه سـيأخذني ذات يوم إليها، وها هو قد فعل، فيا لنُبله هو الذي رغم إجحافي وجحودي بحقه وعباءته برحيلي عنه يعطف عليّ الآن وعلى أمنية طفولتي بتحقيقها.

إذ هي مكة المكرمة، قِبْلَةُ العرب منذ قديم الزمان، والمسلمين الآن ومهد دعـوة محمد الأميـن، هكذا عرفتهـا، من حديـث أمي عنهـا، أمي التـي لم تحظَ بحجةٍ إليها برفقة أبي بعدما آل إليه بيت أسرتنا المنكوبة.

ها أنا على مشـارفها بموكـبٍ يزفّني إلى ما تبقى من سـبيٍ بـدأ في جنوب الأرض لينتهي في مشارقها.

بقافلةٍ تسـير في أجواء دهرٍ تتغـذّى لحظاته مـن أول أيام شـهر ذي الحجة من عام خمـسٍ وأربعين بعـد المئة الهجريـة الأولـى، حيث كانت الطريق تشي بآثار قوافل الحجيـج أفواجاً إلى بيـت الله الحرام، لأرى بيـاض إحرامهم الطاهر من بعيد وهم يهرعون نحو مرضاة الله بركن من اركان الإسلام حج البيت الذي سألقي عليه سلام حزني وإيماني العميق بربه.

لم يشـأ الأنهد إختلاط قافلتنا البعيدة كل البعد عن مظاهـر الإحرام بقوافل الحجيـج حرصاً منه على تجنـب الفضول وما تثيـره هذه القوافـل بإجتماعها من شـؤون الأسـئلة والتعارف وتداول أحداث الدهر ومجرياته، لهـذا فقد عزم على محاذاة درب الحجيج بطريق جانبية أفضت بنا إلى سـفح جبـل أجرد، كان مكاناً مناسـباً لكي نحط فيـه رحالنـا طلبـاً للراحة وشـحذ الهمـم، لحين جـلاء قوافل الحجيج عن الطريق التي سنسير بها غداً.

كان شوقي عظيماً مشـوباً بفرحة طغتْ على أساريري لأنني كنتُ في أجواء مكة المكرمة وحرمها الشـريف، فكل ما حولي مقدس، هكذا شـعرتُ رغم أنني لم أدخل مكة ولم أرَ بيتها الحرام، شعورٌ بالسكينة حلَّ عليّ ومنحني المزيد من الإيمان بأن الله سيُشفي ألمي بعزيمة وصبر أستمدّها من رحمته وعطفه.

لم أَنَمْ.

بقيتُ على أرق مريع طيلة الليل فـي خبائي، افكرُ بمقدمات الرحلة، وبمكة المكرمـة إذ هـي وقفتي الأولـى التـي دعاني إلـى رؤيتها والإحسـاس بقدسـيتها إصراري على محق مصيري، لكي أستمدّ منها إنكشاف المجهول ونور الإيمان.

فدعوتُ الله

دعوتُ بكل ما أوتيتُ من طفولة وإيمان وخوف وخشوع:

أيها الرؤوف العطوف..

يا مُسيرّ الأشياء بأمرك..

يا عليماً بذات الصدور

إمنحني السكينة وطهّرني من رجس الدهر.

وإحمني في أمري

يا الله.. يا من تغفر الذنوب وتطهر القلوب..

سدد خطاي بعظمتك وبنورك الساطع أنر دربي..

أنا أمَتُكَ العَزّة المسـكينة إعطف علي بحريتي واحرسـني من شيطان الدهر وشرور أعماله.

ثم بكيتُ

بكيتُ بحسـرة وألم لأنـي شـعرتُ للحظة كم أنـا ضعيفة ووحيـدة وحمقاء لأنني القيتُ بنفسي إلى تهلكة السبي.

إختلط فجأة وعصف كل شـيء في داخلي، الضعف بالقـوة واليأس بالأمل والإرادة بالخنـوع، وأوشـكتُ علـى الصراخ، أن أطلب مـن الأنهـد إعادتي إلى جنوب الأرض حيث أمي المنكوبة بلوعة فراقي وغيابي.

ما الذي أفعله؟ ما الذي سأفعله؟

أهكذا في هذه الأجواء المقدسـة أكتشف هشاشـتي، وبأنني آنية خزف رغم جمالها الآخّاذ إلاّ أنها بهزّة خفيفة تتهشّم في هاوية الدم.

أريد أن أعود، لا، لن أكمل الدرب، اريـد أن أعود إلى دفء أمي، بإمكاني الآن أن أسـكن عباءة الأنهد إذ هو يحبني ويعشـقني وأنا كذلـك أيضاً، يكفي أن

أقول له الآن أعـود معك وأعيش وُموت فيك ومعك، يكفـي هذا الإفصاح لكي يحبني ويُشـهر حبه كما سـيفه في وجهـي ووجه الدهر، أنـا التي إبتعـدتُ كثيراً، وباتت المسافة ما بيني وبين بيتي مأهولة بالفراغ والخواء.

يا إلهـي.. إرأفَ برحمتك، وإرفع مـن قدري وأعزّني بجلالـك ولا تأخذني في جهلي وغيّ مصيري.

أخشعُ في دعائي المبلل بالدمع، دعاء كشف لي مقدار ينوعي وحداثة سِنّي وحلمي ونضجي، لـم أكبر بعد، انا المقاء الحمْقاء الصغيـرة ببضع وصايا وحكم وحكايا إعتقـدتُ لوهلة بأنني قد إمتلكـتُ العلم كله والفصاحـة ببلاغتها وبيانها، وغدوتُ على قـدرٍ من المعرفة التي قـد تحميني في مواجهة قـدري القادم الذي إخترته أنـا بعد أن منحتنـي الصحراء الأمـن والحرية وفارس تجـاوز زمانه بقنوع سيفه ونبل فؤاده.

فهل كنتُ على صواب؟!

أنتفضُ فجأة..

أكفكف دمعي واقول لنفسي لا..، لا فلولا الصحراء لما عشقتُ مكة الآن، ولولا جلل مصابي لمـا أدركتُ حاجتي إلى الإنعتاق، لا.. لا، لن أعود منكسـرة نكرة فـي طيات الدهـر المتوحـش، لن أعـود أنـا المقاء انثى سـبأ وظـل بلقيس الممتد في الأرض، نعم، تحميني أحلامي وتدفق دم الأصل في عروقي.

أدركُ الآن بصيرتي وبأنني قادرة رغم الدمع والوحـدة وتباريح الفراق، نعم أنا قادرة، هكذا يتملكني إحساس غريب في خبائي ليقول لي بأنني قوية وسلطانة وملكة من جرحي سأبزغ حُرّة.

لن أعود إلى سـابق البيت العتيق المتهالك، وما أدى إلى تشـتّتي وضياعي، بل سأمضي يا جنوب الأرض، يا أمي، سـأمضي إلى ما سـأصنعه بالجارية السبية من امرأة حرة ممتدة بالبهاء والذكاء. أُلملمُ ذاتي من جديد..

أداعبُ حلمي وأطالبـه بالمزيد من الثبات والصبر لحيـن الوصول، فالدرب طويلـة وقارعتها هاوية شـيطانية، ومـا أنا بحاجة إليـه الآن هو المزيـد من رحابة هذه الأرض المباركة، ومن إحتفائها بي وإحتفائي بها.

-4-

كنتُ أحْدسُ بقدومه بعد عشرة ايام من الغياب في القافلة، مُختلجةً بشوقي إليه هو فارسي الأبهى الذي لا يعرف سوى الفجر موعداً للقائي، فكان الفجر له في شعاب مكة المكرمة.

فتح باب خبائي بهدوء ثم قال هامساً:

- تعالي.

كان على ثقة تامة بأني يقظة ولم أنم، ورغم يقين حدسي بزيارته لي إلاّ أن قشعريرة حادة سرتْ في اطرافي وأردتني للحظات في فراشي مضطربة حائرة إلى أن تداركتُ حضوره، فهيأت نفسي بدثار وحجاب وبرقع ثم خرجتُ من خبائي بصمتٍ لا يليق إلاّ بفجره.

إمتطى فرسه الدآديء ثم مدّ يده لي قائلاً بتودد:

- هيا سأريكِ حلماً من الجنة.

أردفني خلفه على متنها، فلم تمنعني دهشتي من عناق خصره الدافئ والصلب، بعد جفائه المباح لي لأنني نزعتُ عباءته عني، عانقته بقوة، لا بل صهرتُ جسدي به، ودفنتُ رأسي في ظهره مُخبّئةً به ما تبقى من دمعي.

كنتُ أعانق الدنيا..

إذ تكفيني اللحظة السرمدية معه حتى أرتد عن عزمي، تكفي لأني أصبحتُ أميرة يصحبها فارسها إلى قمة جبل العشق المقدس.

كانت الدآدئ الدؤوبة الرشاقة والخفّة، تتسلق الجبل كبُراقٍ أجزاه الله للأنهد لحسن دينه وأمانته وخُلُقه، وكان الصباح في طريقه إلينا إثر إجتيازنا للفجر بركْبِ عشقنا المكبوت.

أردتُ أن أراه في النور، في سطوع الصباح الندي والبهي، وأن أراني أعانقه من الخلف بسوادي وسواده على متن براقنا الأدهم، إذ كنا مُجلليْن بالرحمة وصباح الله المشرق والمنتشر في أكناف مكة وشعابها.

وصلنا قمة الجبل مع جلاء الفجر عن الديار المقدسة لتحلّ محله إشراقة

الصباح الصافية وغرامي الجلي بالفارس الذي لطالما باغتني فجراً.

ترجّلَ عن صهوة الدآدئ وأبقاني أنا فوقها، لم يتفوه بأدنى كلمة بل جذبَ لجام الفرس وساسَها إلى الأمام قليلاً حتى شارفنا حافة القمة شعرتُ للحظات بأني مُعلّقة في السماء نجمة ساطعة، إلى أن أعادني إليه مشيراً بيده غرباً:

– هناك.. أنظري..

ونظرتُ..

رأيتُ حلماً.. رأيتُ ما أخذ أنفاسي ومنحني البكاء، رأيتُ من قمة الجبل العالية ودفقات الصباح الجلي الكعبة المشرفة بثوبها الأسود الموشّى بالذهب تتربع في منتصف صحن المسجد الحرام، والحجيج يطوفون حولها هالةً من بياضٍ ناصع تلفُّ سواداً سماوياً مُطهراً أضفتْ عليه إشراقة النور الإلهي المزيد من الجلالة والقداسة والطهر.

شهقتُ بقوة، لم أتمالك نفسي فكدتُ أن أقع عن متن الفرس في أوْج إندهاشي مما رأيت، تداركَ الأنهد رعشتي وإضطرابي فقام بإنزالي عن الدآدئ قائلاً بدهشة:

– على رسلك يا مقاء، فلو أني كنتُ أعلم بأنها ستفعل بك هذا لما صعدتُ بك إلى هنا لكي تريها عن قرب.

قلتُ له مختنقة ببكائي:

– لقد أذهلتني أيها الأنهد بهدية الصباح هذه، فقد أحلتَ حلماً حقيقة، فكيف أُجازيك على صنيعك هذا؟

نظر إليّ بأسَىَ، شعرتُ به، كاد أن يقول لي ببقائك، جازِني بعودتك معي، سمعته يهتف بذلك في فؤاده، إلى أن تمالك نفسه قائلاً:

– لو أنك عزمتِ على الرحيل بعد الحج الأعظم لأخذتكِ إليها ولجعلتك تلمسين ستائرها مُبتهلةً لله، ولكن إزدحامها بالحجيج الآن يحول دون هذا.

– يكفي ان أراها من هنا لأشعر بأني قد لمستها مُتضرعةً لرب البيت بخشوع وإيمان.

- لقد حججتُ خمس مرات ساعياً وراء مرضاة الله ومغفرته.
- خمس مرات؟!
أجابني بإبتسامة سرقها من هيبة حزنه:
- نعم وهذا العام أحجُّ بصحبتك ولكن إلى عراق المسلمين هذه المرة.
أعادني بإجابته هذه إلى ما كنتُ فيه من مواجهة ما بيني وبين نفسي في الخباء، وكأنه قد حسم أمري بإجابته رغم ما خبّأهُ بها من حزن على فراقي وعزمي على الرحيل.
فقلتُ له بعد أن خفّفتُ من حدة مرارتي:
- إن مرافقتك لي في هذه الرحلة ستؤمن لي ما أرجوه أيها الأنهد، فما أدركتُه في قبيلتك جعلني أتوق إلى حريتي...
قاطعني بحدة كاد أن يفسد بها بهجة الصباح:
- وهل حريتك هناك؟! أتعتقدين بأنها تنتظرك في بغداد أو الكوفة على أسرّة من ديباج وذهب؟!
ألم تستردّي حريتك في الصحراء؟!
فأجبته بهدوء مُتجنبة حدته:
- لا والله.. بل ما عرفته وثقفته في القبيلة كانت حاجتي إلى الإنعتاق الحق، ومحق الضعف الذي جعلني فريسة للطغيان والسبي، إن الصحراء كشفت لي قيمة الألم فسعيتُ نحو المزيد منه بتقدمي نحو من إمتلك الحق في سبيي وإستباحتي، أنا على ذمتهم أيها الأنهد.. مُلك أيْمانهم ولن ارتد حتى أنعتق من ذُلّهم..
- لو أنّي كنتُ أعلم بأن الصحراء ستفعل بك هذا، لما أخذتك إليها.
- وإلى أين كنتَ ستأخذني إذن؟
- لكنتُ رددتك في اليوم التالي إلى ذويك.
نكأ جراحي، إلاّ أني كويتها بسرعة قائلة:
- ذويّ من ذل جنوب الأرض التي في غفلةٍ منها سُبيت دون ان يقوم أحدٌ فيها من أجلي، فلو كنتُ صريحة النسب بظلّ أبٍ مُمتدٍ في قبيلة تفاخر

بأصلها لما تجرّأ عليّ سيف الجند وقيد السبي، هذا ما أدركته في الصحراء أيها الفارس، إذ من عدمٍ ودمٍ سأصنع أصلاً ونسباً لحريتي ووجودي.

هزّه حديثي فأشاح بنظره عني مُسهماً في أفقه البعيد للحظات ساد فيها صمت ثقيل إلى أن قال بخفوت:

- في غياهب الصحراء، هناك أصلي الذي رضيتُ به وبنسبٍ يشدُّ من أزر وجودي فارساً نبذته القبيلة الكبيرة، فما نفع النسب حين تخذل العشيرة إبنها وتجحفُ بحقه؟

أمسك عن الكلام للحظات أعاد فيها عينيه السوداوين من بعيده لكي تحتلاني بحزنهما العميق، ثم سألني بمرارة:

- وماذا تصنع جارية في تكاليف الحياة وطغيان سادتها، فإلى حيث أنت ذاهبة لا شيء سوى الجحيم والمذلة والخنوع..

قاطعته بشيء من الحدة:

- وأعلمُ أكثر من هذا، ولكن ثمة ما يحرسني من شرور الدنيا، مسٌّ غريبٌ أصابني وأحالني إلى ما أنا فيه الان من تمرد وغضب، وما يحميني أكثر هوالنورالذي اضاء لي ملامح نفسي ودربي في الصحراء، فلا تقسُ عليّ أكثر بخوفك فقد قُضِيَ الأمر.

أذهله حديثي فقال متعجباً:

- ويحك.. كيف إستطعتِ في هذه المدة القصيرة ان تحوزي على فصاحة القول وبريق الفطنة وهذه الإرادة العاتية.

كدتُ أن أقول له حسناً لن أذهب سأعود معك بعد أن لمستُ حبك لي وخوفك علي، ولكني كتمتُ شغفي به ومحقتُ ضعفي في حضرته، عندما إمتطيتُ الفرس في غفلةٍ منه قائلة بمرح سعيتُ من خلاله تبديد أجواء التوتر:

- هيا.. أيها الفارس فكما صعدتَ بي سأهبط بك.. هيا.

فاجأته بإمتطائي لفرسه بخفّة، فشعرتُ بأني قد خدشتُ فروسيته.

لملم حضوره.. كظم غيظه.. تفرّسَني قليلاً ثم إبتسم قائلاً:

- لكِ ما أردتِ ما دمتِ صاحبة الرحلة وعواقب المصير.

لكزتُ الدآدئ برقّةٍ فاستجابت لسحر الطقس على متنها، إذ كنتُ أقودُ الأنهد في شعاب مكة وهو بيديه القويتيْن يمتشق خصري الليّن بلطفٍ ونعومة.

تمنيتُ في سرّي أن يحتضنني بقوة وحميمية كما كنتُ أحتضنه في فجر القبيلة النقي، أن يتشبّث بي، ان يهمس بأذني قصيدة عشق وهيام، بعد أن شعرتُ بأنفاسه تلفُّ جسدي بشغف ودفء، توسلتُ أبد اللحظة حتى يسود عليَّ ويأخذني فارس قلبي إلى سديمه لأستكين فيه وأقيم.

كدتُ أن اقول له أنا فرسك فامتطيني وإهصرني بدفء يديْكَ عبير حب، واعرج بي إلى حيث نصبح كوكباً دُرياً يضيء درب المساكين والمستضعفين في الأرض.

ولكنه كان على حياء إكتشفته من إرتعاش يديه على خصري وتردده في التشبّث بي، عندما كانت الفرس تترجّلُ عن الجبل بطمأنينة إمرأة نائمة يحرس حلمها عاشقها، إلى أن شرع هو في حديث سعى من خلاله طرد فتنة الطقس الصباحي المشرق:

- أوَ تعلمين أن أجدادك كانوا في قديم الزمان سَدَنَةُ الكعبة بعد أن سكنوا مكة؟

أجبته كالمستيقظة لتوّها من حلمها"

- كلا فأعلمني.

- عندما إنهار سدُّ مأرب وخَرُبَتْ جنان سبأ بعقاب من الله، تفرقت أقوامها في الأرض، ومنهم قبيلة خُزاعة التي قصدت مكة وأقامت فيها بعد أن طردت منها قبيلة جَرْهَمْ، ليصبح زعيم خزاعة وكاهنها الأكبر عمرو بن لحيْ سادن الكعبة وأول من أدخل إليها الأصنام وكبير آلهة الجاهلية هُبَل، إلى ان جاء جدُّ نبيّنا محمد عليه السلام قصي بن كلاب فقام على أجدادك وطردهم من مكة، ولكنه ابقى على هُبَلْ لتعبده قريش ومعها معظم قبائل العرب إلى أن جاء الهدى على لسان محمد عليه السلام.

بالطبع كانت هذه أيضاً إضافة أخرى إلى ما إكتنزته من معرفة وعلم على أيدي أهل الصحراء، فقلتُ له مداعبة:

- لو كان لهُبل الحق واليقين لما زال بطينة وهَبَلَتْهُ أمة ومعه سَدَنَةُ الجاهلية من أجدادي اليمانيين.

ثم إنخرطنا معاً بالضحك والإنشراح والمودة حتى سَفْح الجبل.

إنجلى حزني لأن الرحلة ستأخذ منذ اليوم منحى آخر سُيجلّله الأنهد بطغيانه على فؤادي، وأسَرِهِ لي بخفايا الصحراء وسحر طرقها التي أرتادها الآن سبية ثم سبية ثم حرة.

* * *

الفصل الرابع عشر:

عهد الإنعتاق

كان عهدها عهد قصر الخُلْد

فما الذي كانت تنشده وترجوه وهي تراودُ طرقات المنصور بقوامها الممشوق، وترتاد بظلها الممتد أروقة قصر ومنارة الخلافة العباسية وراياته السود الخفاقة؟

فقد اصبحت محظية حاكم البلاد وأمير العباد، فمن سواها من الجواري كانت تحفل بالمسير حيث سار المنصور، والنوم حيث نام، والأمر حيث أمَرْ.

إذ إشتد بها المقام وطاب بثلاثة أمراء نالوا ما نالوه من رعاية أبيهم لهم، وإزدادت ألقاً، غدت نجمة في سماء القصر، تُسبّح بما أزجلَ عليها حلمها من الزهو والغبطة والتحول من مجرد جارية إلى امرأة قاب قوسين أو أدنى من النعمة الكاملة والحرية الغالية.

وكانت تلهث من سرعة حظوتها، وتحاصر قدر إستطاعتها تلك الشهوة التي أخذت بالتمرد والإنتشار في داخلها، شهوة إندلعتْ على حين غرّة لتحرق ما تبقى من حريرها الخانع.

ومع عهد الخليفة الجديد، كانت ترنو إلى التريث، إلى هدأة ليل تتناول فيه بالتدقيق والتمحيص ما أصابته في القصر، إلى أن يفاجئها الفجر بأسئلة جديدة، بقهرٍ آخر ما يلبث أن يحتلها مجدداً مطالباً إرادتها بالمزيد من الشحذ في سبيل ما هو قادم، في سبيل المجهود الذي إذا لم تفضّهُ الآن في عهد المهدي فإنه سيلتهمها، سيلوكها ثم سيقذفها إلى قارعة القصر، من هنا إندلعتْ شهوةٌ تنافتْ مع سنيْ براءتها وبساطتها وتلك السذاجة التي ما تزال مختبئة في طيات فؤادها، إذ لم تعد تكترث بموكب الأميرة العباسية ريطة، لم يعد رونق الأميرات

يُلبي طموحها، فقد كان تطاول ظلّها يحرس تلك الشهوة التي إذا لم تقم هي بالتحكم بها والسيطرة عليها فإنها ستطيح بها عن صهوة حلمها،

ولذلك كانت الخيزران في مرتعها وحزنها الدفين داخل حجابها ولياليها المختنقة من السواد وشاهق الأماني، كانت تتفحص بحدس أنثوي صارخ أثر القصر فيها، في جسدها وروحها، وطولها الفارغ الذي إستمدّ سحره من حلمها لتكشف فيما بعد أن اللعنة في تجلّيها المرعب ما هي إلاّ بركة ذواية نورٌ ما يلبث أن يتحول إلى لُجّة ظلام ورماد من كل قلب وصوب.

لعلها كانت على يقين بأنها ستكون على قدر حلمها الحازم وإرادتها وشغفها، على يقين بإلتحامها القريب بالإنعتاق، إلاّ أن ما أحالها فريسةً خاضعة لشهوتها هو ذلك السؤال الذي كان يفاجئها على حين فجر، بعد أن تنهي معتاد سهادها وتهجدّها: ماذا بعد؟ ماذا ستكون نهاية المآل وذلك المطاف المخيف في أروقة القصر وعباءة الخليفة؟

إذ ما الذي كان يميزها عن جوارٍ أخريات؟ فأم المنصور كانت جارية، وأم أبي العباس السفاح كانت جارية، والعديد من أمراء البيت العباسي هم أبناء جوارٍ، سوى المهدي الذي كانت أمه "أروى الحميرية" اليمنية الحُرّة التي إشترطت على المنصور حين عزم على الزواج منها بألاّ يتسرّى ويملك في يمينه الجواري أو حتى أن يتزوج دونها امرأة أخرى إلاّ بعد مرور عشر سنوات على زواجه منها فوافق المنصور.

والخيزران كانت يمانية أيضاً، ورغم حظوتها وإندلاق المهدي عليها بعطفه وحبه، إلاّ أنها لم تكن سوى جارية أم ولد، أنجبت الذين تجري في عروقهم الدماء العباسية السامية، حيث هنا تكمن الشهوة، هنا تقيم داخل الجارية المؤمنة بإنعتاقها القادم، امرأةٌ حرةٌ لن تُضفي على حريرها سوى قيمة الحرية، لا شيء سيتغير سوى ذلك المعنى الذي سيحلُ عليها سلاماً من خلال إتيانها بأهلها من اقاصي البلاد، معنى الجارية الذي سيصرح قائلاً في وجه أمها وأسرتها:

– ها أنا يا أماه محظية وزوجة الخليفة الحرة.

إذ هي والله لشهوة تفاحتها الشعرية، وتلك القضمة الشهية التي لم تكن

www.ibtesama.com
تنسيق: علامة تعجب

سوى خطيئتها المُؤجّلة التي حلّت عليها وتجلّت شجرة معرفة.. سطوة.. تحكم.. تمدد... نفوذ.. سطوع.. لا لن تبقى مجرد جارية لا تملك من أمرها شيئاً سوى زُغْبِ اللذة.. بل ستقيم في فيْء شجرتها الوارفة..

حيث كان يزورها سيدها الخليفة الجديد، ليبوح لها بما يجيش في صدره من شؤون العباد والجيوش والبلاد، فكانت على قدر من الخفة واللوعة والبيان كما هو معهودها دوماً القاضي بإستدراجه إلى أعمق أعماق الفردوس في سبيل التخفيف عنه، خاصة في تلك الأمسية التي لن تنساها الخيزران ما بقيت، عندما كان المهدي ساهماً على غير دأبه من الإبتهاج والسرور بإجتماعه بها ومواكبته لدلال سحرها.

كانت مُستلقية بجانبه في سريرها الرحب، أما هو كان يجول سارحاً بهمومه في سقف جناحه، إلى ان ضاق صدرها من صمته الثقيل، فأقبلت عليه واثقة من سبرها لأغواره، وإلتصقتْ به هامسة بإذنه:

- ما بال مولاي الخليفة يمنعني عما يختلج بصدره ويحرمني من حمل همومه؟

تنهد بحرارة، ثم إلتفتَ إليها مُمّرراً يده في ليل شعرها، ثم قال بخفوت:

- ما هي إلاّ شؤون الخلافة وأغلالها في عنقي يا جارية.

مسّدتْ بيدها الدافئة على وجهه بتودد ساعية إلى شرح صدره:

- فأعِذْ لي يا مولاي أميري الجميل دون الخليفة الحزين.
- وحظوتك لدى الخليفة أتضحّين بها في سبيل الأمير يا جارية؟!
- كنتُ قد ضحيتُ من قبل بأمري وعمري في سبيل الأمير!

داعب شفتيْها المكتنزتيْن بالفصاحة والفتنة:

- وأين أميركِ هذا حتى أقتله وأسرقك منه؟

أشارت بيدها إلى قلبها قائلة بغنج:

- هنا.. يا مولاي.. أميرُ فؤادي فإذا قتلته قتلتني.

فدنا من أرض فؤادها ولثمَ ترابها المُخضّب بعنبر الغواية إلى ان تمنَعتْ هي بلطف ودلال:

- فمن الذي يقضُّ مضجعُ أميري حتى أقتله؟

إرتدّ عنها مُستلقيًا على سابق شروده للحظات كانت هي تعدُّ ها بفضول وإثارة إلى أن قال بجزع خافت:

- لقد علمتُ اليوم أن ثمة من يحجب عني مظالم فقراء وبسطاء الرعية مُقدماً عليهم مظالم الأغنياء والسادة مقابل الرشاوي والهدايا، وهذا ما أثار غضبي وخشيتي من ظلم رعيتي في باكورة خلافتي وعهدهم بي.

دنتْ منه من جديد وسألته بحزم طرد عنها غنجها:

- وهل عرفتَ يا مولاي من الآثم الذي سوّلتْ له نفسه بذلك؟

أجابها بمرارة:

- كلا والله، ولكنه ريثما يفضح نفسه بنفسه، حينها سأذيقه ويلات العذاب ليكون عبرة لغيره.

- ومظالم الرعية يا مولاي؟

زفر بحرارة:

- هذا ما يُطبق الخناق عليّ إذ ظلمتُ بالعدل وعدلتُ بالظلم!

ثم ساد صمت ثقيل بدّدَ في سريانه فتنة الطقس، وظَلَّ فيه المهدي على إستلقائه مهموماً ساكناً بعينيه في سقف الجناح، في الوقت الذي كانت فيه هي محظيته قد أغمضت عينيْها المباركتيْن بالإثمد كما لو أنها شرعت في رحلة إلى أفق التعاويذ السحرية لكي تجلب ما يُخفّف من وحشة سيدها وكآبته، إلى أن عادت وفتحت عينيْها بقوة، وإنتفضت بجانبه جاثية على ركبتيْها في السرير، يكتسيها إنشراح مفاجئ باغتَ المهدي وأرجعه من إسهامه:

- ما بك يا جارية؟

أجابته بحماسة:

- عدلك يا مولاي

- وكيف هذا؟

عادت إلى الإستلقاء بجانبه لتلُفَّهُ بأريج شعرها ثم قالت بحزم:

- أقِمِ العدل والقسط يا مولاي بإقامة ما يُجنّبك غضب الله عز وجل وظلم

الرعية، إذ بدلاً من أن تدخل عليك بعض مظالم الرعية في عرشك، أقِمْ غرفة صغيرة بجانب القصر لا منفذ لها سوى باب حديدي وكُوَّة ضيقة بحجم كف اليد يستطيع من خلالها الناس إلقاء مظالمهم وكتبهم إليك، وعندما تمتلئ الغرفة تدخلها أنت يا مولاي ليلاً لتنظر في كافة المظالم دون ان تظلم أحداً من الرعية أو أن تُقدّم أحد على أحد آخر.

ثم صمتت بإبتسامة مشرقة على وجهها كما لو أنها لم تهزّه، لم تباغته، لم تجرفه في سيْل حكمتها العارم، كان يحدق بها مشدوهاً بعد أن أنارت له سُبل العدل في عرشه، فتهلّلت أساريره بعد ان بنى الغرفة في رأسه ولمسَ عدله بإحاطة رعيته له بالحب والولاء، ثم ضمّها إليه بقوة وسعادة قائلاً:

- ويحك فقد أصبتِ وصدقتِ يا جارية.

هكذا.. كانت تحمل همومه عنه لتُحمّله في نفس السرير بأكبر قدر ممكن من امانيها وتطلعاتها، إذ كانت تُبصر كل ما حولها بدراية وبصيرة وقدرة تامة على التشوّف والتنبؤ بما هو مُستتر بالغيب، لم تُغرها هدايا المهدي بالخنوع، ولم يمنحها القصر الجديد ذروة الكفاية، وكل ذلك البذخ الباذخ والترف الفاره، والثروة المتكدسة في أروقة وأجنحة القصر، فهي منذ البداية لم تُسبغ أية قيمة على كل ما يتلألأ من مُتع الحياة داخل قصر الخليفة، كان هدفها في مهد سبيها واحداً أوحد، الإنعتاق، وها هي على مشارفه.

إلاّ أنها بقدر ما كانت تقترب، كانت تشتد بها الرعشة من تلك الشهوة التي حاصرتها ناراً حارقة بعد أن أقامت في حجاب الخليفة، لتراقب وتبارك كل ما يقوم به مالك أمرها من بناءٍ للدولة ومدّ نفوذه وسيطرته على كافة أرجائها.

كانت في حجابها الجديد الأُبهة على أُبهة غزالةً للقصر، سيدة قلبه، قلب الذي أخذ العهد عن أبيه خليفةً في الرابعة والثلاثين من عمرٍ نشأ فيه على بصيرة المنصور وسديد حكمه.

كانت تراه..

وتلمحهُ في عباءة الحكم يصول ويجول ويأمر وينهى ويعفو ويغضب تلفّه وصية أبيه الأخيرة له:

"لقد تركت لك ثلاثة أنواع من الناس: الفقير الذي يتوقع ان تُغنيه والخائف الذي يتوقع أن تحميه، والسجين الذي يتوقع ان تطلقه، فأوسع لهم دون إسراف".

ففعل المهدي، وساسَ العباد والبلاد، إذ قام بالتودد إلى العلويين وأجزل عليهم العطاء وأطلق أسراهم، وأعاد ممتلكاتهم، كما أمر بفكّ الحصار التجاري عن الحجاز، وشرع بكل ما كان منافياً ومناقضاً لسياسة أبيه الحازمة، فما بعد العسر إلا اليُسر، فأنفق أكثر من مئة وعشرين مليون درهم على ما سيُخلّده به التاريخ خليفة كريماً ومحباً لرعيته، بالإضافة إلى قيامه في أول عهده بأمر صغير لا يكاد يُذكر في حافل تاريخه، ألا وهو حذفه لإسم الخليفة الوليد الأموي عن جدران المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة.

كما أنه في بهاء سلطانه الجديد، لم يكن ليختلف عن الخيزران داخل مجلسه، فقد كان داخل حجاب هو الآخر، عرشٌ يحجبه عن الرعية والحاشية، فلا يدخلنّ عليه أحد بلا إذن مُسبق سوى الحاجب الرابض على باب عرشه وسيطاً ما بينه وبين من كان يريد الدخول إلى سُدة عرشه، هو الذي أضفتْ الطقوس السلطانية على عباءته هالة من القداسة والطهارة، فمن ذا الذي كان على حظوة ليلمس فقط طرف خيط مُنسلٍّ من عباءته أو أن يقترب منه بإنحناء شديد ليقبّل يده؟

وحدها فقط.. كانت الخيزران على مقربة شديدة من هذه القداسة تراقب المهدي بلهفة وهو يتداول شؤون الرعية والحكم مع وزيره وأولي خلافته.

-2-

بُعيْدَ صلاة المغرب، كان مجلسه قد خلا من مشاغل عامه السلطاني الأول كبريد الولايات وشؤون الأمراء والجيوش، إثر عودته من خراسان التي كان مقامه قد طال بها لما يزيد عن الشهريْن، لكي يكون على مقربة من مجريات المعارك التي تخوضها جيوشه لوأد الفتن الفارسية وحركات التمرد، والأهم من ذلك كله نجاحه الباهر هناك في إنجاز شأن أحاطه بخشيته على عهد الخلافة.

كان مُتقداً بالتقوى، مُتحلياً بصفاء الذهن بعد خشوعه بين يديْ الله، متكئاً على عرشه، ومُتكلاً على رب العباد في أمرٍ كان قد عزم على تنفيذه منذ أن تولى الخلافة.

كان غارقاً في تأمله وسكينته عندما دخلت عليه الخيزران مُلبيّةً دعوته إليها في مجلسه الخاص على غير عادته وأوقاته.

ألقت سلامها عليه، وإنحنت بفارع قامتها إليه بكل ما إزدانت به من جمال مسائي ساحر، وقبل ان تُمعن في إجلالها وإنحنائها وتقواها داخل عرشه باغتها بترحيبه بها قائلاً بتودد:

- وعليك السلام أيتها الخيزران.

فارتبكتْ..

تخبطت بعباءتها.. كادت أن تقع في طقس تبجيلها له، لا بل وقعت، ثم إنتفضت ووقفتْ فجأة، تقهقرت إلى الوراء خطوتيْن كامرأةٍ داهمها وحشٌ في البرية، ثم إستدارت.. ركضت أو هربتْ إلى باب المجلس، توقفت، وضعت يديها على صدرها الهائج، ثم أخذت تهدئ من روْع سلامه عليها، هو الذي لم ينادها بإسمها يوماً، وهي التي لم تذقْ حلاوة الإسم بل مرارة الجارية، ويحك يا جارية، تعالي يا جارية، ويلك يا جارية، هلمّي يا جارية، لم تنعم بإسمها معه، وها هو في مساء القصر يباغتها، يلقي عليها بإسمها داخل أثير مجلسه.. مجلس الخليفة.

دنتْ من عرشه ببطء وإرتعاش على رؤوس أصابعها دون أن تقوى على رفع رأسها وتمالك أنفاسها ثم قالت بخفر:

- العفو منك يا مولاي فمسمعي ضلّ حسن سلامك.

فأجابها مسروراً بمباغتته لها:

- وعليك السلام يا خيزران.. يا أميرة فؤادي.

لمحت في سلامه وميضاً أبيض هائلاً، هالها فوقعتْ على الأرض مغشياً عليها، فانتفض المهدي مُلقياً بعرشه جانباً وهرع إليها، حملها بين يديه كطفلة وديعة نائمة، هاتفاً بحاجبه بأن يأتيه بالكافور وماء الورد، ثم وضعها بلطف على

فراش عرشه، وأخذ يقرأ عليها آية الكرسي، مُمسداً على رأسها ووجهها، إلى أن جاءه الحاجب بالكافور الذي لم يأخذ وقتاً طويلاً في إعادتها من جديد إلى عِتيّ ما باغتها به المهدي الذي قال لها بحميمية:

- ويحك.. أفي يوم سرورك تموتين والله إني عجبتُ لأمرك.

تمتمت بكلمات غير مفهومة، وتفرّستْ في ملامحه بُرهةً، ثم أخذت ترتعش من حمّى سلامه وتنتفض، إلى أن أدرك المهدي أخيراً أنه قد قسا عليها كثيراً في توطئة ما عزم على قوله لها، فقال لها بحنان ساعياً وراء تهدئة روعها:

- إهدئي الآن وأعينيني في أمري؟

حدقت في وجهه من جديد بذهول ثم قالت بُبحّة صوتها

- أمتُك يا مولاي وجاريتك المطيعة فأمرني.

تلمّسَ وجهها بحنوٍ وعطف إكتسى صوته أيضاً:

- لا والله بل زوجتي، فقد أعتقتك إسوةً برسول الله عليه الصلاة والسلام حين أعتق زوجته "صفية" يوم قريظة وأصدقها حريتها ونفسها.

شهقتْ بحدة..

إذ صعدتْ روح وحلّت روح.. تمزّق حريرها، إحترق في غمره لها بحريتها وزواجه منها في عزّ الخلافة.

حدقت به من جديد ثم قالت له مُتلعثمة مرتعشة:

- والله ما هو إلا الحلم يأبي الزوال في حضرتك يا مولاي فأعذر إضطرابي.

ثم شرعتْ بإسترداد وجودها أمامه، لملمت نفسها وإعتدلت في جلستها، ثم أطرقتْ في غياهب نفسها، إلى أن تلبدتْ سماؤها بالغيوم لتمطر عاصفة من بكاء، نشيج إنتشر داخل مساء المجلس، وفي حضرة المهدي الذي إحتار في أمره وبكائها:

- أتبكين الآن.. ألمْ اقل لك أني أعتقتك، فما الذي تشتهينه أيضاً حتى أُلبّيه من أجلك؟

بكت..

وهربت بالبكاء مختبئةً في دمعها خوفاً من عظمة اللحظة التي ألقى فيها

المهدي عليها بحريتها، إذ كانت تحلم بهذه اللحظة، وتتضرّع لها في كل لحظة من لحظات حريرها الضائع والخاضع، دون أن تكنْه المعنى الحقيقي الصافي لها، معنى أن تصبح امرأة حرة لا بل وأكثر، إن هي والله قد أصبحت زوجة شرعية لأمير المؤمنين وخليفة المسلمين.

تمالكت نفسها قدر إستطاعتها في حضرته إلى أن داعبها قائلاً:

- فهل رضيتِ بحريتك مهراً لكِ؟

أجابته بخفر وصدق:

- وهل ثمة أغلى وأطهر من هذا الصُداق يا مولاي؟!

غمرها قائلاً:

ها قد أنعمتُ عليكِ بعزمي الأول وإليكِ الآن ما هو ثانٍ.

نظرتْ إليه بوجه طفولي حائر ومذهول إلى أن أكمل حديثه قائلاً:

- عندما كنتُ في خراسان نجحت بإقناع إبن عمي عيسى بن موسى التخلي عن ولاية العهد، وإرتضيتُ بسنّة أبتي في هذا الأمر، ولقد عزمتُ بعد الإتكال عى مشيئة الله سبحانه وتعالي أن أكتب ولاية العهد من بعدي غداً إلى ولدي منكِ موسى الهادي، فلا تأخذك الدهشة مجدداً، وقومي فأعدّي رَكْبك ومتاعك فأنت ماضية غداً إلى قصرك الجديد.

بين حجري رحى طحنها وذراها في سماء المفاجأة، لم يتُخْ لها بأكثر من ذلك، فما تمنّته أدركته، ولم يُمهلها كثيراً أيضاً، إذ إنتزعها من عرشه وأعادها إلى جناحها كالسائرة في منامها لا تلوي على شيء..

وعادت..

أغلقت عليها جناحها، سدّتْ منافذه، سترت بالستائر نوافذه وتعرّتْ.

نزعتْ عنها حريرها الآثم في ديجور حجابها وإستحَمتّ بالبكاء، كان دمعها يتلألأ على جسدها المنعتق لتوه من رجس الحرير ويمين المُلْك، وبكت، إيذاناً منها ببدء طقس آخر جديد ستسرد فيه وتعيد إلى ذهنها ما صعقها به المهدي من إنعتاق وولي عهد وقصر.

إنعتاق مفاجئ، بعد أكثر من خمسة عشر عاماً من السبي وأسرّة الجواري

وستائرهن، بعد أن ثارت وماجت وماتت وعصفت وهانت ورضخت في أروقة القصر.

ها هي تُصيب اليوم حلمها بسهم سيدها الذي فاجأها حين مساء بعزمه على إعتاقها، هكذا بلا مقدمات وتوطئات تراعي فؤادها الهشّ.

ولكنها كانت على يقين بذلك؟

الم تكن؟!

كانت تؤمن بهذا اليوم، ولكن ليس على هذه الدرجة العاتية من السطوع والوضوح والقسوة، فكم هي لحظة الحقيقة قاسية، لأنها ذرتها بلا حلم الآن.

كانت تعيش من أجل هذه اللحظة ما بين الأحلام والأماني لحظة الصفاء والنقاء تخفق بها الآن، تراقصها، تُقبّلها، تشمّها، تركبها، تُحلّق بها في عُريها الصارخ داخل ظلامها، هي التي تخاف الآن من التحديق بمرآة ذاتها الجديدة، ومن مواجهة قيمتها الغالية المتلألئة بالحرية، يُحيطها الظلام، العتمة التي إعتنقتها في ملجأ الحجاب، وأحاطتها بالرعاية والحكمة، والسطوة المُستترة.

أخذتْ تُردد كالتي مسّها جنون شيطاني كلام المهدي وهو يزفُّ إليها إعتاقه لها وزواجه منها، إذ أصبحت أم البنين الآن، نعم، لم تعد أم ولد، تكتشف هذا الأمر، تهرع نحو الستائر، تُشرعها، وإلى المشاعل فتُذكّي نيرانها، وإلى مرآتها لتشاهد سطوع عُريها:

نعم أنا أم البنين الآن، أم البنين بحق دمي وحقيقة حلمي. تركض نحو عباءتها السوداء، ترتديها، تستر عُريها ثم تنظر من جديد في المرآة، تُحدق في وجهها، ترى ما يرعبها من عينين خارقتين بالإثمد ووميض الشهوة التي تستعرُّ بها الآن، خاصة بعد أن أدركتْ بوضوح إثر إنقشاع هول المفاجأة أن المهدي كان قد أعدَّ العدة جيداً لهذا الأمر منذ أن تولى الخلافة.

حدقت بالمرآة.. إنتكست.. إنساب الدمع مجدداً على وجنتيها، فسبب هذا العزم الذي أدى إلى إعتاقها وزواجها هي ولاية العهد، ولاية موسى الهادي إبنها، إذن فهو لم يعتقها من أجلها وفي سبيل هيامه بها، بل تنفيذا لمشيئة سُنّة الولاية وشرع البلاط العباسي القاضي بإعتاق الجارية أم ولد إذا أصاب ولدها

عهد أبيه، فالخليفة يجب أن تكون أمه حُرّة، لكي تكون حجته قويه وشرعية أمام الحاشـية والرعية والطامعين بالخلافة، ولا سيّما في وجه عيسى بن موسى الذي لم يكن خصماً سهلاً في التخلّي عن حقه في ولاية العهد أيـام المنصور، حتى يتخلّى الآن أمام عزم المهدي وتطلعاته.

حدقتْ بشدة بالمرآه، لمحتْ تعربش شهوتها، ثم رأت رُمحاً ينغرزُ بوحشية وقسوة في ظهرها الذي لـم ينعـم بحريته بعـد، فهي لم تكـن على مقربـة ودية وحضن دافئ من ولدها موسـى منـذ أن أنجبتـه إذ كانت ترى الدمـاء كلما رأته، مما أدى إلى نشـوء تلك الهُوّة التي حالت دون أن تكون أماً ترعى شـؤون بنيها بالعطف والتفاني.

فقد كانت الخيزران تولي جُلَّ إهتمامها إلى هارون والبانوقة مُلقيةٌ بموسـى في هاوية ذاكرتها السـوداء التي لطالما أسرتْها بقيود الجارية وحرير بدنها داخل القصر الزينبدي، ومـا زادها بعداً ونفـوراً من إبنها هو نشـأته بعيـداً عنها في بيئة الأمراء لينمو شديداً غليظاً.

لا يعـرف من حيـاة القصـر وبيته العباسـي، سـوى إثراء جسـده بالفروسـية وإفقار عقله من الحكمة، ليترعرع جشـع الحكـم في صدره بإيـلاء أبيه له ولاية العهد.

بكتْ..

نزعت مـن جديـد عباءتها عنهـا، هالها ممشـوق قوامهـا، كما لـو أنها ترى جسدها لأول مره، إذ كانت كما هي بجسدٍ لم يراوح السبعة عشر عاماً.

حدقت بقوة وشراسة، رأت شـهوتها مُتجليّة في المرآة صارخة بوجهها، ألـم أقل لكِ.. لا يكفينّك الإنعتاق ولا يغرنّكِ وعليك بفضّ لبس الحجاب.

نعـم.. فهي لم تُخْـفِ سـعادتها بمكافـأة المهدي الأخـرى لها بعـد إعتاقها وهتكِ تطلعها بإيلاء العهد لولدها المنبوذ، فقد شيّدَ لجمالها قصراً مُخلّداً بالأُبهة والزخارف، قصرٌ لها وحدها هي زوجة أمير المؤمنين التي سيُصبح إسم قصرها المنيف الخيزرانية نسبة لها.

فهل كانت لترضى.. لتكتفي.. لتخنع.. لتسكن فيه بلا أدنى رعشة؟

بعد إن إكتشفت مرامي المهدي ونزوعه إلى تخليد إسمه بنسله من بعده، هل كانت لترضى؟

إرتدتْ العباءة من جديد..

مسحتْ بها الدمع المنساب على جسدها ثم حدقت بالمرآة، إذ هو يُحبها، لو لم يكن يحبها لما كتبَ ولاية العهد لولدٍ من أحشائها، فثمة منافسون آخرون، ذوو حظوظ أقوى وأوفر من أبنائها مثل ولديْه من زوجته وإبنة عمه ريطه إبنة السفاح، إكتشفت هذا الأمر في عز تخبطها.

تكتشفُ أن عزم المهدي لم يكن فقط في سبيل ولده بل من أجلها هي أيضاً، هي التي أحبها وغرق في بحور جسدها وشرب من ينابيع حكمتها الصافية، هي التي لم تتردد عن الإيحاء له بضرورة إيلاء العهد لأحد أبنائها خاصة هارون الذي نشأ في ظلها وعباءة مُربيه ومؤدبه يحيى البرمكي.

لا.. لا والله لو أنه صادق في إعتاقها لكان أوْفى بعشقها له من خلال كتابة ميثاق ولاية العهد لهارون ولكنه رأى بموسى ولمس به صلابة الأمير العباسي ورهبة ابيه المنصور.. فهل كانت لترضى.؟

بقصرها الجديد الذي سيكون بعد قليل المكان الذي ستحتفل فيه بدلال حريتها، مديدة في أروقته الذهبية، أميرة عليه لا بل أماً للمؤمنين.

-3-

في الخيزرانية

قصر الخيزران الجديد، كانت إمرأة حرة تتأنق بأدب النعمة وذلّ الحاجة، إذ لم تكن لتندلق على ملذات العيش ونِعَم القصر بفظاظة وجشع، حيث تحول ركنها الجديد وعرشها المتواضع كأمٍ للمؤمنين رغم أنف ريطه العباسية إلى مقصد للفقراء وملجأ للمساكين وأصحاب المظالم الذين يبغون حاجةً قد يتحصلون عليها من عطف الخيزران وتفانيها في مساعدة بسطاء وفقراء الرعية. كانت أميرةً عليهم ولهم بإمتياز، بما أغدقه المهدي عليها من حبٍ وتلبية لرغباتها التي لم تتجاوز خدمة الرعية لا أقل ولا أكثر كان عرشها من الكبرياء،

ومن تفوقها على الأميرة العباسية ريطة وموكبها الذي بات مُتناهياً في الصغر مقارنة بما كانت تسيّره الخيزران من مواكب تزفّها إلى المزيد من السطوة والحظوة في بلاط أمير المؤمنين.

في هذه الأجواء التي قدّمتْ فيها الخيزران نفسها أماً ورعةً وتقية للمؤمنين والمساكين والمستضعفين، كان ثمة وجه آخر آخذ بالنشوء والتكون داخل خمارها السري، وجه شهوتها التي إستحكمتْ بها وإشتدت عليها في نعيم القصر ولقب أم المؤمنين وزوجة الخليفة وأم ولي العهد، كل هذا كانت تتراقص به في ستر حجابها داخل قصرها الجديد المطل على تاريخ رايات العباسيين السود.

هي سيدة الظلال الحرة، سيدة شهوتها التي حرستها من الكفاية والرضا الزائفين، والشهوة التي غزلت لها من نسيج حريرها المنسول عن كيانها العتيق والمُتّقد حبائل لقدرٍ من سيتحكم به سواها؟

قدرٌ لن تسمح لنفسها به أن تكون أسيرة لإنشغال المهدي عنها بشؤون الخلافة، لا سعياً منها وراء حظوته التي لم تعد بحاجة إليها الآن، ولا حلماً منها بالحرية التي حازتْ عليها أخيراً، بل سعياً وراء بقائها في حجابه سيدةً للظلال تُنصتُ بإصغاء شديد إلى مجريات الخلافة وتمتمات دهاليزها السرية، لا لشيء فقط تنفيذاً لمشيئة شهوتها المتمثلة بالولوج في عين أمير المؤمنين وحاشيته.

فالمهدي ورغم إبتعاد قصرها عنه، إلا أنه كان يأتيها في زيارات خاطفة يقتنصها من هدأة عرشه لكي ينعم بنثرها في عباءته أجود ما تحتويه قريحة حكمتها وبصيرتها، فمنذ بداية عهده بها وأثرُ حجابها وكلامها السري عليه يتجلّى في تقدمه ونجاحه وإزدهاره إلى أن حلّ على عرش الخلافة أخيراً.

هذه هي الخيزران..

كما لو أن كل ما حولها من مصائر وصُدَف وأقدار وحروب ونوايا ومؤامرات قد إحتشدت خلف حلمها الذي قاد معركةً إنتصرت فيها هي وكسبتْ حرب حريتها الكاملة وشهوة ظلها الكامنة.

فمن قصرها كانت تراقب بإمعان كل ما يجري ويحدث في بلاط المهدي من مؤامرات تُحاكُ بالخفاء وحيل ذكية تُعدُّ على نار هادئة الهدف منها بالنهاية مصلحة الدولة وإمتداد ظلّها في الأرض.

فمن كان ليُزودها بكل ما يجري في عرش الخليفة سوى مكتشف شهوتها الأول ومؤدب إبنها المدلل وكاتب زوجها المُبَجل، من ذا الذي كانت تلجُ من خلال بصيرته الثاقبة إلى مآل الحال داخل مجلس الخلافة سوى يحيى البرمكي؟!

-4-

في أوائل عهدها بالتحرر لم تنعم الخيزران طويلاً بفرحتها وولهِهَا بالظل الذي حكمتْ به قصرها وأنفاس الخليفة في سريره بصيرتها، فبقدر غبطتها كان حزنها الذي لم يُمهلها طويلاً حتى تذوقت مرارته من جديد في درب حياتها المكتظة بالأحداث والمفاجآت والتفاحات والأحلام.

حزنٌ عصف بها وإنتزعها من عرشها الجديد ليلقيها في عُتْه الفقدان والموت، حيث كانت المرة الأولى التي تفقد بها أحداً من لحمها ودمها ودمعها، مُتجرّعة غُصص المرارة الزقومية.

عندما إختطف منها الموت أحبّ الناس إلى قلبها وقلب الخليفة، فغداة يوم من أيام خلافة المهدي على الديار الإسلامية، كانت الفجيعة قد حلّتْ والنكبة قد أقامت والمصيبة قد نزلتْ على رأس المهدي بفقدانه لإبنته ومُدلّلَته وزهرة خلافته البانوقة التي لقيت مصرعها بثياب الفرسان السوداء بالبرية، إثر وقوعها المريع عن صهوة فرسها التي لم ترحمها، ليرحمها الله ويتغمدها في واسع رحمته وجنان خلده، بإثنتيْ عشر عاماً قضتها في محبة أبيها وتولّعه بها، وجذل أمها الخيزران من هذه الرعاية التي لم تنتهك في حياتها ما انتهكته في مماتها من أعراف البيت العباسي، إذ رثاها المهدي كما لم يرثِ أباه المنصور، وبكاها كما لم يبكِ أمه، وأقام لها مراسيم العزاء التي لا تليق إلاّ برحيل أمير أو خليفة، وليس أميرة لم تبلغ بعد سِنّ الرشد وأم لم تتجاوز أصلها في جناح

الحريم جارية.

وأما هي..

الخيزران سيدة قصر الخيزرانية فقد كان نصيبها من الحزن جارفاً عارماً، قذف بها من جديد إلى عزلة الحزن والأسى والألم، فهي لم تُنكر في حوارها مع نفسها أن حب المهدي للبانوقة كان جارفاً وصادقاً، بل لربما كان أصدق من حبها هي لإبنتها الراحلة، ولكن ما آلمها أكثر في عز هذا الفقدان هي تعليقات حاشية الخليفة وأمراء وأميرات البيت العباسي الذين ما فتئوا يجرحون الخيزران بأصلها الحاد، الجارية التي لا تليق بخليفة عباسي، الجارية التي لا تستحق إبنتها الصريعة كل ذلك الرثاء والحزن والألم الذي أحاط به المهدي نفسه، إذ أن وفاة أميرة عباسية طاعنة بالحسب والنسب والأصل الشريف لا يتطلب كل هذا الحداد الصارخ بالحزن فما بالكم حين يكون حداداً على طفلة أمها جارية؟

عشية الفقدان..

كان القصر كله حجاباً اسود لها تُؤبّن فيه بصمتٍ يُزيّنه الدمع إبنتها الراحلة، وبالرثاء تزفّها بكل ما طعنها به زمانها من خناجر الضغينة واللؤم والغيرة والحقد، زمانٌ يرفض الإعتراف بها سيدةً حرة فماذا تفعل؟

عشية الفقدان والبيْن العظيم والبراءة التي ذَوَتْ على عتبات الخلافة، كانت تبكي البانوقة، بل كانت تبكي نفسها بطقسٍ لطالما أقامته داخل حجابها وبرقعها.

هي التي كانت في ريعان حريتها وإنبعاثها سيدةً حرةً تُجيد السطوة في الظلال، وقادرة على كسب المزيد من الدفء داخل عباءة الخليفة، فهل كانت تستحق هذا المصاب المبكر الذي فجعها وثكلها بإبنتها البانوقة آيةُ أميرات بني العباس رغم ما كان يجري في عروقها من سبي وحرير أمها؟!

إتّشحتْ بسوادها وإثمد عينيْها في ليلة الفراق، وأقامت صلواتها خاشعة لله بإبتهال وتقوى، ثم تلتْ بسكينة إيمانها ما تيسّر لها من آيات الذكر الحكيم على روح إبنتها الطاهرة، عسى أن يتغمدها الله حمامةً بيضاء في سماء جنانه.

ظلّتْ على خشوع وسجود في صلاةٍ تخلّلها الدمع الحار الذي لم يتوقف عن الهطول طيلة ليلها وموطن كل ما يعبق بها من أحلام وأحزان إلى أن تسلّلَ

الفجر بغلالته الساحرة من نوافذ جناحها ليفاجئها بحلوله عليها بنسيمه المُنعش ونجمة أبَدِه.

ختمتْ صلاتها بالأدعية الدامعة، ثم نهضتْ بكامل سوادها وأطلّتْ من شُرفتها على بغداد التي لم تستيقظ من رقادها بعد.

حدقت بما ترامى أمامها من أطراف دار السلام، ثم إنتقلت عيناها إلى السماء، عرجتا نحو نقطة محددة ساطعة بالنور، فارتسمت على مُحياها الحزين إبتسامة باهتة، أسهمتْ للحظات في لؤلؤ السماء، ثم نزعتْ برقعها لتكشف عن ملامح جديدة كستْ وجهها بالحزم والصرامة، قائلة برأس مرفوع بشموخ نحو أعالي السماء:

- مثلما أقسمتُ بدمائي يوم عُقِرَتْ براءتي..

أقسمُ في هذا الفجر بدماء إبنتي البانوقة

بأن جذوة حلمي لن تنطفئ بل ستتّقدْ حتى نهاية مآل سوادي...

الفصل الخامس عشر:

في بلقيس الصحراء

في جنةٍ هزّتْ أغصانها ريح الوقت..

رأيتُ الورد شجراً ينبلجُ منه لِبان الجمر أثير فتنة..

وسمعتُ من قال لي في بهتان اللون:

عندما تُصاب الوردة بالهجران فإنها لا تذوي بل تطعن في قدرها وتغدو شجرة طاعنة بالأريج.. لا نُوّارٌ يُزيّن رأسها بل موتٌ يتعربشها هي الواقفة كي لا تنحني.. والشجرة شامخة يا ابنتي فلا تتسلّقي المصير وإبقِي في ظلّها وارفعي رأسكِ وقولي:

أهكذا أصير حين الخذلان يأتيني من حيث لا يحتسب القلب الآبقُ قلبي؟!

نظرتُ حولي.. لمسني صوتٌ مخفيٌ وجنى مني على حين نهدٍ قُبْلة شهوة فاشتد أنيني وسقطتُ.

ثم قمتُ وتجولتُ في فيافي الجنة..

عانقتُ سكوناً وقبّلتُ فراغاً..

لم يكن سوايْ فافترشتُ الخواء وإلتحفتُ حجابي ونمتُ.. وحلمتُ من جديد..

في جنة جرداء.. نزع عني الرداء وأمسك بيدي المُرتعشة وفتح كفي ملقياً فيها فاكهةً من فضة وأغلق كفي هامساً:

قضمة في الصباح يا جارية وأخرى في المساء يا جارية ثم نامي ونمتُ وحلمتُ من جديد..

رأيتُ أبي شجرة وأمي حقل ورد..

لم تكن جنة كان خلودا.. وكان ظلٌّ وكان صمت في الوادي الكبير.

إختنقتُ من أقدام داستني.. رأيت كعابِها مرايا رأيتُني فيها من جذلٍ وفتنة ودماء ونمتُ وحلمتُ من جديد.

جسدٌ من صحراء إنتابني وثوبٌ من السماء إرتداني، ثم حلّقتُ على فرسٍ سابحة بيضاء في فضاء الحلم ثم وقفتُ وغرقتُ في الدم دمي.

ونمتُ وحلمتُ من جديد.

دخلتُ إلى بناء شاهق له من الطوابق عشرون مَنيفاً شامخاً في عليائه لم أرَ له مثيلا، حدقتُ في سمائه وعجيب عمرانه إلى أن عرجتْ بي ريحٌ خفيفة إلى طابقه الأخير قبل أن يرتد إليَّ طرْفي، فخِفْتُ ووقعتُ على أرضه البلورية.

كانت الريح تلفُّ العلو الهائل والشاهق وتحرسه بعصفها من حوله، وكنتُ أنا في عين البلور داخل هدأة وسكينة ما عرفتُ فيما بعد أنه بلاط عرش لأحد الملوك، كان المكان شاسعاً ومربعاً وفي كل زاوية من زواياه يربض أسدٌ من ذهب خالص بفمٍ مفتوح عن آخره يكاد أن ينقضّ عليّ ويفترسني، كانوا أربعة أسود ما أن تعصف الريح في أجوافهم الذهبية حتى يزأروا بصخب وبأس، نظرتُ إلى ما حولي، لم أرَ سواي انا التي كنتُ أرتدي غُلالة بيضاء من غيم ومطر بكامل زينتي وشعر ذهبي برّاق صافٍ لم يكن شعري، فذعرتُ ذعراً شديداً من رهبة المكان ومن هيئتي الجديدة التي لم أعهدها بي من قبل.

كانت الريح قد مزجتْ أصوات الأرض بطغيان صوتها الذي كان نغماً للبلاط الغامض.

بناءٌ شاهقٌ مُكلّلٌ بما أنا فيه من بلّور ولؤلؤ أسبغا على الطقس جلالاً وعزّة، وكنتُ أقف بجانب أحد الأسود في الزاوية وأنظر إليه بخوف، ثم إخترقني صوتٌ أنثويٌ ساحر وأحاطني بنعومة سمائه:

- إقتربي فهو من يخشاكِ.

فاقتربتُ بعد أن مسّني صوتها بالأمان نازعاً عني ذعري وخوفي، غرزتُ يدي في جوفه، كأنني كنتُ أبحثُ عن زئيره إلى أن قبضتُ على خنجرٍ مغروس في قلبه، فانتزعته، كان مقبضه من عاج ونصله المعقوف من ذهب، تفقدته بدهشة ثم طعنتُ به الريح على حين غرّة، فعصفتْ قائلة:

- قتلتِ بي "زوْبعة" سليمان فهبّي متى شئتِ واسكني متى شئتِ وأقيمي إلى أن أكُفّنك بي فأنا نعشك.

ألقيتُ الخنجر من يدي المرتجفة على الأرض وصرختُ:

- أين أنا؟ ومن هو زوبعة؟

زأرتْ الأسود الأربعة بزئير مُوحد:

- أنتِ في عُلو الأرض.. وزوبعة هو الجنّي الملعون الذي كشف سِتر ملكة الجبال لسليمان الذي إمتطى جلالتها وبنى بها هذا القصر فأحّبّتهُ وأحبَّها.. حماكِ الله من زوبعة.. حماكِ الله من زوبعة..

كنتُ مُعلّقة في دهشتي وذعري وعجيب هذا المكان، نظرتُ إلى ما حولي مرة أخرى، ثم قمتُ وهرعتُ صوب الأسد الثاني بقوة غريبة زودتني بالشجاعة، أوْغلتُ يدي في أحشائه، رأيتُ شهوتي تتدلّى من فمي حِمَماً، أوْجستُ خيفة من جشعي في الولوج إلى عتمة الأسد، إلى أن تشبّثتْ يدي بنعومة دافئة لطيفة فجذبتها بسرعة فإذا هي قطعة من حرير اسود مُوشى بدمعٍ من ذهب، تفحصتها ثم أشهرتها في وجه الريح التي قالت لي:

- وأنت الخفّاقة بي إرتدي برقعك وحلّقي.

فارتديته، إنتابتني قشعريره مريعة مسّني بها السواد الذي ذهبَ بذهب شعري وأعاد إليه سابق فحمه، لأتدلل في أوْج العرش ببياض ثوبي الشفيف وبرقع أضفى على مطلع جمالي غموضاً سامياً سَرّني وجعلني أتراقص حول نفسي تتجاذبني ايادي الريح الخفية،

التي ألقتني أمام الأسد الثالث، فهمس بأذني الصوت الأنثوي المنبعث مني ومن أركان الحالق الذي كنتُ أرتجف فيه:

- ضعي فمك يا بنيتي على فمه وقبّليه بشغف عاشقة غيب.

فلم أتردد، دنوتُ منه بلهفة وشوق وقبّلته، أحسستُ بشفتيه الجمرتيْن ولسانه المندلع ناراً في حُشاشة فؤادي،

تأوّهتُ.. إرتجفتُ ثم إبتعد عنه قليلاً فزمجر قائلاً:

- فؤادك من أريج الورد ولن تذوي من قُبلتي يا لبؤتي فالذّهب يجرب بالنار

دقّقتُ به. لم يكن سوى تمثال من ذهب وزئير مُعلّق على جماد وجهه، تقهقرتُ إلى الوراء دون أن ألتفتْ، فدُستُ على حقل نرجس وزنبق إنبثق فجأة من البلور، تعثرتُ به، فوقعتُ وتقلّبتُ فيه إلى أن سكنتُ ما بين مخالب الأسد الرابع، إرتجفتُ أسفله وأصبتُ بالهلع، إلى أن نطق قائلاً برهافة فارس عاشق:

– لا تخافي.. في عين البطش تقيمين، فأنتِ أميرة الإنبعاث من ظلّي المترامي عليكِ.

قبلتُ أطرافه الأربعة، ثم إنسحبتُ من أسفله بسرعة فانحسر ثوبي عن فخذيْ دون أن ألحظ ذلك، فسطع نورٌ شديد، وسمعتُ عواءاً رهيباً حاداً من كل حدب وصوب وشعرتُ بأنني أصبحتُ وليمة لشهوات وحوش القصر، إلى أن نهرتني صاحبة الصوت المُستتر:

– أُستري عُريكِ يا بنيتي في عرشي فلا نور إلّا نوري ولا خشية إلّا مني.

فلملمتُ ثوبي وعدّلتُ برقعي بسرعة، ثم بحثتُ عن مصدر الصوت، فلم أعثر إلا على نور ساطع مُنبعث من جهة العرش الجنوبية، رأيتُ ما يشي بامرأة، ملكة سلطانة، جلالة ما من بعيد، لم أقوَ على التحديق أكثر خوفاً على بصري إلاّ أني كنتُ قد لمحتُ حاشيتها المكونة من نساء في مثل سِنّي، يعمهن في جمالهن الوافر وثياب يكاد العُريْ يكون ستراً لهن أكثر منها، كن يرتدين الأسود الخفيف الخجول على أجسادهن الثائرة والممشوقة، وخِفتُ منهن ومن نظراتهن الحادة والقاسية، فذهب الصوت الأنثوي الساحر بضوضاء خوفي منهن:

– لا تخشيهن فهنّ حارسات حلمك.

– ممن يحرسنه.

– منكِ.

– وكيف أفترسه وهو حلمي؟

– بجزعك وإحتراق صبرك وشهوتك؟

– أية شهوة؟

– الشهوة إذا عصتْ تصبح إثماً وعدواناً.. إياك وإنفلات الشهوة..

إحبسيها عن أحبائك وجودي بها على أعدائك وغذّيها من إقتناص شهواتهم.

لم أفقه شيئاً مما قالته، فارتسمت على وجهي سمات بلاهة لا تليق بي في عرشها، فغضبتْ قائلة:

- ويلك أيتها الغرّة الساذجة فما أنتِ مُشرفةٌ عليه ما هو إلاّ القصر المُشيّد بالقسوة والبطش والأفاعي، فكيف ستدخلينه بشحّ بصيرتك.
- أي قصر؟
- قصر إمتدادي بك.

أطرقتُ من جديد في أعماق البلور، إلى أن قالت هي بصوتٍ إكتسته الشفقة:

- يا بنيتي.. أنا أصلكِ.. أنا من كنتُ مثلكِ وأنت من ستصبحين مثلي، أنا التي شيدتْ لها سواعد الغيب والأزل قصور الحياة والجاه والسلطان وزوجي سليمان الذي أسَرني بشهوة حكمتي وعَقرَ صهوة كبريائي، فاحذري من غُرّهِ شهوتك واحرسيها بتكاثف الغسقْ عليكِ لتسودي.

سطع نورها بشدة، حاولتُ قدر فضولي أن أسبر أغوار عرشها وجمالها، أن ألمحها، أن أتلمس طيفها ولكني كنتُ أرتدُّ إلى الوراء متألمة من سياط جلالها القاسي على نفسي.

كدتُ أن أقول لها شيئاً عندما إختنق صوتي فجأة بالنشيج وأخذت أبكي، ونورها كان يسطع، وأنا ابكي وهي تسطع وتسطع وتسطع، والأُسود تزمجر وتزأر، والريح تعوي وأنا أتمدد وأتمدد ثم أتبدد، تبخّر بياضي، وأقام سوادي الذي أخذ يراقصني على إيقاع ضحكاتها العابثة والماجنة، فخفتُ أنا وسطعتْ هي، ووقعتُ أنا ووقفتْ هي على أهبّة ما سيُخمد شوقها لشيء ما، كنتُ في عافية العُريْ لا حجاب يسترني سوى برقع على وجهي، لم أخجل، بل لم أخشَ الأسود الهارعة صوبي، لأنني كنتُ أنتظرها، كنتُ مثلها جاثية على أربع، إلى ان إقتربت مني أكثر فصرختُ من وراء برقعي: أنا لبؤة هذا الزمان فاخشوني..

إلاّ أن الأسـود إنقضّتْ علي بقسوة حتى مطالع الشـهوة والأنين في قصرها هي التي همست بأذني دون أن أراها:

- هيا إهبطي من شاهق الحلم فلن تكوني سوايْ.

ثم إستيقظتُ على فجـر صحراءٍ فـي خبائي الذي كنـتُ مثله جماداً أسـود اللون دون أدنى رجفة أو رعشـة أو دمعـة، إذ أصبحتُ الآن بعد هـذا الحلم في منتصف الدرب، وبعد قليل سيحُط بي الأنهد على عتبات قصـر الخليفة بعد أن أذكتْ جذوتي هي..

ومن سوى إبنة سبأ تحرسني؟

* * *

الفصل السادس عشر:

فحيح الحجاب

نثرتْ أريج شَعْرها الفوّاح كزنبقة فجرية في وجهه فامتلأ بها، وتهللّت أساريره بجذوة فتنتها في ليلةٍ من ليالي الخيزرانية لاذ فيها إليها نائياً بنفسه عن مشاغل السلطان وهموم البلاد وما شابها من زندقة ومجون وإلحاد.

دنتْ منه أكثر إيذاناً بمعتاد نثرها المتلألئ في سريره:

- والله يا مولاي رغم هذا الكفر المتفشّي على ألسنة الزنادقة في البلاد وسعيهم الفاسق فيه، إلاّ أني قد سمعتُ بالأمس من جارية لي كانت في سوق العطش في بغداد ما يحملني على القول بأن شرّ الزندقة ما يُضحك..

قاطعها بشيء من الحدة:

- وهل تدعو الزندقة إلى إطلاق الطرائف والنوادر يا خيزران؟
- أستغفرُ الله يا مولاي فليس هذا ما قصدته مما سمعته على لسان الجارية من طرفة ما زالت تداعب صدري وتضحكني.

سألها بإبتسامة ذهبت بحدته:

- وما هي.؟
- إبتسمت وقبّلتْ أصابعه العشر بمعهود إغرائها ثم قالت:
- كانت الجارية قد رأت حشداً من الناس مُتحلّقين حول شيخ طاعن بالسن تشي هيئته الرثّة بملامح التصوف، وبجانبه عدد من الصبيان كان قد جمعهم وأحاط نفسه بهم لغرض دعوته ثم بدأ ينادي بأعلى صوته وسط الناس:

"ما فعل النبيّون والمرسلون، أليسوا في أعلى عليّين؟ فيقولون:

نعم. قال: هاتوا أبو بكر.. فأُخذ غلام فأُجلس بين يديه فيقول:

جزاك الله خيراً يا أبا بكر عن الرعية، فقد عدلتَ وقمتَ بالقسط، وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام فأحسنت الخلافة، ووصلتَ حبل الدين بعد حلٍّ وتنازع.. إذهبوا به إلى أعلى عليّين.

ثم ينادي: هاتوا عمر. فأُجلس بين يديه غلام. فقال: جزاك الله خيراً يا أبا حفص عن الإسلام، قد فتحت الفتوح، ووسّعتَ الفْيء.. إذهبوا به إلى أعلى عليين بحذاء أبي بكر.

ثم يقول: هاتوا عثمان. فأُتي بغلام فأُجلس بين يديه فيقول له:

خلطتَ في تلك السنين ولكن الله تعالى يقول: ﴿... خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ...﴾[1] ثم يقول إذهبوا به إلى صاحبيْه في أعلى عليين!

ثم يقول: هاتوا علي بن أبي طالب. فأُجلس غلام بين يديه فيقول: جزاك الله عن الأمة خيراً يا أبا الحسن فأنت الوصي وولي النبي، بسطتَ العدل وزهدت في الدنيا.. إذهبوا به إلى أعلى عليّين الفردوس. ثم يقول: هاتوا معاوية. فأُجلس بين يديه صبيٌّ، فقال له: أنت القاتل عمار بن ياسر وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين. وأنت الذي جعل الخلافة مُلْكاً وإستأثر بالفْيء وحكم بالهوى وإستنصر بالظلمة، وأنت أول من غيّر سنة رسول الله إذهبوا به فأوقفوه مع الظلمة!

ثم قال: هاتوا يزيد فأُجلس بين يديه غلام، فقال له يا قوّاد!

أنتَ الذي قتلتَ أهل الحرة[2]، وأبحتَ المدينة ثلاثة أيام، وإنتهكتَ حُرَم رسول الله وتمثّلتَ بشعر الجاهلية:

ليتَ أشياخي ببدرٍ شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسَلْ

وقتلتَ حسيناً وحملت بنات الرسول سبايا على حقائب الإبل إذهبوا به إلى الدرك الأسفل من النار.

---

(1) سورة التوبة: 102.

(2) مأساة كربلاء.. يقصد هنا فاطمة الزهراء.

وذكر والياً بعد والٍ إلى أن بلغ عمر بن عبد العزيز فقال:

هاتوا عمر فأُتي بغلام فأُجلس بين يديه فقال:

جزاكَ الله خيراً عن الإسلام، فقد أحييت العدل بعد موته، وألّفتَ القلوب القاسية، وقام بك عمود الدين على ساق بعد شقاق ونفاق، إذهبوا به فألحقوه بالصدّيقين.

ثم ذكر من كان بعده من خلفاء إلى أن بلغ دولة بني العباس، فسكت فقيل له: هذا هو العباس أمير المؤمنين. قال: فبلغَ أمرنا إلى بني هاشم؟ إرفعوا حساب هؤلاء جُملة وإقذفوا بهم في النار جميعاً".

أحتلَّ الصخب جناحها بعد أن إنتهتْ من قصّ طرفة شيخ صوفي لم يجد سوى التحمّق والتغابي سبيلاً لإيصال رسالته إلى الناس، وإنفجر المهدي بالضحك كما لم يضحك من قبل، لتردد أروقة القصر قهقهاته الصافية، ولكنها لم تُردد تلك الضحكة المخيفة المجلجلة في صدر الخيزران المغمورة بالسعادة لا لأنها أضحكته وخفّفت عنه فقط، بل لأنها هي من إستمعتْ ورأتْ ذلك الشيخ الصوفي في سوق الورّاقين وليس في باب العطش.

إذ كانت تتنكر خفية بزي الأعراب، وتنسلّ منذ الصباح الباكر مرتيْن في الأسبوع على الأقل، لتجوب طرقات وأسواق بغداد دون أن يُزيّنها موكب عباسي مهيب أو حرس الخليفة الرهيب، كانت تجول في الأزقة بزيْها الأسود المتواضع الذي لا يشي إلاّ بعينيْها المكحلتيْن بإثمد البصيرة.

ترتاد الطرقات دون هدف محدد، لا شيء كان يعنيها سوى الإقتراب من الرعية وبسطاء الناس وحديث الأسواق، والبحث عن نفسها هناك خاصة بعد أن داهمتها ذات ليل فكرة البحث عن كاتب خاص بها على غرار كاتب الخليفة الذي كانت مهمته كتابة الرسائل والعهود والأهم منجزات ومآثر وفضائل سيده، فكرة جنونية قادتها إلى سوق الوراقين المزدحم بالكتب والكُتّاب وصناعة الورق، كانت تدفعها حاجتها إلى كتابة أصل خاص بها، متنٌ يحفلُ بسترها ومسيرتها الحريرية الجارية في الزمان العباسي، حيث كان بإمكانها أن تشتري كاتباً مغموراً لكي تُملي عليه نزعات تأصّلها ومجدها بالتربة العباسية، لأنها

كانت على يقين تام بأن التاريخ يُولد من رحم زمنها الذي تعيش فيه، ولكنها كانت تتردّدُ في اللحظة الأخيرة عن تحقيق هذه الأمنية الليلية خشية من إفتضاح أمرها وإنكشاف حجابها وتنكّرها، فهي لم تعد تلك الجارية اللعوب بل أم المؤمنين المُتَمتعة بشرعيتها وحصانة زوجها لها، وأي حادثة مشينة قد تحدث لها في عزّ ظهيرة بغداد ستؤدي بها إلى الهلاك.

لتعود إلى حجابها مُثقلة مُختنقة بخيبة تراكمت في وجه أفقها، فمتنُها التي كانت ستمتطيه وحدها في سباق التاريخ لم يكن ليتّسع لأُسرتها التي فُجعت بها بعد أن جاءت بها من الأرض اليمانية إثر أكثر من خمسة عشر عاماً من الفراق وجناح الحريم.

لقد إعتقدتْ في هنيْهة فرحتها بلقاء أسرتها أن الأرض العباسية قد إحتوت أخيراً بذورها التي ستنمو فيها أشجار من أصلٍ رفيع ونسب شريف، إلا أنها إكتشفتْ فيما بعد أنها لن تتفيّأ أبداً هرباً من أوار البيت العباسي في ظل شجرة أسرية وارفة.

إذ هي خيبة عصية أبدية خيّمتْ على قصرها الذي كانت تبحث فيه عن أثر البهاء العتيق في وجه امرأة دفعتْ الخيزران نصف عمرها حريراً حارقاً من أجل اللقاء بها، عن الصوت الدافئ الذي كان يحرسها ويطمئنها كانت تبحث، ولكنها لم تعثر إلا على صدأ الغياب ونتوءات البعد الجارحة عندما كانت تسعى إلى رحم أمها لتولد من جديد.

تشظّتْ الخيزران وتبعثرتْ حين لمست خوف أمها منها ومن المآل الذي وصلت إليه، فكل القصر بما يحتويه من أم المؤمنين وحاشيتها وخدمها وجاهها ونفوذها الممتد لم تكترث به أم الخيزران التي ذوتْ منذ اليوم الأول التي إختفت فيه إبنتها الصغيرة لتبزغ هنا في جوهر الخلافة سيدة حرة بعد مشقّة الدرب والجواري.

كانت الأم في جناحها صنماً عتيقاً بائساً خانعاً لا تلوي على شيء، في الوقت الذي سعتْ فيه الخيزران إلى إستدراجها نحو ما هي بحاجة إليه من أمومة، وذكرى أبيها الراحل في زمن إعتادت فيه على زيف المشاعر وعواطف

الحرير الكاذبة والأحاديث المقنعة بالإطراءات والحب الذي لم يكن يُخفي سوى خوفها من الفناء في تدفق الدولة العباسية القوي.

فقد كانت وحدها تحارب وتتوق إلى إعتاق وإثبات نفسها فنجحتْ، ووحدها كانت أيضاً في إستقبال أسرتها دون هارون وموسى وزوجها أمير المؤمنين ففشلتْ وخُذلت من مصير أسرتها المأساوي.

كانت تتوسل أمها مُنفردة بها في جناحها قائلة لها بأسى ومرارة:

- أماه.. أنا إبنتك يا أماه أجيبيني بحق محمد النبي، وهدئِّي من روْعي.

فترمقها أمها بنظرات ذات مغزى وحدها كانت تعرف ماذا تعني بها قائلة لها بصوت آتٍ من ماضٍ سحيق:

- وبماذا أُجيبكِ يا ابنتي؟

- عنك وعن أخويْ يا أماه!

- وما بنا نحن يا إبنتي!

لتلعن الخيزران نفسها في سِرّها آلاف المرات كاظمة غيظها وجنونها من سكون أمها المخيف:

- ألستِ سعيدة هنا في مقامك؟ ألستِ فخورة بي يا أماه؟

فكانت لا تجيبها بل تُحدق بها بصمتٍ مرير، لترى الخيزران في عينيْ أمها ماضيها البعيد وأكواماً هائلة من الخنوع والإنكسار والضعف والهوان، إلى أن تجهش غامرةْ أمها بحرارة دافئة في صدرها بكاءها وآهاتها، دون أن تتأثر الأم المحطمة بدمع إبنتها بأدنى قشعريرة.

وما أدمى قلبها وآلمها أكثر فهو أخوها "الغطريف" الذي كان على درجة عالية من السُفْه والجشع والإنعماس في ملذات القصر إثر ما عاشه وعاناه من حرمان وفقر مدقع، حيث كانت قد رسمت له صورة الرجل اليماني الشهم والفصيح اللسان الذي سيزيد شقيقته سطوةً وفخراً بالقصر، وما أن حلّ عليها حتى رأت فيه الإبتذال والمجون والجواري، فقد ذُعرتْ من إنهماكه في الملذات وتهتّكه داخل جلسات المجون، ومع مرور الوقت وتطاول الغطريف في إبتذاله باتت الخيزران ترى فيه نقطة ضعف وقهر لها فقلقتْ من تصرفاته

وسط الحاشية العباسية، فهي لم تعد جارية بل أم المؤمنين وزوجة الخليفة أليس كذلك؟ فكيف لأخيها أن يحطَّ من قدرها بتصرفاته الصبيانية المذلة لها وله، خاصة بعدما هرعتْ إليها ذات ليلة لعناء جارية حديثة السن والعهد في القصر دامية مذعورة هاربة من جناح أخيها الغطريف بعد أن مزّقَ بقسوة وحشية حرير جسدها.

فثارت ثائرة الخيزران، وإعتبرت أن هذا الإعتداء الوحشي كافٍ لوضع حد صارم وقاسٍ لأخيها وحماقاته، فأرسلت وراءه إلاّ أنه كان قد هربَ من القصر خوفاً من عواقب فعلته الدنيئة، فتوعدته بعقابٍ شديد وأرسلت من يبحث عنه ويأتيها به في أقرب وقت حتى ينال جزاءه، كما قامت بإعتاق الجارية مُجزلةً عليها عطاءاً سخياً وخيّرتها ما بين ان تبقى في القصر مُعززة مُكرمة وبين أن تمضي بإحسان فآثرت الجارية البقاء إثر ما لمسته من حنان ورأفة سيدتها.

أما مصيبتها الكبرى التي أطبقت عليها البلاء فكانت أختها "سَلْسل" الصغيرة والمدللة ذات الجمال الذي لا يضاهيه في سحره سوى إطلالة الخيزران البهية.

إذ كانت تسأل أمها بإلحاح شديد عن سبب شرود أختها وعينيْها الزائغتيْن وذلك العُتْه المحيط بجمالها الزاهي، لتتهرّب أمها من الإجابة بصمتٍ مُطبق، أو ببكاء سخي، إلى أن ضاقت الخيزران من تملّص أمها فلجأت إلى أخيها الغطريف السهل المراس والبوْح بأمر تُصر هي على معرفته، فأجابها بما أدمى فؤادها وبعثر كيانها وألقى بها في حجابها مفجوعة متألمة.

حيث قال لها أن سلسل التي لم يكن عمرها وقتذاك سوى ستة عشر عاماً كانت قد تعرضتْ لإعتداء وحشي من قبل أربعة لصوص إعترضوا طريقها وهي عائدة إلى البيت من سوق البلدة، فأخذوها معهم على عجل إلى بيت مهجور في غرب البلدة القصيْ، دون أن تقوى على الصراخ أو المقاومة، فظلّوا يمعنون في وحشيتهم ويتناوبون على إلتهام جسدها البري الغضّ حتى الصباح، حيث إستجمعتْ ما تبقى من قوتها مُستغلّة نومهم العميق وهربتْ من وكر الفاحشة إلى أن وصلتْ بيتها مُمزقة الثياب والجسد، تكسوها خدوش الوحشية وتراب

الأرض التي أدمت جسدها البريء، ومذّاك اليوم وهي على هذه الحالة من العُتْه والبلاهة وحسرة أمها عليها.

قال لها الغطريف بأنه لم يُصدق رواية سلسل لأنه كان قد خرج ثائراً في أثر المعتدين، ولكنه لم يعثر على أي بيت مهجور في غرب البلدة أو آثار لصوص أو أغراب، خاتماً حديثه بسخرية قاسية دفعت الخيزران إلى لطمه على وجهه بعنف،

في ذلك اليوم الذي أدمى فيه فؤادها بمصاب أختها الصغرى.

شرعتْ الخيزران جاهدة لإنتشال أختها سلسل من بئر الجنون وأن تُعيدها إلى الحياة داخل قصر لا يليق إلا بجمالها، ولكن كل محاولاتها ذهبت أدراج الرياح والخيبة، فسَلْسل كانت قد ذهبتْ دون رجعة إلى أعمق أعماق العُتْه، وهذا ما إقتنعتْ به الخيزران أخيراً إثر إكتشافها أن سلسل تنام في فراشٍ واحد مع غُلام رومي كان من ابهى وأحلى غلمان القصر، إذ كانت تحتضنه وتبكي وأحياناً تعوي كذئبة لأنها لم تعثر بين ساقيْ الغلام الذي كان إسمه "سرور" ما يشي بإخماد محنة إندلعتْ في جسدها منذ أن سفك براءتها ما أقنعت به أمها من أربعة لصوص إنبثقوا بوحشية من شقوق الأرض اليمانية.

جن جنون الخيزران وحمدتْ الله لأن التي إكتشفت الأمر كانت صاحبتها الوفية وكاتمة أسرارها خلوب، موقنةً في خفايا حجابها أن اللعنة قد حلّتْ عليها بحسرة أمها وعُتْه أختها ومجون أخيها.

وفي قهقهات قدرها الساخرة وأماني عمرها الزائلة لم تكن صاحبتها الوفية خلوب لتتخلّى عنها بشماتة وغدر، بل كانت ملجأها الأمين وبئر سِرّها الدفين، إذ كانت تشكو إليها الخيزران جراحها وهمومها ومصائبها التي جلبتها بإرادتها الحرة من أرض اليمن:

- لقد ضقتُ ذرعاً وهواناً بما اصابني بعد كل هذه القطيعة والفراق، والله إني لأشعر عندما أجالس أسرتي بأني غريبة عنها، وكأني لم أكن في بيتها يوماً.

فتواسيها خلوب بلطف وهدوء:

- هذا ثمن الغياب الطويل.. لا بأس يا صاحبتي فمع مرور الوقت ستألفينهم ويألفونك، وأرى أن ما أنتِ بحاجة إليه الآن هو ترويض أخيك الغطريف بحكمة وهدوء.
- أهكذا يكون جزائي قاسياً ومؤلماً، أن أنال حريتي ثم أفقد عزّة أسرتي بعد أن قضيتُ نصف عمري دونها. وكأن الأقدار قد إجتمعت في حلفٍ شيطاني مع البيئة العباسية لتأخذ على عاتقها الإستمرار في رميها بالذل ولفظها من مجلس أميرات البيت العباسي، هي التي إمتد حلمها داخل القصر ليقيم حقيقة حملتْ في جانب بائس من جوانبها مذلة أسرتها المُهشّمة، في وقت حرج ومصيري كانت تُكثّف فيه جهدها وتصبُّه على إبنها هارون الذي أخذتْ على عاتقها المشهود له بالتصميم والإرادة أن تدفع المهدي إلى تعيينه ولياً ثانياً للعهد من بعد أخيه موسى الهادي.

وعلى مشارف المعركة القادمة تداركت الخيزران البلاء بسرعة، وعالجت بغضب وحدة ما خلّفتهُ أسرتها داخل القصر من فضائح وعجائب، إذ قامت بإفناء سرور الغلام، ثم أمرت بعزل سلسل في مقصورة صغيرة بمفردها على أن تقوم الجواري فقط ولا أحد سوى الجواري بخدمتها وتلبية رغباتها.

حيث لم تتهاون في قصرها لحظة واحدة عن إخفاء حال أسرتها عن المهدي رغم أن زيارات هذا الأخير غالباً ما تكون ليلية، فنجحت بعض الشيء في هذا الجانب خاصة بعد أن خصّصَت لأخيها الماجن مؤدباً يربيه على الأخلاق والتربية الإسلامية والعباسية تحسباً من صدفة حمقاء قد تقود إلى لقاء ما بين المهدي وأخيها المُغفّل داخل قصرها.

فانزاح قلقها بتهذيبها لأخيها وحبسها لأختها وتناسيها لأمها..

في ذلك المساء العامر بها زارها الذي ترعرع في شهوتها الرامية إلى جعله آية أمراء بني العباس.

دخل عليها بطوله الفارع وممشوق قوامه، أبيضَ الوجه، وسيم المحيا، تتقّد في محجريْه عينا أمه السوداوْان، وتزيده مهابة بزّةُ الحرب السوداء وسيفه المدلّى على خصره، كان قد جاءها ليودعها وينال رضاها وبركاتها قبل أن يمضي في طريقه أميراً على جيش قوامه تسعون ألف فارس لمحاربة بلاد الروم، وعندما إنحنى ليُقبّل يدها وقفت هي بلهفة وعانقته بحرارة وحنان قائلة له بحزم:

- ولاّكَ ابوكَ جهاد المسلمين دون أخيك موسى، فانصر الله لينصرك على أعداء الدين، فهذه حربك أيها الأمير لا تعد منها إلاّ بسيفٍ يشقُّ لك طريق العزة والنصر.

قبّل جبينها ثم قال لها بحزم إستمدّه منها:

- بإذن الله ورعايته لن اعود إلاّ مكلّلاً بالنصر أو الشهادة يا أماه، فامنحيني بركاتك واحرسيني بدعائك.

وما أن مضى على عجل ليلتحق بركب جهاده، حتى إنهارت هي وأجهشتْ بالبكاء، إذ كادت أن تركض في إثره، ان تتوسّل إليه بالاّ يذهب ويتركها فهو لم يكبر ولم يشتد عوده بعد.

هكذا تجلّت أمومتها الصافية طيلة فترة غيابه بحنان لم تمنحه يوماً لإبنها الأكبر موسى، الذي لم تخشَ على مصيره منذ أن كبر وأصبح يصول ويجول على رأس جيشه في المواقع والغزوات الصغيرة في مشارق الدولة، دون أن تقلق عليه أو تبكي غيابه، كما كانت تبكي على مضي هارون إلى اعتى الحروب وأكبرها على عمره اليانع، ولكن لحظة واحدة، ألم تطلب هي ذلك من المهدي؟!

أليستْ هي التي قالت له بأسلوبها الفذّ والبارع أن أرسِلْ ولدي هارون على رأس الجيش ليشتد عوده، ولتصبح شرعية عهده أقوى من شرعية ابن

عمك عيسى بن موسى، فسَّره رأيها وأخذ به؟

فلماذا إذن كانت تبكي وداع وغياب إبن عشقها وإرادتها الحرة هارون الفارس المغوار والأمير الحكيم بفضل مُربيه الحكيم يحيى البرمكي ورعايتها هي وحبها اللا محدود له؟

هي التي لم تُشفَ بعد من فاجعتها ونكبتها المبكرة بمصرع إبنتها البانوقة، كان هارون أفقها الأخير الزاهي التي تتنفّس فيه هواء الحرية الصادقة وتتذوق حلاوة تفاحتها الشهية، هارون كان حلمها المُتجسد أميراً من دمع ودم، دمها هي التي رأت ما تشتهيه من الغيب، حيث البعيد الذي حلمتْ به ومضت إليه بمركب بَرْقِها لتعود منه مُحمّلةً بماذا؟

هي التي بكت لا لأنها أحستْ بفقدان آخر، بل لأن حدسَها المتناهي الدقة لن يخيب في إصابته لسماء الدولة العباسية وإنارتها بآية هارون.

إذ لم يطل به الجهاد حتى تجلّى أميراً وحلماً بإنتصار سريع حاصر من خلاله عاصمة الروم القسطنطينية دون أن يُريق قطرة دم واحدة من دماء جنده، لأنه انتصر دون قتال مُملياً على أعدائه الجزية وشروط هدنة مُذلّة وقاسية مدحهُ في أجوائها المجيدة الشاعر قائلاً:

"أطفتَ بقسطنطينية الروم مُسنداً — إليها القنا حتى إكتسى الذل سورها
ومارُمتها حتى أتتكَ ملوكها بجزيتها والحرب تغلي قدورها"

فكان نصر هارون المُؤزر والذي أطلق عليه المهدي إثره لقب الرشيد، توطئة عظيمة للخيزران البارعة في الإنسلال إلى لبّ أميرها داخل أجواء من سموّ ولدها في عين أبيه، لكي يكافئه بزواج أسطوري البذخ والترف من زبيدة إبنة أخيه المتوفي جعفر، ثم بتعيينه والياً على مغرب الدولة العباسية يشدّ من أزر حكمه كاتبه ووزيره يحيى البرمكي.

فكان لهذا التعيين أثره البليغ في نفس الخيزران التي إرتعشت للمرة الأولى في حياتها من نشوة أحدثتها هي بنفسها، لا بل أحدثها سريانها اللطيف في شرايين المهدي الذي كان بدوره يزن بدقة متناهية خطوات انتزاع ولاية العهد للمرة الثالثة والأخيرة من ابن عمه عيسى بن موسى وإيلائها لولده هارون

الرشيد، لكي يصبح ولي العهد الثاني من بعد أخيه موسى، فلم يكن في عجلة من أمره كما هي الخيزران المتّقدة، فكل حبائل السلطان في أصابع يده اليُمنى، وفي أي وقت كان قادراً على جذبها بإتجاه سيادة خلافته في بنيه وبمباركة ورعاية الخيزران التي عادت من جديد وبقوة تصميم هذه المرة لرعاية حلمها داخل القصر.

فقد كانت تكبر وتتفتح أكثر من اي وقت مضى، عبر تلبيتها لإحتياجات من قصدها من مساكين ومحتاجين وسائلين، دون أن تنقطع عن قصر الخُلد ركن الخلافة وجوهرتها النفيسة، حيث كان المهدي يدير شؤون البلاد والعباد بحكمه وأناة وتاريخ لم يكن يسمح له بالإلتفات أو حتى معرفة ما كان يجري في قصر زوجته من أسرة مجنونة خرقاء، فالمرة الوحيدة التي سأل فيها الخيزران عن أحوال أسرتها كان بعد نزولها في قصرها بعدة أيام:

– عسى أن تكون أُسرتك على خير حال ومقام؟

– هذا من إغداق مولاي عليّ وعلى اسرتي.

– لو أني أعلم أن السرور على مُحياك على هذه الدرجة من البهاء لأتيتك بأسرتك من قبل.

– وسروري بحلولك عليّ ألاّ يسرُّ خاطرك يا مولاي؟

– بلى ويطربني أيضاً.

هي التي كانت تشتهي بصمت ولا تطلب شيئاً، تتمنّى ولا تتوسل، وتحلم ولا تتوهّم.

فمنذ مكوثها داخل القصر جارية وحتى إنعتاقها سيدة حرة لم يسألها عن أصلها سوى مرة واحدة عابرة كانت يوم لقائه بها ذات نصف تفاحة، لتتعمّد بعد ذلك في خضمّ حظوتها لديه الهروب من ضعفها وتوسّلها إليه: (أحضر لي أسرتي اتوسل إليك يا مولاي) لا لم تكن بحاجه إليه هو لكي يأتيها بأمها وأخويْها، فما فائدة كل ما حدث، كل ما أفنتْهُ من براءة وطفولة وورد وهي جارية في سبيل حريتها؟

وكيف كانت ستقدر على إستقبال ومعانقة اسرتها بجسدٍ ليس ملكها؟

لا والله

لذلك كانت على عجلة من حلمها، تهربُ من اللهفة إلى لهفةٍ أخرى منالها فؤاد المهدي ورضاه، لكي يمنحها في النهاية حريتها ويجعلها أمرأة قادرة على مواجهة أسرتها بقدرها العالي والسامي.

إذ سعتْ إلى الحرية ثم المقام ثم التمدد في ظلال المهدي، وإلى عرقلة موكب الأميرة العباسية في طريق لن يكون إلاّ لها، وقارعة شاسعة بالظلام لن تكون إلاّ من نصيب الذين يقفون في وجه أحلامها، فكان فجر وكان نور وكانت هي سيدة حرة أعدت نفسها وممشوق قوامها الفارع، وسطعتْ كما يليقُ بها لتستقبل أسرتها القادمة من ويلات الأرض اليمانية، فقَدِمَتْ الأسرة ولكنها لم تُقدم الدفء والحب لإبنتها المرتجفة التي قدَّمَتْ في سبيلها عمراً كاملاً من الورد الذاوي.

هانتْ الخيزران..

ضعفت وإرتدّتْ إلى حجابها، إذ هو رحمها السري الذي تعود إليه لتولد من جديد أقوى من ذي قبل، وهذا ما حدث ويحدث وما سيحدث، فهي التي عاهدتْ نفسها بألاّ تزول نعمة حلمها وجذوة شهوتها التفاحية حتى تزيل ما أحاط بها من لعنات دربها الطويلة، فكانت مستعدة بعتادها الكامل لحرب لم تُشعلها هي، ولكنها ستطفئها بنصر لطالما لقّنها حجابها كيفية إحرازه.

-3-

في فضاء مجلسها الصغير كانت بمفردها تُحلّق بُفلّكِ أمانيها وخواطرها عندما هبطتْ بها فجأة خلوب الداخلة إليها بإنشراح:

- السلام على مولاتي أم المؤمنين.

رمقتها الخيزران بعينيْن غاضبتيْن ثم قالت لها بحده:

- أنا صاحبتك ولست مولاتك.

اضطربتْ خلوب وأجابتها بخفر:

- والله إني لأخجل بعد كل هذا القدر والمقام أن أخاطبك وأناديكِ هكذا.

- ويحكِ.. إنما القدر على قدر الوفاء والإخلاص، فما أنا إلاّ التي أنقذتِها أنت من تلك الحبشية المتوحشة.

كتمتْ خلوب ضحكتها بصعوبة ثم سألتها بخبث:

- وأين هي الآن يا صاحبتي؟

إبتسمت الخيزران:

- ومن هي؟

- الحبشية؟!

- نائمة في سريرك.

ثم إنخرطتا معاً في نوبة ضحك صاخبة كطفلتيْن عابثتيْن أفضى بهما سرورهما وجذلهما إلى سابق عهدهما معاً في القصر الزينبدي، وذلك الماضي الذي كانت فيه الخيزران غرّة حديثة السن بأسئلة كانت تخنق بها خلوب، وتُلحّ عليها لتكشف لها عن ملامح الجواري وحياتهن وقصر الحرير ومشتقاته، تذكرتا في السمر اللطيف تلك الجارية المغنية مكنونة التي لولا ستر الله لأزهقت روحها وصوتها المكنون الخيزران التي قالت مصارحة خلوب:

- ما غرتُ من أحد من النساء مثلها"

فقالت خلوب بريبة:

- أهذا دأبكِ حتى مقامك هذا؟

إنفلتت ضحكة قصيرة فاحشة من الخيزران ثم قالت:

- الآن؟! وكيف أغار وأنا سيدة المقام، فهل تعلمين بأني قد أرسلتُ بالأمس جاريتي "قاسية" إلى المهدي؟

- ويحك! أترسلين أفعى رومية حسناء إلى أحضان ولي أمرك؟!

- صبراً يا صاحبتي.. فالأمير على مرض ويجدرُ بي ان أقوم على صحته والإعتناء بعافيته فارسلتُ له "قاسية" التي تُدفىء الضجيع وتروي الرضيع ومعها الدواء الذي كتبتُ على إنائه:

إذا خرجَ الإمام من الداء وأعقب بالسلامة والشفاء

وأصلح حاله من بعد شرب   بهذا الجام[1] من هذا الطلاء
فينعمْ للتي قد أنفذتها   إليه بزورة بعد العشاء.

وضعت خلوب يدها على خدها بذهول طفلة ثم سألت بفضول:

- وهل إستعاد مولانا عافيته بعد العشاء؟!
- إسألي قاسية يا جارية
- والله ما قاسية سواك!

لم تكن تضحك تلك الضحكة الصافية إلا مع خلوب، إذ كانت تشعر برفقتها بسرور النفس وراحتها بلا حجاب وبهرجة المجالس.

قالت لها بحزم بعد أن هدأتْ عاصفة الضحك:

- هل تعلمين ماذا أرسل لي مولاي مع قاسية اليوم؟
- وأنّى لي أن أعلم!
- لقد أرسل إليّ أغلى الهدايا وأبهى الحُلل واسمى الأماني، إذ أغدقَ عليّ بإيلاء ولاية العهد الثانية لابني هارون.
- ويلك.. قد فعلتها أخيراً!

نظرتْ إليها الخيزران بجذلٍ مُجلّلٍ بالإكتفاء دون أن تتفوه بكلمة، بعد أن زهتْ وسَمَتْ بمقدمة العظمة القادمة التي شرعتْ منذ مجلسها هذا بالإعداد الحاذق والبارع لإستقبالها، في الوقت الذي إعتقد فيه العديد من أمراء البيت العباسي أن المهدي سينتزع ولاية العهد الثانية من إبن عمه عيسى بن موسى ليُوليها لإبنه عبيّد الله بن ريطة إبنة السفاح العباسي الخالص النسب، ولكنه فاجأ الجميع بتعيين الإبن الثاني لمن كانت محظيته وجاريته، لتصبح ولايتا العهد لإبنيْها دون إبنيْ ريطة.

هي الخيزران بشأنها الأعظم الذي تتدلل فيه وتُحلّق على متن بَرْقها الفضي ووقتها المُذهّب، وقت الإقتراب من جديد والإقامة في حجاب الخليفة، ولكن هذه المرة بقصرٍ جديد شُيّدَ على أرض دولة تُطلّ على الدنيا من شُرفة تاريخ

(1) الجام: الإناء البلوري.

ذهبي مجيد كانت هي فيه سيدة الظلال الحرة.

حيث أمرها المهدي بأن تشدّ رحالها وتمضي معه إلى قصر "عيساباذ" الذي بناه شرق بغداد ليُشرف منه على شؤون العباد.

فلم تتردد الخيزران لحظة واحدة عن الذهاب مع سيدها وأمير فؤادها، فهذا كان برهانا صارخا آخر على شغف الخليفة بها ووقوعه في حبائل بصيرتها، وهيامه بأنفاس عشقها، والأهم من هذا كانت تلك السعادة التي إنتابتها لأنها عادت من جديد إلى جوهر مجلس الخلافة، حيث عماد الدولة الذي يجري فيه كل ما يكفل التاريخ المنير للعباسيين.

كانت تتقدم نحو السيادة المُستترة، هي المرأة ذات الستر الأسود والبرقع السرمدي من شدة شهوتها خلّفتْ وراءها في قصرها اسرتها المتهالكة، إذ لم تشأ أن تحمل على كاهلها أحمالاً وأعباءاً من الضعف والخنوع، لقد سئمت من حياة الصمت والخشية، فتركت قصراً رغيداً لأسرتها، لأمها التي كانت على مشارف الخمود الأخير وأخيها الذي بدأ يصحو من خبل شبقه الدامي وسَلْسل البلهاء الملقاة في غياهب النسيان.

تركت الذين اصبحت في سبيلهم ما هي عليه الآن، لتمضي مع مولاها وسيد البلاد إلى مُستقبلها هي هذه المرة ما دامت قد خسرتْ اسرتها للأبد.

إلا أنها لم تترك خلوب فُسحتها النقية والصادقة، إذ كيف يمكن أن تتخلّى عنها وهي الصديقة الوفية التي ستكون بأمسّ الحاجة إليها في القصر الجديد الذي لا يحتوي فقط على بلاط الخليفة ومجلسه، بل ايضاً على مجلس الكبيرات والقديرات من أميرات البيت العباسي الشريف.

-4-

في قصر عيسا باذ أدركت الخيزران أن حب المهدي وإسكانه لها في بلاطه ومجلسه الخاص حيث معتاد حجابها، يجب أن يطغى على القصر الكبير بجميع ساكنيه، ليغدو درعها الحامي وحصانتها القوية التي ستحميها من لؤم الألسنة وتهافت التمتمات الجارحة على بابها، فقد كانت على يقين بأن من تُحيك

ضدها في الخفاء المكائد والمؤامرات الرامية إلى الإطاحة بها عن فؤاد المهدي هي زينب إبنة سليمان أميرة البيت العباسي وسيدة نسائه وأعلاهن قدراً ومرتبة.

إذ لم تكن الخيزران لتخشى من حسد زينب وتذمّرها من تصرفاتها وتسترها بحجاب الخليفة، بل كانت تخشى من غدرٍ خفيٍ مُحْكَم قد يُصيب كبرياءها وسموّها داخل قصر لطالما إعتاد سادته على إفناء أقرب أصحابهم إليهم في لحظة غدرٍ ملعونة ومجنونة.

إلا أن خشية الخيزران ما لبثتْ أن تبدّدت بسموّ مكانتها أكثر لدى المهدي، خانقةً بتمددها زينب وكل من لفيفها، فمن كان ليلعمْ أن الحظوة المتصاعدة والمكانة المتألقة داخل القصر الجديد، تعزّزتْ بعد أن شهدتْ الخيزران الإحاطة بوزير المهدي "داود بن يعقوب" الذي نال من الحظوة وتسيير أمور البلاد ما لم ينله وزير المهدي السابق إبن يسار؟

إذ أعدتْ على أنفاسها الهادئة حيلةً بارعة قطعتْ الشك بيقين الخيانة، مُبدّدةً حيرة زوجها وقلقه عندما أشارت عليه بإهداء جارية حسناء فاتنه لوزيره لكي تتجّسس عليه وتكشف ما عنده من خفايا تؤكد شكوك المهدي، فلم يتردد هذا الأخير بدوره لحظة واحدة عن تنفيذ حيلة الخيزران، ليكتشف فيما بعد خيانة إبن يعقوب لعهده وأمانته إثر عثور الجارية في بيت الوزير على رجل علوي كان المهدي قد أمر بقتله، إلاّ أن إبن يعقوب ضلّلَ سيده وكذب عليه مُدعياً بأنه قتل العلوي في الوقت الذي كان فيه هذا الأخير يتمتع بالخير العباسي في بيت إبن يعقوب الوزير الذي إنتهى أمره بإنكسار ذريع وحبسٍ مُريع في غيابة الجُب.

كانت هذه الحيلة الناجحة كفيلة بتسيّدها على مجلس الأميرات مُتمتعةً بالمزيد من الثقة بالنفس وفؤاد المهدي الخافق بحبه لها، فهي غدتْ مُدبرة أمره المُستترة وأم الوليين وزوجة الخليفة الظاهرة للعيان بورعها وتقواها.

إلاّ أن زينب الحرة إبنة البيت الحر، ما فتأتْ تجرح الخيزران بتمتمات خافتة في مجلس نميمتها الخبيثة، مُتعمدة ذلك في حضور صاحبتها خلوب التي ضاقت ذرعاً وغيظاً قادها في ذلك المساء إلى جناح الخيزران:

- يا لهذه زينب كم هي عجوزٌ متعجرفة!

سألتها الخيزران مُبتسمة:

- ولماذا تذّمينها بكل هذا البُغض؟
- لقد سمعتها تهجوكِ في مجلسها.
- وماذا قالت؟
- لن أقول.
- أكان هجاءاً قاسياً؟
- نعم.

رسمت الخيزران إبتسامة واسعة على وجهها لتطمئن صاحبتها بأنها لن تغضب من سماع الهجاء:

- أستحلفك بالله أن تقولي يا صاحبتي.
- حسناً.. ولكنه من قصيد النابغة الذبياني الذي نقلتْ عنه:

"صِلٌّ صفاً[1] لا تنطوي من القِصَر طويلةُ الإطراق من غير خَفَر

داهيةٌ قد صَغُرَتْ من الكِبَر كأنما قد ذهبت بها الفِكَر

مَهْروتةُ الشدقيْن حولاء النظر تَفْتَرُّ عن عوجٍ حِدَادٍ كالإبر

إنتابتها مرارة الهجاء وأطرقت للحظات في أجواء صمت ثقيل، إلى أن رفعت رأسها قائلة بسخرية مؤلمة:

- أهكذا إذن.. أنا أفعى!
- لا والله بل هي كذلك.
- فليسامحها الله فما قصدتُ سوءاً لها فهي إبنة عم ولي أمري الكبرى. في سِرّها لن تنسى الخيزران هذا الهجاء، إذ توعّدتْ زينب بما ستذلّها به ويحُطُّ من قدرها داخل القصر دون أن تُقحم نفسها في سجالٍ أحمق مع تلك العجوز، في الوقت الذي كانت فيه هي زوجة الخليفة ذات تأثير كبير على معظم أميرات البيت العباسي اللاتي كن يُقدّرنها ويحترمنها لا

(1) الأفعى الصفراء.

لأنها زوجة أخيهم وإبن عمهم فحسبْ، بل لأنها أيضاً كانت متفانية في خدمتهن وتلبية إحتياجاتهن لدى الخليفة، بالإضافة إلى تواضعها وبساطتها في حديثها داخل المجلس بما هو معهود منها من فصاحة لسان وبلاغة بيان.

إلى أن جاء اليوم الذيستردُّ فيه الخيزران على هجاء زينب ولكن بطريقتها الخيزرانية الخاصة، إذ بينما هي مُتربعة على عرش مجلسها ومن حولها الأميرات العباسيات، وزينب الباهتة الزهو كطاووس طاعن بالسن والكبرياء المتهالك، قصدتها في مجلسها "مُزينة" الأموية زوجة آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، فأذنت لها الخيزران بالدخول رغم أنها كانت قد لاحظت غيظ زينب من السماح للأموية بالدخول على مجلس نساء البيت العباسي.

ودخلت مُزينة امرأة على قدر عظيم من الجمال الباهر، رغم هيئتها المُهلهلة والرثّة، فتألمت الخيزران من مذلتها وإنقلاب حالها من زوجة خليفة إلى متسوّلة لا تكاد ثيابها البالية تستر عُريها، فأغروْرقت عيناها بالدموع، فصاحت بها زينب طالبة منها بألا تأخذها الرأفة بهذه التي كانت إبان عهد بني أمية الغابر مُتجبرة مُتغطرسة بطغيان زوجها على بني العباس، ولكن الخيزران لم تستجب للأميرة العباسية، بل أجزلتْ العطاء على مزينة، وأمرتْ بجارية ترعاها في مقصورة صغيرة داخل القصر، وأن تُلبي كافة إحتياجاتها، لا لتذلّ زينب وتكسر كلمتها فقط، بل لأنها شعرت بحق وصدق بمذلة مُزينة الأموية وبما حلّ عليها من مصائب الدهر ونكباته.

لينالَ تصرف الخيزران النبيل هذا إعجاب الخليفة ورضاه، مُظهراً مكارم أخلاقه في صون رحمه، فمُزيّنة لم تكن إلا من صُلب قريش الهاشمية، وعليه فهي إبنة عمه التي تهللتْ أساريره عندما علم بمراعاة زوجته لها.

والأهم من ذلك هو سرور الخيزران الخفي عندما أنّبَ المهدي زينب وعاتبها رغم رفعة مقامها على سوء معاملتها ونبذها لقريبتها الأموية لتَنظُمْ الخيزران من تأنيب المهدي هجاءاً قاسياً أذلّتْ به كبيرة الأميرات العباسيات وأرفعهن شأناً ومقاماً.

داخل حجابها السامي والمنعزل عن القصر، كانت الخيزران ترتجف خوفاً وقلقاً من عظمة قرار المهدي الأخير.

إذ كانت خشيتها تنبع من عناد موسى وفظاظته، ورفضه لدعوة أبيه إليه بالقدوم إلى "عيساباذ" من أجل إقناعه بالأمر.

لقد كان مسعىً مهولاً بحق، وعلى درجة من الخطورة بعد كل هذا المسير الحريري الهائل والطويل للخيزران في القصر العباسي الذي غدت فيه سيدته وأميرة حجاب الخليفة.

فليس من السهل تقديم هارون على أخيه في ولاية العهد، أثناء الوقت الذي كان موسى يحارب فيه فتن مشارق الدولة، إلاّ أن المهدي كان قد عقد لواء نيته وعزمه وإتّكل على ربه، ولن يرتد عن دربه، الدرب التي أنارتها وباركتها له الخيزران عندما أكدتْ على أن هارون إبن عشقها يستحق ولاية العهد من بعد أبيه أكثر من أخيه موسى، الذي لم يفقه شيئاً من شؤون الإمارة سوى عظمتها وبطشها دون حكمتها وحسن درايتها.

قالت الخيزران للمهدي أن هارون قد حاز على رضا الرعية وإلتفاف الجيش وقادته من حوله، إثر بزوغ نجمه بأكثر من نصر مُؤزّر كان قد أنعم الله به على الخلافة العباسية، إذ لم يكن الرشيد فارساً فقط بل كان بأعوامه التسعة عشر يسير بحكمة وبصيرة أحاطته بها أمه المشغوفة به وبرعايته أميراً عباسياً لا يليقُ به سوى إستخلاف أبيه، فاجتمعت الفتنة والحكمة معاً من أجله وفي سبيل إمتدادها به هي التي أيقنت أخيراً أن لا عودة إلى الوراء لا تردد ولا إرتداد، فالدرب باتت دربها المفتوحة بسيف ولدها الأبهى ورعاية خليفتها وأمير نفسها المهدي الذي لم يرضخ لتردد أنفاسها اللاهبة وصوت بصيرتها الثاقبة في عباءته فحسب، بل إقتنع أن هذا هو الحل الأمثل الذي يُمكّنه من حفظ سلالته وبسطها في دولة قوية، وعلى هذا إعتمد ومضى بدعاء زوجته ومحظية فؤاده إلى ولده منها، إلى "جرجان" حيث أعماق الفتن المشرقية والفارسية من أجل إقناعه

بضرورة التخلي عن ولاية العهد الأولى لأخيه الأصغر، مدركاً صعوبة عزمه وتداعياته الخطيرة على دعائم الدولة، إلاّ أنه في نفس الوقت كان واثقاً تمام الثقة بقدرته الحازمة وسلطته الصارمة التي لن يقف أمامها موسى بل سيرضخ لمشيئة ابيه رغماً عنه لصالح أخيه الفائق الحكمة والشجاعة وحب الأم وحظوة الأب.

في ذلك الأصيل..

كانت في حجابها تنتظر ملهوفة بريداً يزفُّ إليها خبراً يسرُّ فؤادها داخل عزلتها القاسية، ويُذهب قلقها ويُهدّئ روْعها، إذ كانت تخشى من أمرٍ، لا تعلم ما هو، يُطبق على صدرها يخنقها.. تتململ في سريرها، تُحدّق في سمائها السوداء، تبحث عن خليفتها وعزمه المباح ونيته الحلال، فلا تلمح إلا بريق عينيْ موسى وحدة تطلعه الحرام، ترتاع من المشهد، ترتجف، ترى موسى فاغر الفم والزبد يُحيط بشدقيه الطامعيْن والدماء تُلطخ وجهه، يبتلع نجومها ثم يقذفها في وجهها دماء، تراه، يُطْبق على قمرٍ بهيٍ قمرها، يقضم إستدارته، يفسد بَدْره، يلوكه بطريقة مثيرة للإشمئزاز والقذارة، تشهقُ عندما يقذفه في وجهها، تعجز عن الصراخ، تتملّكها غُصّة زقومية تطيح بها عن سرج سمائها، كان آخر ما سمعته ضحكة موسى المُجلْجلة.

إنتفضت في سريرها، وقفزت عنه كامرأةٍ مسّها الشيطان الأكبر، تخبّطتْ داخل جناحها، تقلّبتْ، زمجرت لبؤةً مأسورة في قفص صغير، كانت تخشى من يقين حلمها، ثم توقفتْ فجأة عن الطواف حول سوادها، كما لو أنها تذكرت أمراً، فوضعت برقعها على وجهها وعدّلتْ من هندامها بسرعة، طاردة منامها الهائج عن هيئتها ثم حدّقت بمرآتها بهدوء.

في المساء..

جاءها يحيى البرمكي بعد أن أرسلتْ وراءه هي، ليلاحظ أنها مُبعثرة مُرتعشة على غير عادتها وحضورها المهيب.

سألته وهي تحاول إخفاء إضطرابها وقلقها:

– أين هارون؟

أجابها مستغرباً

- الأمير في قصر الخلد يا مولاتي وسألتحق به غداً بعد عودة أمير المؤمنين.

قالت بصوت خذلها ببُحّةٍ وتعلثم:

- أرسل إليه الآن لكي يأتي إلى هنا.

زادت دهشته حدة:

- ولماذا؟

- أخشى أن يكون ثمة مكروه قد اصاب الخليفة في جرجان.

- وكيف علمتِ؟! هل جاءك رسولٌ يُخبر بهذا؟!

أجابت كالتي إستيقظت لتوها من كابوس:

- كلا.. كلا.. ولكن حدسي لا يخيب يا أبا الفضل.

- وما هو حدسك ولماذا تريدين مجيء هارون؟!

عادت مرة أخرى إلى سُباتها مُكررة ذات الكلام بحدة هذه المرة:

- إجلب لي هارون، ارسل إليه.. يجب ان يكون هنا بجانبي.. ثمة مكروه وقع للخليفة.

حاول يحيى أن يُهدئ من روعها، ولكنها صرخت في وجهه بحدة طالبة منه أن ينفذ ما أمرته به، فانصرف من أمامها غاضباً مذهولاً دون أن ينبس ببنت شفة.

وما أن غادر مجلسها حتى وقعت على الأرض، وإرتجفتْ بعنف، مُتمتمة بكلام غريب إلى أن دخلت في لُجّة الظلام.

ظلامٌ أسفلها.. فوقها.. في قلبها وعقلها وعينيْها وروحها، كل ما يحيط بها ويسكنها كان ظلاماً، لم تُبصر أحدا، ولم تلتمس نوراً يضيء لها درب العودة، أو ناراً تدفئ أناملها التي قضمها صقيع الظلام.

لم يطلْ غيابها حتى أعادتها إلى نور الحياة صاحبتها خلوب التي هالها ما رأته وسمعته من الخيزران وهي غائبة عن الوعي وحياة مجلسها.

رمقتها الخيزران بنظرة مخيفة قائلة لها ببُحّةٍ حارقة:

- هل جاءني رسولٌ من طرف الخليفة؟

نظرتْ إليها خلوب بعينيْن دامعتيْن، وهزّتْ رأسها بالنفي، ثم إقتربت منها لكي تعانقها، ولكن الخيزران إنتفضت فجأة، وأبعدتْ خلوب عنها قائلة بلوْعة:

- ويحك أتكذبين يا خلوب؟!

إضطربت خلوب وقالت بصوت خافت حزين:

- أبا الفضل ينتظر خارج مجلسك منذ العشاء أأدعوه إلى الدخول؟

فأجابتها بلا تردد:

- نعم.. نعم.. أدخليه هيا إذهبي.

وما أن أعدّتْ سِترها وبرقعها حتى دخل عليها يحيى مضطرباً حزيناً حاملاً بيده لفافة أميرية من بريد المهدي الخاص، لمحتها بسرعة، ثم سألته في محاولةٍ منها لطمأنة نفسها:

- شارف الليل على الإنتصاف فما وراءك يا أبا الفضل؟

لم يُجب، بل نظر إليها بعينيْن دامعتيْن ثم ناولها الرسالة بصمت.

أمسكت الرسالة بيديْن مُرتعشتيْن، ثم فضّتها على عجل، وقرأتها بهدوء تام، إنقلبتْ فجأة إلى تمثال عاجيٍ مُجلّلٍ بالسواد، ثم ألقتْ الرسالة على أرض المجلس، وأغمضت عينيْها للحظات إستعادت فيها نفسها ورباطة جأشها، ثم تنحنحتْ طاردة بَحّة صوتها قائلة بحزم"

"لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجبني سعيُ الفتى وهو مخبوءٌ له القدر
يسعى الفتى لأمورٍ ليس يُدركها والنفس واحدة والهمٌّ منتشر"

ذُهل يحيى متفاجئاً من عدم إنهيارها وتأثرها بما إحتوته الرسالة من مصاب جلل، إذ إعتقد لا بل كان جازماً من أنها ستتهشّم كآنيةِ خزفية، هي التي كان يهدئ من روْعها قبل ساعات ساعياً إلى طرد كابوس راودها، كان واثقاً بأنها ستذوي في نحيبٍ حارقٍ ومؤلم سيردفها خلف أميرها على متن الموت المباغت.

أميرها المهدي خليفة المسلمين وأمير المؤمنين الذي عاش إحدى وأربعين سنة قضى منها عشراً وشهراً ونصف الشهر خليفة للمسلمين، ليتوفاه الله في ليلة

الخميس الثاني والعشرين من مُحرّم من سنة 169 هجرية، الموافقة للرابع من أغسطس من 785 ميلادية، وهو في طريقه إلى ولده موسى من أجل أن يحمله على التخلي عن ولاية العهد وتقديم أخيه هارون عليه، حيث توفي في منتصف طريق عزمه على مشارف جرجان.

قال لها يحيى بأصدق عبارات المواساة أن سبب وفاة المهدي كما علم، هو أنه كان قد إصطدم على متن فرسه بباب خِربةٍ عندما كان يطارد غزالاً في رحلة صيد أثناء الطريق إلى جرجان إنتهتْ بإفتراسه هو.

مخفياً عنها ما قيل أيضاً عن أن سبب وفاة الخليفة كان سُمّاً زعافاً دُسَّ له في طعامه، لأنه لم يتثبت من صحة هذا النبأ.

ظلّت الخيزران على حالها واقفة وشامخة بسوادها، لم تذرف دمعة واحدة أو حتى أن تصرخ صرخة لوعة وحسرة، بل كانت وسط حيرة يحيى والصمت الثقيل متماسكة قوية، إلى أن قالت بخفوت:

– ألم أقل لك أرسل وراء هارون فحدسي لا يخيب؟

أجابها يحيى مستغرباً

– سيصل في الصباح الباكر، ولكن لماذا تُصرُّ مولاتي على قدومه؟!

أجابته بحدة:

– لأنه سيصبح خليفة أبيه

– ولكن الولاية لولي العهد موسى الهادي:

– أي تُرّهات هذه يا يحيى؟

فأجابها يحيى شعراً بحزن خافت:

"يخونك ذو القربى مِراراً، وربما وَفَى لك عند العهد من لا تناسبه"

– ماذا تقصد؟

– لن أقول لكِ سوى الحق النابع من حرصي عليكِ وعلى ولدك، إن الخليفة لم يحسم ولاية العهد لصالح هارون، إذ توفاه الله قبل أن يُتمّمَ مسعاه، ولذلك فإن موسى ما زال يتمتع بولاية أبيه، وإني والله لأُ جْزم بأن ما

تسعين إليه الآن من تقديم لهارون على أخيه ولم يُدفن أبوهما بعد، سيؤدي إلى ما لا تُحمد عواقبه، فلن تكوني قادرة على هذا الأمر...

قاطعته بحدة:

ألستَ في صفي.. أليسَ الجيش مع هارون؟

أردف في حديثه دون أن يكترث بمقاطعتها الحادة له:

– هذه سابقة يا مولاتي في أعراف البيت العباسي أن ينتزع الأخ الأصغر ولاية العهد من أخيه الأكبر، كما أن الرعية قد شهدت وبايعت على العهد المُوثّق بختم المهدي وإلتفاف الأمراء وقادة..

قاطعته مجدداً في محاولة يائسة للتشبث بما تبقى لديها من أمل:

– أرسل إلى الربيع بن يونس لنلتقي به في الصباح هنا من أجل حسم الأمر...

قاطعها بأدب:

– العفو يا مولاتي فإن ما تبغينه لعظيم، فالربيع في صفّ موسى الهادي، وما أراه الآن هو أن تهدئي من روعك وأن تحكمي على ما أصابنا بصبر وأناة، فكل جيوش خراسان مُنضوية تحت راية موسى الذي لن يتخلى عن عهده في قيادة الأمة ومن خلفه ولي عهده الأول هارون، الذي يجب أن نحافظ على ثقة عهده وحضوره داخل بلاط أخيه الذي سيصبح خليفة غداً.

حدّقت به بعينيْن حزينتيْن من وراء برقعها ثم قالت بإستسلام وخفوت:

– لقد صدقتَ واصبت.

قال لها من جديد مرتاحاً في حديثه هذه المرة:

– وأما لقاء الربيع فاعذريني يا مولاتي فلن أكون حاضراً بجانبك فأنا وزير هارون، والربيع داهية لا تخفى عليه خافية في الوقت الذي يخشى فيه موسى الآن من تأليب أولي الأمر ضده وإطاحته عن ولاية العهد لما علمه من عزم أبيه عليه، لذلك يا مولاتي أرى ان تطمئني موسى من خلال الربيع، وذلك بأن تطلبي منه منح الجند عطاء عامين تجنباً لشغبهم إثر وفاة الخليفة، وأن يأخذ البيعة لموسى ومن بعده هارون.

تفوق عليها يحيى هذه المرة، بعد أن أبرز لها جوانب هامة وخطيرة كانت قد خفيتْ عليها في خضمّ حزنها ويأسها، مشيراً عليها بضرورة حماية عهد إبنها هارون من خلال تثبيت عهد موسى رغماً عنها في هذه الظروف الصعبة لحين بزوغ فجر آخر قد تكون فيه ملامح العرش عرش هارون ساطعة وواضحة.

لم تنم في ليلة الفقدان ونكبة الأحلام، مُنتظرة بهيئتها الصنمية حلول الصباح، لتُنفّذ ما أشار به عليها يحيى البرمكي.

وما أن أشرقت شمس أول يوم لها في القصر من دون زوجها الخليفة الراحل، حتى إجتمعت الخيزران بالربيع بن يونس في مجلسها.

حيث إعتقد الربيع للوهلة الأولى بأنه كان على أتم الدهاء والجاهزية من أجل الإيقاع بها في هذا الإجتماع لصالح موسى، فهو كان يريد حماية رأسه بولاءٍ يستمدّه من كشف نوايا الخيزران الرامية إلى الإطاحة بولدها الأكبر من قبل أن يصبح خليفة، إلاّ أنها باغتته وأذهلته عندما أملتْ عليه ما أوصاها به يحيى بكل تماسك وحزم رغم مصابها الجلل، فإنقلب عليه سحره ليخرج من سطوة سحرها هي لاهثاً ساخطاً منفذاً لمشيئتها التي لن تؤذيه ولكنها لن تمنحه الحظوة الكاملة لدى موسى القادم من المشرق خليفة عباسياً رابعاً للمسلمين.

لم يطل بها مقام وحدتها طويلاً حتى دخل عليها هارون بمُحياه الحزين، فارتمى في حضنها مجهشاً بالبكاء على فراق أبيه المفاجئ، فاحتضنته بقوة لم تسمحْ لها بذرف دمعة أو آهة حسرة في حضرته، ثم مسّدتْ على رأسه بيديها بحنان قائلة له بصوت حازم:

- إن الذي لدى الله سبحانه وتعالى خيرٌ وأبقى يا ولدي، فقُم الآن أيها الأمير وتجلّد وتماسك وإمضِ لتُشهر عهد أخيك آخذاً له البيعة في البلاد.

رفع رأسه قائلاً بصوتٍ مختنق مرير:

لقد أرسلتُ إليه شارات الخلافة يا أماه، وسيصل إلى القصر بعد عشرين يوماً خليفة للمسلمين.

كفكفت دمعه بيدها قائلة له بإصرار وحزم:

- وأنت ولي عهده الأمين أيها الأمير فاصبر وصابر، وإذهب الآن لتُعِدَّ لأبيكَ

مثواه الأخير.

وذهب حلمها المُنتكسُ وبقيتْ هي التي لم تنم منذ يومين فالنوم قد سرق منها أميرها، إذ كانت في حضرة الفقدان وولدها هارون لبؤة صارمة حازمة، فمنذ أن علمتْ برحيل سيدها وأمير أمرها لم تبكِ بعد، لم تَنُحْ عليه وتُمزّق ثيابها رافعة عقيرتها بالرثاء، كانت على مشارف الإغماء بجسدٍ واهن بهُتَتْ نضارته عندما خلا مجلسها من زوارٍ قليلين أمْلَت عليهم توطئة ما هو قادم.

أسدلتْ الحجاب على نفسها..

ها قد بدأ حدادها..

غرقتْ في نحيب حارق جارف، مُجهشة كما لم تُجهش يوماً بالبكاء..

أخرجتْ كل ما في صدرها من حزن وألم وحسرة ونكبة، ثم رثته..

رثتْ الذي هام بها وأسكنها في فؤاده، فهل أحبته حقاً؟!

هكذا تَعربشَ على رثائها السؤال الأدهى والأفدح، هل أحبته؟

كانت تسأل نفسها بقسوة ليجيبها دمعها وحسرتها على فقدانه ولوعة غيابه، هي التي منحته تفاحة عمرها الشهية فمنحها مقابلها كل العشق الذي أحالها إلى السيدة الكبرى وصاحبة الحظوة القصوى، أميرة القصر العباسي وأم المؤمنين، فهل أحبته حقاً بعد دمائها الأولى وتشرّدها في حرير الحريم، هل كانت لترضى به عاشقاً لو لم يكن أميراً إبن خليفة؟

في حَشْرجات الليل وآناته ومطالع شهواته..

في إندلاقه عليها عشقاً وعسلاً صافياً أدّى بها إلى التحليق في حلاوة سماء الذروة، وفي إمتطائها لمتنه وإمتشاقها لسيفه هل أحبته هو الذي فرّط بالنسب الصريح مُفضلاً سحر نسبها ليبني به سلالته التي ستمتدُ في التاريخ العباسي؟

هو الذي قضى نَحْبه في سبيل أمانيها وشهوتها المتشبّثة بعباءته، شهوةُ النفوذ وعقد النوايا والمساعي الخفية، إذ كل هذا كان سبيلها وهدفها الأسمى، أن تسود من وراء حجاب فهل أحبته حقاً؟

وهل ستستسلم بسهولة لقسوة موسى وعناده الأحمق في قادم أيامه خليفة للمسلمين؟

هل سترضى بمصير الأرملة الجلَل خانعةً داخل مجلسها دون نعمة حجابها؟

يشتدُ رثاؤها بالبكاء..

تُمزق سوادها..

تزيل برقعها..

يَنْبلجُ ضياؤها الغضّ..

تومض عيناها..

تنفض شَعْرها..

تطرد دمعها..

تقف.. تشمخ.. تتأهَبْ

ثم تنتفض على ما تبقى لها من مصير:

- لن يَفُضَ حجابي سواي

لن يَفُضَ حجابي سواي

لن يَفُضَ حجابي سواي

تردد هذيانها..

تَغْمَهُ فيه..

ترقص.. ترتجف.. تركض.. تعلو.. تهبط بجنون في حجابها، ثم تسقط من حالق نكبتها كابوساً عليها...

الفصل السابع عشر:

إمتداد الحلم

بساطٌ من الريح هي القافلة تخفُّ بي وتُحلّق، أرى الصحراء المترامية الكثبان والنخيل الشحيح من عُلو حلمي الساكن بي داخل هودجي الطائر.

كنتُ أختزن كل ما حولي وأجترُّ كناقتي ما تُلقيه عليَّ الطريق من زوادة سفر ومتاع عمر لن ينقضي هنا، بل في البلاد القادمة، بغداد الجديدة التي تنتظرني على حالك الغموض والمجهول، أنا المشتعلة بنيران لهفةٍ تُملي عليّ حتمية المصير المُعدّ لي ونبوغ جرحي المبكر، وكأن عُقبى الدرب على أتمّ الجاهزية لإسعادي وإحلالي في قصر الخليفة، فهل كنتُ على يقين قاطع وأفق جلي وحقيقة ساطعة بأن ما هو مُقدّر لي لن ينجلي عني ولن أرتد عنه في عبث الدنيا وتوارد الأقدار علي لتنهش ما تبقى من طفولتي.

كان فارسي الأنهد بن الورد في مقدمة القافلة، أميرها الواثق وحاد البصيرة والمكشوف أمامه درب الرمال، وكنتُ على إشتياق دائم له ولهفة يتصاعد لهبها ويتحد بشمس الصحراء وجَلْدِها لركبي الصغير وإيقاع مسيره.

كان قد إبتعد عني بعد أن علّقني في سماء مكة لأرى حرمها الشريف وأعبقُ بقداستها وطُهرها، قاصداً الهروب مني نحو الإنشغال بشؤون القافلة التي كنتُ أنتظره أنا في متنها متن اللهفة، وفي ذلك الأثر الذي حفر داخل فؤادي أخاديد غيابه وفراقه المُبكرين.

إذ كل هذا.. كل ما أنا فيه لن يتعدى الهنيْهة، كله سينتهي بعد قليل بخاتمة حريرية لن تكون سوى لي دونه هو الذي ما زال يسعى حتى الآن إلى ثني عن مبتغاي، ونيةٍ مفاجئة أرهقت فؤاده ورمته بدهشةٍ مني أنا التي كنتُ أحبو في عباءته صغيرة خائفة مُتعلّقة به وبثوب رقية إبنة الحكمة والبصيرة وفتنة الخيام.

ها أنا مُكللّة بهذه القافلة، لا أتعجّب، لا أرتد بل أتماسك بحلول ذلك الحلم عليّ، حلمٌ لم أرَ فيه سواي، ولم أتنفّس سوى أنفاسي والتأويل المخبوء في ثنايا الدرب، فمنذ أن سكنني وأنا أبصرُ النور داخلي، وأُرددُ على وحدتي داخل هودج الرحيل أصداء الحلم وأنْظُمْ على إيقاعه شِعْرَ العزيمة والإندفاع بثقة إلى عتمة المجهول.

كنتُ قد شارفتُ على إنتصاف درب رحلتي، عندما عزم الأنهد فجأة على تغيير مسار القافلة ليسلك طريقاً أخرى لا أحد يعرف كنهها سواه وأصحابه، بعد أن كنتُ قد تجهّزت وأعددتُ نفسي جيداً بالسرور والسعادة لأنني سأدخل بقافلتي إلى المدينة المنورة التي لطالما جُلْتُ بها على صهوة طفولتي وأحاديث أمي التي أتمَّتْها لي رقية عنها في القبيلة.

كنتُ أتوقُ لرؤية مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإقتفاء آثار رسالته وإلتماس سُنّته الشريفة في أرجائها، ولكني على مشارف المدينة المنورة إضطربتُ من انقلاب حال الأنهد الحازم والصارم إثر حدث طارئ لم أعرفه بل أدركت خطورته من حدة فارسي وتغييره لمسار القافلة نحو طريق سنجتازها وحدنا.

كنتُ مُتلهفة لمعرفة سبب هذا التغيير المفاجئ، فكان عقبة هو سبيلي الوحيد أثناء إنهماك الأنهد بقيادة القافلة نحو الأمان والإستقرار:

- ألن ندخل المدينة يا عقبة؟

أجابني بإضطراب وهوعلى متن جواده بمحاذاتي:

- إن أحوال المدينة ليست على ما يرام، فجيش المنصور العباسي يُخيّم فيها ضارباً حولها حصاراً إثر إخضاعه لثورة محمد النفس الزكية قبل بضعة أسابيع، ليستعصي علينا دخولها في هذه الأوقات الحرجة، لذلك فقد عزم الأنهد على سلوك هذه الطريق.

كدتُ أن أسأله عن هذا النفس الزكية، ولكني آثرت معالجة فضولي وقلقي بسؤال آخر:

- وهل هذه الطريق آمنة وقصيرة؟

إبتسم قائلاً:
- ما دام الأنهد أمير القافلة لا تخشي شيئاً.

ثم إنطلق بسرعة إلى مقدمة القافلة مُخلّفاً وراءه سحابة غبار صغيرة، وبقيتُ أنا في حيرة من أمري إثر إلقائه علي بأحجية إستعصى حلّها على مداركي، فعن أية ثورة كان يتحدث؟ ومن هو محمد النفس الزكية؟ ولماذا يقضي الخليفة عليه ويحاصر مدينة رسول الله وحرمه الشريف؟

لم تكبر أسئلتي أمام وحشة الطريق التي سلكناها، إذ كان جلّ همي هو الخروج في أقرب وقت منها، هي التي أسميتها طريق الموت الجهنمي، لأن كل ما لمسته وشعرتُ به فيها هو القفر المُميت، حيث لم تكن الجبال أو التلال ما يحفُّ ويحرس جانبيْها بل صخور ضخمة رمادية اللون قاتمة وناتئة الحواف، كأنها حشد من البشر سخطتهم السماء بصواعقها النارية.

كنتُ أستمع بين الفينة والأخرى لأصداء أنين مدفون في جوف الصخور وإلى زفرات حارة منبعثة من شقوقها وعروقها، أصوات متألمة شعرتُ بحرارتها تلفح وجهي فتخيلتها وجوهاً مرعبة دامية معذبة إحتفظتْ بصرخاتها الأخيرة مُعلّقة على هذه الصخور.

إعتقدتُ للحظة بأنها تراني وعلى وشك الإنقضاض علي، فأرخيتُ سدول هودجي وبرقعي عليّ، وأخذتُ أدعو الله بصمت وخشوع بأن يخرجنا سالمين من درب اللعنات هذه ورمالها المخيفة التي لم أرَ مثيلاً لسوادها المقيم في الصحراء، إذ أرعبتني هذه الطريق بحق، وكنتُ بحاجة إلى الأنهد لكي يُهدّيء من روعي ورعبي، ولكنه كان بعيداً في مقدمة القافلة متأهباً حذراً من مباغتة صخرة أو عدو ما لنا فبقيتُ على حالي داخل هودجي الجا ع مني ومن نفور البعير ما بين فينة وأخرى من ظلال مخيفة إتّشحتْ بها الطريق.

إنتابتني حسرة إئتلفتْ مع حزني المقيم لتشتد في تعذيبي بوحدة قارسة على متن بعيري، إذ أنني وبعد تلاشي حلمي في الطواف حول الكعبة المشرفة والتمسّح بطُهر سدولها، ها هي المدينة المنورة أيضاً أصبحتْ في غياهب هذه الطريق صعبة المنال إثر إتّشاحها بالرايات السود وأصحابها المعسكرين فيها،

فجأة رأيتهم في وحشة وحدتي وخيبتي يسبون نساءً في مثل سِنّي، رأيتهم يجرجرون بخيولهم العظيمة الأجساد الغضّة ويشربون من دمائها المُراقة على أرض رسول الله المباركة، إلا أني ريثما طردتُ هذه الخواطر البائسة من راسي وقلتُ بصوتٍ أعلى من آهات وحدتي بأنهم لن يجرؤوا على سبي المسلمات الحرائر خاصةً نساء المدينة المنورة، فكل امرأة هناك لها من الأصل والأسرة ما يكفل لها الحماية وحياة كريمة تحرسها من نزعات رايات سود سبتني أنا في أوار الدهر وشحيح أصلي إنسابت دمعة حارقة على وجنتي، أذكتْ نيران جرحي وقذفت بي إلى أعماقه الدامية مُجدداً في هذه الطريق الحرام، إنتابتني رعشة هزّتْ جسدي وزلزلتْ كياني كما لو أني قد إستيقظتُ لتوي من كابوس مخيف لأقول أين أنا وإلى أين أمضي وما هذه القافلة ولماذا أنا أزحف في هذه الطريق الشيطانية المرعبة؟!

إلاّ أني أخضعتُ مواطن الضعف داخل نفسي بسرعة وكويتها بلهب شمس أنهكت كبد السماء بسياطها، وصرختُ بعلو صوتي: ويحك.. إخضعي لعاصفة إرادتك وإمضي فالمسافة باتت أقرب ومصيرك ينجلي الآن.

-2-

كنتُ غافية داخل هوْدجي عندما أيقظني صهيل جواد عقبة الذي هتف قائلاً بسعادة:

- لقد خرجنا سالمين أيتها المقاء.

كان الوقت مساءاً عندما حطتْ القافلة رحالها في رحاب خمس نخلات إنبثقن من عدم الصحراء لإستقبال القوافل المتعبة من شدة الرحيل، لتعود الطمأنينة والأمان إلى أجواء رحلتنا التي لم تزل طويلة.

سألتُ عقبة:

- أي درب ملعونة هذه التي إجتزناها للتو؟

ضحك قائلاً وهو يُنيّخ بعيري:

- هذه ليست درب وإنما هو مسرب سري هُجر منذ أن طوّعتْ العرب

الصحراء لمشيئة قوافلها، والآن هلمّي لأعد لك خباءك.

إغتظتُ من بديهيته معي في الحديث، وكأني على دراية تامة بكل ما يقذفه في وجمي من إجابات ليزيد حيرتي وبلاهتي التي إرتسمتْ على وجهي وأنا أدخل إلى خيمتي الصغيرة مُكتفيةً بسريان الأمان والراحة في نفوس أصحاب رحلتي، مُمْتنّةً للأنهد صاحب الفضل بإحلال هذه الغبطة المسائية علينا.

تلفّعتُ بعباءتي ودثاري وهيّأتُ نفسي لنوم عميق يزيل عني تعب الطريق ورعبها.

نمتُ بطمأنينة ما أن أنعمتْ عليّ بدفئها وسلامها، حتى صحوتُ على صخب الرجال الذين كانوا قد أعدّوا مجلساً ليلياً تُزيّنه جذوع النخيل ليخففوا عنهم وحشة الطريق وأعباءها.

حيث كانت جلستهم قريبة جداً من خبائي، فاختلستُ من ثغرٍ صغيرٍ في بابه النظر إليهم، فرأيتهم مُتحلّقين حول نار مجلسهم يتسامرون ومعهم الأنهد الذي زالت عن وجهه الصرامة ليحلَّ فارساً لطيف المعشر فصيح اللسان.

سُرِرْتُ لأنهم قريبون مني ولأني سأستمع إلى أحاديث صحرائهم.

إعتقدتُ للحظة بأن الأنهد قد تعمّد إقامة مجلسه هنا على مقربة مني ليواسيني ويُشعرني بالمزيد من الأمان، فحلّقتْ عيناي لتحطا عليه وعلى حضوره الآسر، ولتخترقا عينيْه الساحرتيْن وتعانقاه، وما لبثت أن إنتفضتُ مُرتدةً للوراء عندما لمحني هو فجأة وإصطاد عينيْ، فاعتراني الخجل، وشعرتُ للحظة بأني عارية أمام سطوة عينيْه، ولكني عدتُ من جديد وبحذر هذه المرة للإستماع إليهم، ورؤيته هو البليغ القول والحاضر دوماً بهيبة في مجالس الرجال.

إستمعتُ إلى أكبرهم سناً أبي عمرو الطاعن بالحكمة وفصاحة الصحراء، كان يتحدث بصوت صقله الزمن بالعتق والعمق:

- إن نهارها صادق وليلها سارق، وأما إجتيازنا السريع لها في وضح النهار وشمسه جنّبنا الوقوع في مغبّة ليلها وغيّ سحرها، فأنتم قد سمعتم ما تناقلته العرب من روايات مخيفة جرت أحداثها في ثناياها، إذ قالت أن جمادها مسكون وليلها ملعون وصوتها مكنون، وقالت العرب أيضاً أن

أحد الأعراب كان قد برع في التخفّي ونال منه التمنّي في كشف سترها وفضّ غموضها، فقبض بليله الأدهم بين ثنايا صخرة على صخب ليلها، فرأى ساكنيها يشوون الصخر ويلوكونه بأفواههم ثم يقذفونه على بعضهم البعض، وعندما ينال منهم الظمأ كانوا يلثمون عرق نسائهم اللاتي كن يرقصن بشدة ويرتجفن بعنفٍ عاريات على إيقاع النار وقصائد يُلقيها عليهن فارس القبيلة، الذي ما أن ينتهي من إلقاء الشعر حتى يسجدن أمامه ليختار منهن أجملهن، ليسافدها سفاداً قاسياً على مرآى ومسمع القبيلة الخاشعة والساكنة، وما أن ينتهي من فُحشه ومجونه حتى يحذو اهل القبيلة الملعونة حذوه منصهرين في مُجامعة بعضهم البعض حتى مطالع الفجر..

قاطعه عقبة بمزاحه المعتاد:

– يا حبذا طريقهم ليلاً يا جدي.

– ويحك.. فالذين يعبرون مسرب السحر ليلاً إما يُسخطون صخراً نارياً رأيته أنتْ بأم عينك، أو ينقلبون حميراً نكراء إذا وقع عليهم بصر فارس تلك القبيلة الشيطانية أعوذ بالله منه ومنها.

ألقى حديث أبي عمرو بظلاله المخيفة عليّ، كما خيّم الصمت على سَمَر الرجال ليتجلّى تأثرهم من تلك الطريق وحكاياتها الغامضة وعذابات لعناتها، إلى أن بدّدَ الأنهد الصمت عندما سأل أبا عمرو:

– حدثنا يا جدي عن تلك الأجمة وكومة الحجارة المحيطة بها والتي صادفناها بعد خروجنا من مسرب السحر؟

تهللتْ أسارير أبي عمرو قائلاً:

– ذلك نبأٌ آخر يُطربُ الفؤاد ويُذكّي تباريح الحب يا ولدي ويزيل خوف الطريق الآثمة، أمْ أنكَ تريد الإياب إليها يا عقبة؟!

أجابه عقبة خائفاً متلعثماً:

– لا.. لا.. وحق محمد.

إنسقتُ إلى ضحكاتهم الصافية على عقبه وإجابته الطريفة، إلى أن عاد أبو

عمرو من جديد إلى سياق السمر بصوت شابه الأسى:

- لم تعهد العرب حباً غريب الأقدار أليم الخاتمة كحب توبة بن الحمير لليلى الأخيلية فتاة بني عامر، في زمان ألفتْ فيه العرب قصص الحب العذري الذي لطالما إنتهى بهلاك أصحابه هماً وحزناً على فراق بعضهم البعض.

وأما تلك فعجبية ذلك الزمان كانت وآية عشقه، إذ أحبَّ توبة ليلى التي كانت أجمل نساء قبيلتها وأنبههن عقلاً وفصاحة، ولمّا إشتد حبهما وكبدر السماء تجلّى عزم توبة على صوْن حبه بالزواج من حبيبة عمره ليلى، ولكن أباها أبى واستكبر إثر ما تناقلته العرب من قصيد هيامهما فزوّجها من آخر.

ويُقال أن ليلى تمنّعتْ عن زوجها وإستعصتْ عليه وظلّت بكراً عفيفة على عهد حبيبها توْبة الذي تلبّسته الحسرة وآلام الفراق، ليقضي نَحْبَه أخيراً في إحدى غارات قبيلته على قبيلة أُخرى فرثته ليلى على مرأى ومسمع زوجها وقبيلتها ولم تخش من عواقب رثائها المشحون بالحب ولوعة الفراق، فانتشر شعرها الحزين في كافة القبائل والنواحي.

وذات يوم وبينما كانت ليلى برفقة زوجها مرَّتْ من جانب قبر توْبة، فأرادت أن تقف عنده لتلقي عليه رثاءها وسلامها، فرفض زوجها، ولكنها أبتْ وأصّرتْ على عزمها، ومضتْ إلى قبر حبها الأول وهي على متن جملها فوقفت بجانبه وقالت: "السلام عليك يا عتبة" ثم إلتفتتْ إلى من معها في ركبها قائلة: "ما عرفتُ له كذبة قط قبل هذه".

قالوا: وكيف؟ قالت: أليس هو القائل:

ولو أن ليلى الأخيلية سلَّمت ... عليَّ ودوني تربةٌ وصفائح

لسلَّمتُ تسليم البشاشة أو زقا[1] ... إليها صدىً من جانب القبر صائح

وقالت: فما باله لا يُسلّم عليَّ كما قال؟

وما إنتهتْ من سؤالها حتى إنتفضت بومة كانت بجانب القبر، فنَفَر الجمل

---

(1) زقا: صاح

وليلى عليه داخل هودجها فوقعتْ على رأسها وماتت فدفنوها بجانبه، وتلك هي الأجمة التي تُظلّل قبر من جمعهما الموت بعد أن فرّقتهما الحياة أيها الأنهد.

كان أثرُ القصة عليَّ دمعاً إنساب بصمت وحرقة، على القدر المُحزن الذي آل إليه عاشقان أبى حُبهما إلاّ أن يُخلّدهما في مثوى واحد لا ينغّصُ فيه أحد عليهما إجتماع فؤاديهما وعشقهما الأبدي في رحم الصحراء.

ثم حدستُ بأن الأنهد كان على علمٍ مُسبق بهذه القصة، ويدرك أيضاً بأنني استرق السمع إلى مجلسه، فأراد لي أن أسمعها على لسان أبي عمرو، ليزجّ بي في حب العرب الخالد حتى أفْقَه حياة الصحراء المنبسطة على كافة الأقدار، حيث الحب يتخلّد بالموت ويتمجّدْ.

لمحتهُ من جديد، كان شارد الذهن وسط صخب المجلس وتجاذب طرائف وحكايات العرب، كان إتّقاد عينيْه يشي بعشقٍ يتطلّع إلى البعيد، لم يُحدق صوبي، بل أنا التي حدقتُ وحلّقتُ صوبه، لأمسّدَ على جبينه ووجهه، لأهمس بأذنه:

كم أحبك يا فارسي الأبهى والأغلى.

ثم عدتُ أدراجي إلى فراشي الصغير مُتوسّدة أحاديث أبي عمرو ومراثي ليلى الأخيليه ويُدفئني حضور الأنهد وقربه مني، ثم غفوتُ.

-3-

إستيقظت فجراً..

حيث الفجر أثير العشق وموعد لإستقبال نور الصحراء ولقائه هو الذي كنتُ أنتظره بعد أثقال الرحلة وأعباء الطريق، وأحداث قدر حرمتني من الدخول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكأن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن ينعم عليّ بطُهر بيته وشفاعة نبيّه، لألوذ برحلة الغيب هذه داخل طرق أخرى مكتظة بالمجهول واللعنات وسحر العرب القديم، في تجنّب حثيث للمدن الكبيرة، وأمكنة كنتُ أتوق لزيارتها حتى تُسبغ نعمها عليّ وتباركني في مسعاي، أنا التي كنتُ أنضج في المسافة الشاسعة والشمس اللاهبة والقافلة الساعية إلى بعثي

نحو أصل حريتي وإنبعاثي أُعدُّ نفسي الآن.. في الفجر..

وأنتظر على أحر من اللهفة يدفعني حدسي ويواسيني باقتراب حلوله عليّ فارساً يُهدهد فؤادي بقصيدة من قصائد جده الأكبر عروة بن الورد.

وإنتظرتُه

وسئم الفجر من الإنتظار وخيوط شمس إنسلّت لتغزل ثوب النهار بنورها الساطع.

فجأة.. إنسلّتْ يدٌ عطره في باب خبائي، وفتحته، ليُطلّ بمحياه الجميل وضفيرتيْ شعره السوداوين، رآني على أتم اليقظة واللهفة، إقتربتُ منه وهمستُ بأذنه مُبعثِرةً كيانه بالمزيد من الدهشة:

- لقد تأخرتْ.

إضطرب كطفل صغير:

- لقد إعتقدتُ أنك نائمة!

- منذ فجرك لم أنم.

هزّته إجابتي، فأخرج رأسه من الخباء الذي لم يكن سوى فخٍ بالكاد إستطاع أن يفلتَ منه، ثم قال مُستجمعاً نفسه وحضوره أمامي:

- حسناً.. ألن تخرجي لإستقبال الفجر؟!

هو الذي يستحق أكثر من امرأة تنزع في سبيله برقعها وحجابها، وأنا التي هالني تغزّلي الصريح به، وقوتي المفاجئة في فصاحة قولي أمامه.

خرجتُ ووقفتُ قُبالته بشموخ، فحدّق بي قليلاً كما لو أنّي قد إنبعثتُ لتوي من حلمه.

كانت صاحبته الوفية بجانبه، الدآدئ التي أردفني خلفه على متنها في لحظة خاطفة، لنجول فيما تكرمتْ به علينا الصحراء من سكون فجري خلاّب، وأرجاء هادئة أجتمعتْ بخلائها لتحفل بنا.

إستعدتُ دفئه ونعومة فرسه ووافر عناقه، إذ عندما أكون برفقته على متن العشق المكتوم أشعر بأن الدنيا قد أقفرت من ساكنيها مكتفية بنا نحن الإثنين فقط، كما لو أن الصحراء إبتلعت أصحاب قافلتنا لتمنعهم عن مراقبتنا ونحن

نتجول فجراً إمرأةٌ وفارسها على متن الدآدئ البهية.

وكان هو بدوره مطمئناً ساكناً لا يخشى من أعين مُتلصصة قد تراه وهو يردفني وراءه في قفر الصحراء، إذ كان متأكداً من خلو الأرض من الإنس، وبأن السماء ترعانا في مشوارنا الفجري.

لن نبسّ ببنت شفة، كانت الدآدئ في هدأة الفجر تمارس إسباغ الدعة والدفء علينا في تهاديها اللطيف.

إلى أين كان سيأخذني؟

أين سيحطّ بي ليُقيم فيَّ عشقه؟

تشبثتُ به أكثر..

دفنتُ رأسي في ظهره الصلب الدافئ، كان يشعر بي، بتدفقي في دمه، يُشرف على الغناء، على البوح بجزيل الشعر وأعذبه، إلاّ أنه كان يُؤثر الصمت، يعتنقه خاصة أثناء تشبّثي به.

كنتُ على وشك أن أقول له: وماذا عن رقية أتُحبها؟ هل تموت أنت أيضاً من شدة الحب؟

ولكني آثرتُ الصمت وعدم إفساد هذه اللحظات المباركة من العشق وإن كان عشقي لوحدي، ولم لا فهوالرجل الأول الذي أشعرُ بدفئه وحمايته، هو من علمني بصمته وخوفه عليّ وعشقه المكتوم كيف أحصي دقّات قلبي وشدة خفقانه وإحالتي إلى فتاة أدركتْ في فجر عمرها معنى العشق واسفر على صهوة فارس يزاول قبيلة مُلقاة في أعماق الصحراء على هامش الذروة العباسية وحراك جيوشها وزمانها.

طال الصمت..

والجولة على الدآدئ لا تستقرّ على مقام، فعزمتُ على فضّ الصمت بسؤالٍ من الأسئلة التي إزدادت فضولاً داخلي منذ مشارف المدينة المنورة:

– من هو محمد النفس الزكية؟

ضحك بخفوت ثم قال:

– ومن أين تعرفين النفس الزكية؟

- من عقبة.

صمتَ قليلاً ثم قال بجدية:

- هو حفيد علي بن ابي طالب كرّمَ الله وجهه، وثار في وجه المنصور العباسي مطالباً بحق الخلافة مُحاججاً بصريح نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يُمهله المنصور طويلاً في سيطرته على المدينة المنورة فعاجله بجيشٍ عرمرم أخمد ثورته وقضى عليه في رمضان المنصرم، ومُذّاك والمنصور يسعى إلى إعادة سيطرته وحكمه على المدينة عبر إجتثاث جذور الطالبيّن منها لكي لا يثوروا مرة أخرى، وهذا ما حال دون دخولنا إليها.

- ومن أين إكتسبَ المنصور حقه بالخلافة؟

ضحك من جديد ثم قال:

- ذلك دأبهم جميعاً منذ عقود، ولا يتّسع الزمان والمقام الآن لأُ حدثك عنهم، ولكن فلتعلمي، أن العباسيين أيضاً يستندون في حقهم بالخلافة على قرابتهم من رسول الله..

- ألهذا أنتم تسكنون أعماق الصحراء وحدكم لأنكم لا تمتّون بصلة قرابة من رسول الله؟

إنفلتت منه ضحكة مُجلجلة هذه المرة، وصهلتْ من صخبها الدآدئ أيضاً، فاغتظتُ من إمعانه فيها دون أن يُجيبني فقلت له بغضب:

- ولهذا أيضاً تعتدون على القوافل وتُفْسدون في الأرض بما حرّمه الله ورسوله؟

توقف فجأة عن الضحك كما توقفتْ الدآدئ عن التهادي متواطئة معه، ثم إلتفت إلي قائلاً بحدة:

- وماذا تعرفين أنتِ عن الإفساد والبغيِ والحِرابة؟!

إضطربتُ من حدته المفاجئة، وإحترتُ في أمري، لم أعتقد بأنّي سأؤذيه بتفوهي بهذا السؤال الجارح، فساد صمتٌ مشحونٌ بالتوتر، وآثارُ غيظٍ كظمه هو أثناء عودتنا من جولتنا الفجرية المُنتكِسَة.

لم أعد أعرف ما الذي يجدر بي فعله؟

أأستمرُ بتشبّثي به؟ هل أبتعد عنه إلى الوراء قليلاً؟

هل أقفز فجأة عن متن الفرس هاربة منه فيما تبقى من عتمة الليل؟

هكذا في لحظة حمقاء أفسدتْ إنصهاري به ومرحه وبهجته برفقتي، لم يطل تخبطي وحرجي طويلاً حتى قال هو بصوتٍ طغى عليه حزن مرير عندما شارفنا على الإقتراب من قافلتنا:

- ما القوافل التي ننقضُّ عليها سوى قوافل أولئك الذين أثروا وطغوا بإستحواذهم على الإسلام وسنّة نبيّه مُسرفين سافرين في تجبّرهم وترفهم بما ليس لهم فيه حق، ذلك هو دأبنا وقصاصنا المباح والحق المبين الذي نحتسبه عند الله أجراً وثواباً لنا، إذ نباغتهم دون أن نسعى إلى سفك الدماء والإفساد والمطالبة بحكم المسلمين، وذلك ما شهدته أنتِ ليلة إعتراضنا للقافلة التي كنتِ فيها غنيمة مُنساقة لأولياء أمور العباد.

زفر بحرارة كأنه كان مجبراً على الحديث وقول ما لا يهوى الخوض فيه ثم أردف قائلاً:

- أيتها المقاء.. أنا سليل الصعاليك الذين قضوا في سبيل حريتهم وكرمهم وعطفهم على المساكين والمُستَضعفين، لستُ بمفسدٍ ولا قاتل، ولا همّ لي سوى أن ابقى على عهدهم، سائراً في دروبهم وقبيلة آثرت النأي بنفسها عن مصائب الدهر وأهوال الفتن.

ثم ختم حديثه قائلاً:

- لقد أثقلتُ عليكِ بحديثي الذي لن تتّضح معالمه لك الآن إنّما غداً عندما تستظّلين بظل الراية السوداء، وتسكنين داخل جوهر الثراء والترف المُجافي لسنّة محمد الأمين وتعاليم الدين الحنيف، وستُبدي لك فتن الدهر كم نحن فقراء إلى الله ولا نبغي فساداً في الأرض ولا دماء.

في زمن لم أكن أفقه منه شيئاً كان الأنهد قد قسا عليَّ بسخرية مؤلمة حارقة طغت على خاتمة حديثه، نعم لقد أثقل علي، وأقحمني في عتمة جهلي قاذفاً في وجهي بأكثر من مئة عام حافلة بالأحداث المريعة والدماء البريئة،

وإنزواء قبيلة فضّلتْ الغياب في عمق الصحراء على الحضور في ساحات الفتن وإقتتال أخوة الدين على السيادة والحكم.

كنتُ أستمعُ إليه بكافة حواسي وأبكي بصمتٍ من حسرة إنساحتْ عليّ بعد أن تسببتُ بها أنا بإغاظتي له، ليذهلني بما كنتُ أجهله، وليزيدني علماً بأني ما زلتُ على قدرٍ عالٍ من الجهل، في الوقت الذي أُ صرُّ فيه على المضي قدماً نحو القصر العباسي..

لقد صدقَ الأنهد..

فمن أكون أنا في تزاحمهم وحروبهم وثوراتهم؟

وماذا سيكون مصيري أنا الهارعة المنقادة إلى بريق قصورهم جارية غرّة لم أثقف من الدنيا شيئاً سوى إصراري على حق حلمي المبين؟

ويحي...

فقد قسوتُ عليه بإتهامي له بالإفساد في الأرض، هو الذي أنقذني من ذلّ القافلة العباسية ومخالب ذلك الوحش الذي كان على وشك إنتهاك براءتي..

قسوتُ على الذي نفضَ عني غبار الجهل ليغسلني بنقاء قبيلته وقناعتها بقدرها في عمق الصحراء، هو الذي يحق له بفروسيته وعلمه وخُلُقه ودينه ان يتربع على عرش المسلمين أميراً لهم وحاكماً لأمرهم، ولكنه بقبيلته لاذ، وفي هجير الصحراء عاش وبحقه المباح في إعتراض فحش القوافل إقتنع، وبعهده لي أوْفى...

لم أُعقّب بأدنى تنهيدة على كلامه، بُحَّ صوتي وتزلزل كياني، كنتُ صغيرة جداً أمام آهات حديثه، حتى أنّي لم أقوَ على طلب العفو منه على حماقتي وسذاجة طفولتي على متن فرسه، فهو أعظم من أن أطلب منه المغفرة، إذ إكتشفتُ ذلك المقدار الهائل من الحسرة والألم والعذاب في داخله كما إكتشفتُ ايضاً في خضمّ ذهولي من شدة بوْحه تلك الشهوة التي إندلعتْ داخلي إثر حديثه الشحيح عن جانب من التاريخ المكتوب بالغايات والأماني المغمّسة بالدماء والنزعات الراقصة على صليل السيوف.

شهوةٌ ما لم أدرك كُنْهها تطاولت لتسكنني وتُقيم في خبائي على مرأى

الصحـراء وحلمي الـذي لـم يفارقني للحظة فـي الرحلة، بـل تلبّسـني وحلّق بي مجـدداً في سـمائه لأعلو وأعلـو وأعلـو إلى أن أحـطّ علـى غيمةٍ تُظلّل عشـقي المسـتتر للأنهد، لا بل تعـرج وتعلو بي إلى ما هـو أعظم حيـث العاصفة العاتية التي أصير فيها مطراً ينهمر على الأرض العباسية ليرويني أنا الشجرة التي سأنمو هناك ضاربة جذوري في باطن السلطان والبلاد.

فالمُرتجى أصبح قريباً بإنتصاف الدرب أقرب من أي وقت مضى..

* * *

الفصل الثامن عشر:

نحيبُ الشهوة المندلعة

سَرَّحَتْ خلوب بمشطٍ عاجي مُرصّع بالحجارة الكريمة شعر صاحبتها السرمدي بنعومة وسلاسة ثم همست بأذنها:

- ويحك.. مازلتِ الفتاة اليانعة التي إلتقيتُ بها منذ خمسة وعشرين عاماً.

إبتسمت الخيزران مُحدّقة بالمرآة بمرارة وأسى.

كان وجهها ينبض بعنفوان الشباب الغض وجنتيْن متوردتيْن، وعينيْن يخشع في حراستهما الإثمد وجبينها الزاهي.

بوميض سماوي سِرّي لم يمسسها الكبر ولا الهرم، لكأن زمن جسدها توقف في ذلك اليوم الذي دخلتْ فيه القصرالزينبدي بسبعة عشر عاماً وجسد ممشوق الأحلام والجمال.

لم تنحنِ، بل إزداد فارع طولها ورسخ في وجه رياح القصر الصرصر العاتية، وإقحام قدرها لها بأكثر من حسرة ونكبة وخذلان آخرها كان رحيل ولي أمرها وأمير نعمتها زوجها المهدي أمير المؤمنين، فقد كان حدادها مُتفرداً ومتميزاً بالحزن والعزلة الشديدة في طيات الحجاب.

حجابٌ إحتضنها ورعاها طيلة فترة حزنها الذي لم يطل ليحتلها ويقلب حالها من امرأة لا تملك من أمرها شيئا سوى الضعف والإنكسار، إذ إنتفضت في وجه واقعها الجديد وسيادة إبنها الخليفة الأصغر سناً في تاريخ الدولة العباسية الناشئة.

فقد كانت على يقين بأن إقامة موسى في قصر أبيه ليمارس عهد خلافته دون قصور بغداد الأخرى، ما هو إلا غيٌّ خبيثٌ يريد به إحاطتها بسلطته، وإعادتها إلى ذل الحجاب.

فما أن إنتهى حدادها حتى أدركت أن موسى جاء لتغيير سياسة أبيه في كافة مناحي الحكم وإدارة شؤون البلاد والعباد، والأهم هو إحالة واقع أمه الذي تمتعتْ به في عهد أبيه إلى واقع حرم المرحوم والمغفور له الخليفة المهدي، أي النأي بها عن مجريات العرش ومداولات الخلافة، وهذا ما أخافها قليلاً في بداية الأمر، ولكنها ريثما واجهته بإستعادتها لنفسها وسطوة حجابها معتمدة على كينونتها أماً للمؤمنين وأم أمير المؤمنين، وأم ولي عهد أمير المؤمنين، فانطلقتْ لتؤكد حضورها داخل القصر بصورة أشد وأوضح مما كانت عليه في عهد المهدي، عندما كانت تُجيب السائلين وتساعد المحتاجين وتستقبل من وراء حجاب اصحاب المقام الرفيع الذين كانوا يقصدونها إما لإعلامها بما يجري في بلاط زوجها، أو مناشدتها لإزالة ظلم وقع عليهم من المهدي أو حاشيته.

فإذا كان لمجلسها باب واحد أيام المهدي، فإنه وفي عهد إبنها موسى الهادي بات مُشرَّعاً بعشرة أبواب يدلف منها كل السائلين والمحتاجين، مُتعمّدةً في ذلك ان تُثبت للخليفة الجديد بأنه لا يحكمها وليس له عليها من كلمة يرميها بها في عتمة الحريم.

في الوقت الذي تولى فيه عهد خلافته مُنتهجاً لسياسة دامية لم تخلُ من المجازر التي قضى فيها على خصومه خاصة العلويين الذين كان أبوه قد تقرّب منهم وتودد إليهم بسياسته الخيزرانية الحاقنة للدماء، لتؤدي سياسة موسى الدامية إلى نشوء العديد من الخصوم والأعداء لهم ولحكمه المنقطع عن مشورة أمه وبصيرتها.

كانت تراقبه في بعض الأحيان إذ تنسلّ بخفية وخفّة إلى مجلسه مُتنكرة بزينة الجواري وصخب الليالي، لتبحث عن دمائها فيه، ولكنها لم تكن تعثر إلاّ على البطش والتعجرف وضيق الصدر بحاشية يقودها وزيره الداهية الربيع بن يونس وولده الفضل الذي كان أيضاً حاجباً لموسى الهادي.

في تلك الليلة..

حدقتْ به من وراء تنكرها وعجيج المجلس، كما لو أنها تراه للمرة الأولى طويلاً أبيضَ مُشرباً حُمرة، ويفسد بهاء وجهه تقلّص شفته العليا، نعم هو ولدها وهي التي أنجبته ولكنها لم تربّه كما ربّتْ هارون، ولم ترعاه بحبها كما رعتْ وأحبت هارون.

حيث كان في البعيد عنها قد نشأ وترعرع في بيئة أميرية عباسية صارمة، لم يتذكر فيها أُمه أبداً، وها هي في عهده توشك على دفع ثمن باهظ من الذل والإقصاء نتيجة لإنقطاعها عنه وإنقلاب الحال والأقدار إلى صالحه.

راقبته، دقّقتْ في تصرفاته، وأصغتْ السمع لكلامه، ذُهلتْ من حضور النبيذ داخل مجلسه لتكتشف أن إبنها سيصبح الخليفة العباسي الأول الذي يحتسي ويستحضر الخمر وعربدته، ليس هذا فقط، بل لم يستر في حجاب كدأبِ أبيه الراحل جاريته ومحظيته الفاتنة "رحيم" الفارسية التي انجب منها ولده جعفر، حيث كانت تتمايل عليه بغنجها وتأوّهات عُريها الفاضح أمام سُمّاره وحاشيته، لم لا؟ فالخمر ذهبت بعقله وجاءت بآخر أحمق يُطالب بزجّ أمه في جناحها دون أن تتدخل في أمور القصر والعرش.

كان يدّعي الغيرة والحمية على حريمه وصلة رحمه، وها هو في معمعان المجون يداعب محظيته الفارسية في حِجرْه دون حياء تمليه عليه عباءة خلافته وأعين جلسائه المحيطين به.

هالها ما رأت وسمعت من غناء فاحش وخلاعة جوارٍ، وإبتذال سُمّارٍ، فثار الغضب في داخلها، وأوشكت على الإنقضاض عليه ولطمه على وجهه لكي يصحو من حمقه ومجونه، إلاّ أنها كظمت غيظها وآثرتْ إستدراك تجسّسها عليه، وكبت رغبات جسدها الملعونة التي كانت على وشك الإنفلات من عقال العفّة إثر ما عجَّ به المجلس من ترجرجٍ وإرتعاش وتغنّج وتفتّل وذروة ايادٍ وافخاذ تنسلّ هنا وهناك في أعماق جسدها هي الجسد المهجور منذ الموت ورحيل المهدي في أوْج زهوتها وتفتحها.

خَفَتَ صخبُ المجلس فجأة عندما صرخ بعلو صوته السكران العلاء بن الحداد الأعمى أحد سُمّار الخليفة:

- يا أمير المؤمنين..

"يا أمين الله في خلقه ووارث الكعبة والمنبر

ماذا ترى في رجل كافر يُشبّه الكعبة بالبيدر

ويجعل من الناس إذا ما سعوا حُمْراً تدوس البُرَّ والدوْسر[1]"

إربدَّ وجه موسى الهادي، وألقى بكأس الخمر من يده بسخط وأزاح بيده الأخرى رحيم من حجره مزمجراً بغضب:

- ويل الزنديق إبن الزنادقة أينه مني يا ابن الحداد؟

فأجاب ابن الحداد بلا تردد وبذات الصراخ مُشيراً بيده إلى رجلٍ كوَّمه الخوف في زاوية المجلس:

- إنه هو الذي كان حاجّاً إلى بيت الله الحرام فرأى الناس يسعون في الطواف فقال فيهم ما قال من كفر وفسق.

أمسكَ عن الكلام ليتمالك أنفاسه المثقلة بالسُكر ثم أردف قائلاً:

- إن هو إلاّ كاتبك يزدان بن باذان يا أمير المؤمنين.

سرتْ همهمات وتمتمات ثم ساد الصمت أجواء المجلس، وتشبّثت كل الأعين بالهادي الذي لم يتردد كثيراً حتى وقف صارخاً:

- أيها السياف.. ايها السياف؟

إنبثق السياف فجأة من وسط المجلس قائلاً بحزم:

- سمعاً وطاعة يا مولاي.

فأشار الهادي إلى يزدان قائلاً بحدة ذهبت بسُكره:

- أرحني من هذا الزنديق برأسه التي لن تنعم بشمس غدٍ هيا.

صرخ يزدان الذي قاده الذعر إلى قدمي الخليفة متشبثاً بهما متوسلاً باكياً:

- والله لم أفعلها يا أمير المؤمنين.. اقسمُ برب الكعبة بأني لم أقصد الفسق والتزندق.

فرفسه الهادي بعنف ثم داس على رأسه قائلاً بمرارة:

---

(1) البُرّ والدوْسر: القمح والدقيق.

- ويلك.. كُلّه إلاّ الزندقة.. والله إنكَ قد خرجتَ من عنقي في كبيرتك هذه.. هيا أيها السياف.. أُغرب به عن وجهي.

إزدادت حدة صراخ الكاتب وتخبطه العنيف متشبثاً بكل ما أوتي من حياة ببساط المجلس وسُمّاره، عندما كان السيّاف يجرّه من قدميه بقسوة إلى خارج حياة الخليفة ليخمد صراخه بعد لحظات ويطغى على القصر كله صوت تدحرج رأسه على قارعة الخليفة الهادي.

ولم يتردد للحظة هذا الأخير عن متابعة وإستدراك سهرته النبيذية ونهديْ رحيم، في الوقت الذي إرتجفت فيه الخيزران لأنها تأكدت أكثر من أي وقت مضى أن موسى لم يكن إلاّ كما قالت عنه دوماً إبن الدماء.

إكتشفت ايضاً تلك الليلة أن موسى يتخبط داخل حُمقه وغيرته ومجونه، وأن مساعيه لن تتوقف عن جذبها وحبسها في مساحتها الضيّقة حيث تمارس حريم البيت العباسي حقوقهن المشروعة والمتمثّلة بالعيش الكريم وطيب المقام والنسب الرفيع، هذا ما كان يؤمن به موسى وهذا ما كفرتْ به الخيزران التي صفعتْ ذات مساء خلوب لأنها قالت لها بتودد:

- ألم ترضَ أم المؤمنين بعد عن قدرها وسمو ولدها.

قالت لها الخيزران يومذاك مُكشّرةً عن أنياب لم تلحظها خلوب أبداً قبل تلك اللحظة في دعة صاحبتها وجلالها:

- إياكِ يا جارية أن تتفوهي بهذا مرة أخرى فأنا الخيزران أم المؤمنين.

مسحتْ خلوب خيط الدم الرفيع عن شفتها ثم قالت بصوت مختنق مُرتَعش:

- والله ما كنتُ أقصد سوى مداعبتك ولم اتجنَّ عليكِ فأنتِ أمه أليس كذلك؟

نهرتها الخيزران بقسوة:

- وهل لمستِ أنتِ هذا فيما إنقضى من عمرك برفقتي؟

نكّستْ خلوب رأسها ولم تُجبْ، كانت على مشارف البكاء، فأردفت الخيزران بذات الحدة:

- والله ما هو بخليفة إذ "ما ينفع الأعمى ضوء الشمس وهو لا يُبصرها" وما ينفعني أنا إذ يُريد لي الهوان والإنحناء لعظمة سلطانه؟

توقفتْ عن حديثها فجأة عندما لمحتْ الدمع المنساب على وجنتي خلوب، فاقتربتْ منها وغمرتها بعطف قلبَ حالها بلحظات من لبؤة شرسة إلى أم حنون:

- إغفري لي غضبي يا صاحبتي في هذه الشدة.. إغفري لي.

قالتها بصدق أكّده مشاركتها لخلوب في بكاء تحول في قَفْر جسديْهما إلى نحيب مشترك، فاشتد عناقهما مُضفياً حميمية غفرتْ داخل أجوائها خلوب للخيزران صفعتها القاسية.

-2-

في خضمّ إنفتاحها على العباد وأولي أمر الدولة، وخدمتها وتلبيتها لإحتياجات من قصدها، سعتْ الخيزران إلى نزع عباءة موسى عنها، بعد أن لمست طغيانه المبكر عليها، وعدم الإنصياع لنزعات حجابها إثر ما نشأ بينهما من ضغائن وشكوك تراكمت بإهمالها له في عهد أبيه، ومن ثم محاولاتها الحجابية الحثيثة في تقديم أخيه هارون عليه.

لذلك لم ترتد عن مسعاها البِكْر والأهم، ألاّ وهو هارون، إذ ورغم إختلاف الحال وتربع موسى على عرش ابيه لم تغفل الخيزران عن إذكاء شهوة السلطان لدى إبنها ومُدللها هارون، فكانت تدعوه دائماً إلى مجلسها برفقة وزيره يحيى البرمكي، لتشدّ من أزر عهده، ولتُعزّز لديه رغبة أبيه المهدي في توليه للعهد من بعده.

وما بين الخيزران ويحيى كان هارون خالص الإستجابة لين العريكة بإمتداد شهوة أمه فيه وإحاطتها له بسواد حجابها داخل قصر لم تَخْفَ فيه على موسى نوايا أمه الخفية وحضورها الساطع في مجلسٍ توافدتْ عليه واصطّفتْ أمام أبوابه المواكب والمقامات الرفيعة، ليعلو مقامها هي بإحتفاء من قصدها بها وإلتفافهم حولها بالتقدير والمحبة.

كان موسى يراقب عن كثب وريْبة جُلَّ تحركات أمه وأحاديث مجلسها ومحاولاتها الخفية والحثيثة في التدخل بشؤون خلافته وسياسة حكمه، خاصة في ظل وجود داهية كيحيى البرمكي كان يُطعّم مساعيها بجواهر الصبر والتريث والحكمة.

لذلك عزم موسى على محاصرة أمه، إذ قَدِمَ ذات يوم من أيام حكمه إلى مجلسها عشية خُلوّه من ضيوفها وزوارها.

أزاح حجابها بفظاظة قائلاً لها بسخرية:

- ما هذه المواكب التي تقصدك وتتوافد عليكِ دوني يا أميرة المؤمنين؟!!

أخْفَتْ دهشتها وذعرها من مباغتته لها ببُرقعها الحارس مُفَضّلةً عدم إجابته وتجاهله لسخريته القاسية وعدم إحترامه لمقامها، فأردف قائلاً بغضب وحدة:

- "لا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الإعتراض في أمر المُلك، وعليكِ بصلاتك وتسبيحك وتبتّلك".

لم تُعقّب بكلمة على إساءته، إذ جلّلَ صمتها سواد حجابها، فاغتاظ بشدة من تجاهلها له وعدم قدرته على إستدراك تأنيبه وتنبيهه لها، فهمّ بالمغادرة، وعندما أوشك على الخروج من مجلسها هتفت هي بإسمه بهدوء وعمق:

- موسى..

فاستدار إليها قائلاً بحدة:

- بل أمير المؤمنين!

فأردفتْ هي بسخرية أشد قسوة من سخريته:

- أطْبقْ يا موسى.. أطبقْ.. يا.. ولدي!

فجُنَّ جنونه، وزمَّ عباءته وشفته العليا ومضى كعاصفة هوجاء إلى عرشه، إثر هذه الإهانة القاسية التي أصابته بها في صميم كبريائه وزيف طاووسه.

لم تَخَفْ منه، رغم ما رأته من دماء تُلطّخ جبينه وهالة سلطانه لم تَخْشَه، ولم تتوانَ عن تذكيره بشفةٍ مشوّهة كانت علامة حُمقه ومثار نفورها منه، هي التي لم تطمح إلى الحكم إذ كيف تتربع على عرش المسلمين وهي امرأة لم تُشْفَ بعد من أثر الجارية فيها، ولم تسدَّ بعد أيضاً رمق جوعها للأصل الرفيع

والنسب الشريف؟!

بل كانت تحلم وتسعى إلى نشأة العرش، إلى السيطرة عليه بظلّها الوارف والشاهق الذي يُطلّ منه حلمها هارون على الدولة العباسية خليفة لا يسير إلا بأمرها، ولا يحكم إلا بظلّها المُستتر بعباءته، فهل كانت تريد بذلك زلزلة أسس قصور الحريم ودأب الحرير؟

رفضتْ الخنوع لذل عباءة موسى وحجابه المرير الذي كان يريد أن يحبسها به إلى آخر عمرها.

عمرٌ بريٌ أقسمت بدمائه ليلة أصبحت امرأة تحملُ في أحشائها خليفة العباسيين الرابع بأن تتحرر وأن يتملّك حلمها وسليل دمها الضارب جذوره في عتق الصحراء العربية أمر العباسيين وراياتهم السود.

ها هي على المشارف، في مطلع قصيدة مجدها تواجه إبن دمها في سبيل إبن عشقها وحلمها الآخر هارون.

حيث لم يُمهلها موسى طويلاً في سخريتها منه ودلال مجلسها وتدخلها الصريح والمكشوف في شؤون الرعية والدولة، إذ عزم على محاصرتها ووأد فتنة كانت من خلالها تُزيّن وتُنير لهارون درب السلطان، من خلال إجتماعه ببعض ذوي الجاه والمقام العالي الذين كانوا يتوافدون على مجلسها، ليُنبههم ويحذرهم من غيرته على حريمه، وبأنهم قد أخطؤوا بالتوجه إلى أمه قائلاً لهم في عرشه:

- "أيما خير أنا أو أنتم؟

قالوا:

- بل أنت يا أمير المؤمنين.

قال:

- فأيما خير أمي أم أمهاتكم؟

قالوا:

- بل أمك يا أمير المؤمنين

قال:

- فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه، فيقولوا فعلت أم فلان، وصنعت أم فلان، وقالت أم فلان؟

قالوا:

- ما أحد منا يحب ذلك.

قال:

- فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها؟"

إثر هذا الإجتماع الذي إختتمه الهادي بالتهديد والوعيد لكل من تُسوّلُ له نفسه بالذهاب إلى مجلس أمه، لم يعد أحد يقصدها سوى المساكين والمستضعفين دون القادة والأمراء وأولي الأمر والنفوذ داخل الدولة، بعد أن نجح الهادي بإجتذابهم إلى حاشيته.

لتتخبط هي من جديد في حجابها وعزلةٍ اصابها بها الهادي بدقّة هذه المرة، فكان مجلسها شحيحاً فقير المواكب والزوار في الوقت الذي كان فيه الهادي غنياً بالجاه الذكوري العباسي وحق الخلافة وإقصائها هي عن حجاب عرشه.

تأثرت الخيزران بشدة من هذا الحصار، وهانت عزائمها موشكةً على الإنحناء لا بل الإنكسار أمام عاصفة الخليفة الجديد.

جُنَّ جنونها، ولم تعد تعلم ما الذي ينبغي عليها فعله خاصة عندما كان هارون يزورها ليشكو لها تصرفات أخيه ومغبّات حكمه:

- يُخفي عني أمره يا أماه ويُبديه لوزيره الربيع.

- إصبر يا ولدي فالعقبى لن تكون إلا لك، وما بعد العُسْر إلاّ اليُسر.

لم يَبحْ لها بما فعله وما أجبره الهادي على القيام به في مجلسه الخاص، بسبب حلم مريع رأى فيه هارون ينكح محظيته الفاتنة "غادر" بعد موته، ففزع من حلمه هذا يدفعه يقين أحمق إلى إجبار هارون على التعهد بعدم المساس بها بعد موته، فجاء به واستوفى عليه الأيمان بأنه إذا ما نكحها أن يحجّ راجلاً وأن يطلّق زوجاته ويُعتق مماليكه، كما أحلفَ جاريته أيضاً على هذا العهد والقسم تأثر هارون بشدة من فعلة أخيه الخرقاء، مُفضلاً عدم البوْح لأمه بها لكي لا

يثقل عليها ويزيد من حزنها وهمومها في عزلتها، إذ كان في قرارة نفسه على يقين مبين بأن أخاه الخليفة موسى الهادي يغار منه ويحمل له في صدره ضغائن خبيثه ولئيمة لا تُحمد عواقبها.

-3-

بدورها وإثر تطاول عزلتها وقفر مجلسها عليها، سعتْ الخيزران إلى الإستحواذ على موسى الهادي بأسلوب جديد كل الجدة عليها في تعاملها معه هذه المرة، إذ أعدَّتْ نفسها بما إستطاعت إليه سبيلاً من الدعة والرأفة والحنان والمحبة، ونزعت عنها هامة كبريائها مُرتديةً عطف أمومة لطالما إحتاج إليها إبنها موسى، وخففّتْ من حدة شموخها، ثم إنحنتْ قليلاً لتسلك مسلكاً قد يرتد فيه الهادي عن قسوته عليها وتجاهله لها في شؤون الخلافة، عازمة إلى المضي قدماً نحوه بعد فترة من الإنقطاع ساد فيها الجفاء والهجر ما بينهما.

إذ شجعها في الذهاب إليه خُلوّ مجلسه من وزيره الداهية الربيع بن يونس الذي مات فجأة في أوْج وزارته ودهاء تدبيره لأمور الهادي، حيث ترددتْ داخل أروقة القصر أصداء رواية تناقلتها الألسن بهمس تُفيد بأن الربيع قضى نَحْبه مسموماً، وما أثبت صحة هذه الرواية هو حزن الهادي الشديد على ما ألمَّ بوزيره، وغضبه العظيم من التطاول على عرشه بدسّ السمّ لأقرب رجاله إليه.

فانتهزتْ الخيزران فرصة موتٍ غيّبَ داهية لطالما إرتابت منه وكرهته، لتمضي إلى موسى الهادي بعد أربعة أشهر من حكمه، ساعية إلى إجباره بأسلوبها الجديد على تلبية حاجة لأحد أمراء الدولة كان قد قصدها سراً بعيداً عن أعين الهادي.

لم تكن في توجهها هذا تسعى إلى تلبية حاجة عبد الله بن مالك بقدر ما كانت تسعى إلى إحتواء الهادي وإلقاء ظلّها العصي على الزوال بليله القاتم هو.

دخلت عليه بُعيْد صلاة العشاء وخُلوّ مجلسه من الحاشية بخفرٍ وهيئة إرتاب منها لأنه لم يعتد عليها.

حيّتهُ بصوت مفعم بالورع والتقوى:

- السلام على أمير المؤمنين.

دُهش من نبرة صوتها الوديعة والهادئة فأجابها بإقتضاب وحذر:

- وعليك السلام.

قالت له بتودد وهي تنزع برقعها بعد تأكدها من خلو المجلس من الرجال:

- ألا أستحق بأن أُجاب بعليكِ السلام يا أم أمير المؤمنين؟

رمقها الهادي بتعجّبْ ثم قال لها بهدوء مُصطنع:

- بلى.. وعليك السلام يا أم أمير المؤمنين.. فأية حاجة تبغين؟

حدّقت به بقسوة عينيها اللامعتيْن، إذ لمست في إجابته سخرية جارحة أفضت بها إلى إدراك فشل مسعاها مُسبقاً ثم قالت محتفظة بذات الوتيرة التي حيّته بها:

- لقد جئتُ إليكَ يا ولدي لكي تقضي حاجة لإمرئٍ كان فارساً هماماً من فرسان أبيك.

لم يُجبها، بل أخذ يتشاغل عنها بسكبِ النبيذ في كأسه مُتعمداً إغاظتها بتجاهله المقيت لها، فتململتْ في جلستها وزفرت بحرارة بعد أن غلى الدم في عروقها، ثم تنحنحتْ لتنبهه إلى وجودها بجانبه ولكنه أمعنَ في نبيذه.

فأيقنتْ فشلها قائلة له بحدة نفضتْ عنها الدعة واللطف:

- لابد من إجابتي.

فقال لها بلا إكتراث:

- لا أفعل.

فثارت ثائرتها صارخة في وجهه:

- "فإني قد تضمّنتُ هذه الحاجة لعبدالله بن مالك".

توقف موسى عن إحتساء النبيذ حين سمع إسم الرجل، فاعتراه الغضب لأنه عصى أوامره القاضية بعدم الذهاب إلى مجلس أمه، فصاح قائلاً بسخط:

- "ويلٌ له، قد علمتُ أنه صاحبها، والله لا قضيتها له".

إستاءت الخيزران، فوقفتْ قائلة له بحزم وهي تضع برقعها على وجهها:

- "إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً".

ضحك بعصبية ثم قال:

- "لا أبالي والله".

فرمقته بحدة وغضب، ثم همّتْ بالإنصراف جازعة غاضبة، إلى ان صاح بها قائلاً وهي على وشك الخروج من مجلسه:

- "مكانك والله، وإلا أنا نفيٌّ من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي وخاصتي، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟

أما لكِ مغزلٌ يشغلك أو مصحف يُذكّرك او بيت يصونك؟

إياكِ وإياكِ لا تفتحي بابك لمسلمٍ ولا لذمّي".

لم تُعقّب الخيزران على تهديده ووعيده، بل إنصرفتْ من أمامه لا تلوي على شيء، وعادت إلى حجابها منكوبة، إذ ومنذ صفعة راعية الحريم الفارسية لم تشعر بالإذلال والمهانة وذلك الجرح الملتهب سوى على يد إبنها موسى، الذي لم يقو على إستقبالها برحابة عرشه، إثر حرمان شديد لطالما عاقبته به في سبيل هارون.

ندمتْ على ذهابها إليه أشد الندم، جلدتْ نفسها، كوت جرحها بجمرِ الخذلان، وبكت بفداحة الخسارة وناحتْ على تشرذم حلمها وتبعثر شهوتها.

ما الذي ستفعله الآن؟ ما الذي ينبغي عليها القيام به في هجير قصرٍ لم يعد قصرها وحجابٍ بات يخنقها ويقسو عليها أكثر بديْجور ذُ لّه؟

بعد عدة أسابيع..

من مصابها الأليم زارها هارون الذي لم يكن يعلم بما ألمّ بها في بلاط موسى، كما لم تكن هي مستعدة لإستقباله بثياب الضعف والإنكسار والهزيمة، إذ كانت في حضرته دائماً على اتمّ التماسك وعافية القوة والإرداة والتألق.

لملمتْ نفسها بصعوبة، مُستعيدة هالتها الفاتنة بإرتدائها لبرقعها بسرعة، ثم رحبت به بإبتسامة إختلستها بصعوبة من حسرة مقامها:

- وعليك السلام أيها الأمير.

إنتبه هارون إلى بُحّة صوتها وهيئتها الباهتة فسألها مستغرباً:

- هل أنتِ بخير يا أماه.. فقد جئتك بنبأ سيسر فؤادك؟

تأثرت بسروره فسألته بلهفة:

- وما هو يا بني؟

فأجابها بحماسة وسرور:

- لقد ولّى أخي أمير المؤمنين خالي الغطريف والياً على خراسان يا أماه.. خراسان وأعمالها.

شهقتْ الخيزران بقوة وإنتفضت واقفة ثم إرتمتْ في حضن هارون قائلة له بصوت مُتهدّج:

- أحقاً فعل.. ولّى أخي على خراسان؟!

- نعم يا أماه.. وهو الذي أمرني بأن أزفّ إليكِ هذا النبأ.

بهتت، لم تصدق أن موسى الذي عنّفها وطردها من عرشه منذ أسابيع، يكافئها الآن بتعيين أخيها الغطريف والياً على خراسان.

فأيّ أمرئٍ هذا الذي يُحسن ويسيء في ذات الآن؟

أي إحسان هذا الذي يسمو بقدر أُسرتها ومقام أخيها الذي كان منذ قليل بالغ الفحش والمجون ليُمسي بين ليلة وحكم إبن أخته موسى والياً على عضد الدولة ومهد عزتها.

إبتهجتْ الخيزران في بادئ الأمر، وتألّقتْ بفرحها طاردةً عنها خيبتها، واعتقدتْ أمام وهلة المفاجأة أن موسى يُكفِّرُ عن إساءته وإقصائه لها، وأنه أدرك أخيراً بأن سلطانه لم يمتد إلا بمباركة أمه.

إلاّ أنها في أعماق حدسها المبين الذي لا يخيب، وفي بصيرتها الإثمدية كانت تشعر أن الهادي قد فعل فعلته هذه ليتّقي ثورتها في مسعاه القادم، مسعاه الذي سيقلب الأمور رأساً على عقب وسيشعل القصر كل القصر بشهوةٍ تأبى الفناء والخمود.

-4-

نعم، لقد صدقتْ وأصابتْ، إذ أتاها موسى من حيث لا تحتسب مُلقياً على مائدتها فُتات المقام والتهام وليمة العزة بتعيين أخيها والياً على خراسان، معتقداً أن هذا هو هدفها الأسمى الذي ما أن يُحققه لها حتى يسدّ رمق جوعها للجاه ومقام أسرتها الرفيع، مُتجنباً تدخلها في شؤونه وما كان يُعدّ له من شأن عظيم لن يخالف به سُنّة أبيه وجده من قبله.

إذ عزم على نقض ولاية العهد وإجبار أخيه هارون على التنازل عنها لصالح ولده الصغير جعفر الذي لم يبلغ سن الرشد بعد.

هذا ما كانت تخشاه الخيزران، أن ينتزع موسى حلمها من صدرها لينثره هباءاً في سماء سلطانه، فقد أدركتْ ذلك من خلال إقصائه لها عن حجاب العرش، وشراسته في مواجهتها وجفائه لأخيه هارون وإبعاده عن مجلس الخلافة، حيث أعد العدة ببلاغة ودهاء لإيلاء ولاية العهد لولده يسانده في عزمه عدد من كبار قادة الجيش ووزيره "الفضل" الذي ورث عن أبيه المسموم الربيع بن يونس الخبث والدهاء، كما ساندته فتنة "رحيم" الجارية وأنفاسها اللاهبة التي سَعّرَتْ دمه لتجعله يسود بولدٍ منها.

ألم يكن هذا دأب الخيزران من قبلها أيضاً.. الإنعتاق والتحليق بجناحيْ ولدها؟

ولكن من التي تُشبه الخيزران؟

من التي تقوى على رعشة الظل وعبء العلم وبصيرة الحلم سواها؟

من التي خُلقت من حكمة وفتنة فارعتيْن سواها؟

في هذه الأجواء العاصفة لم يساند الخيزران وهارون سوى بعض قادة الجيش الباقين على عهد المهدي ووصيته الداعية إلى إيلاء العهد لهارون، والوزير المخلص والحكيم يحيى البرمكي الذي أثار موقفه هذا شكوك الهادي وسخطه عليه، فاستدعاه إلى أُبهة عرشه ليأمن جانبه سابراً أغوار نواياه:

– ما بال أبي الفضل لا ينظر بعين الرضا إلا لهارون وأم هارون؟

أخفى البرمكي إرتباكه وخوفه من بطش موسى قائلاً:

العفو منك يا مولاي والصفح فإني والله لا أنظر إلا نحو الولاء ووأد الفتنة، فالرعية لن ترضى بنقض بيْعة أميرها هارون وإيلائها لأميرنا جعفر الذي لم يستوفِ سنّ العهد والبلوغ بعد.

إسترعى حديثه إهتمام موسى فسأله بريبة:

- ماذا تقصد يا يحيى؟

- "يا أمير المؤمنين إنك إن حملتَ الناس على نكثِ الأيمان هانتْ عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيْعة أخيك ثم بايعتَ لجعفر من بعده كان ذلك أوْكد لبيعته".

قاطعه الهادي بلهفة سؤاله:

- وهل هارون راضٍ عمّا أفصحت عنه؟

أجابه البرمكي بإطمئنان تام:

- أي والله وهو الذي قال بأنه يخشى على الخلافة من الفتنة متعهداً بالتنازل عن حقه في ولاية العهد للأمير جعفر عندما يبلغ سن الرشد.

إنطَلَتْ على الهادي حيلة البرمكي البارعة في بداية الأمر، ولكنها لم تطل حتى كشفها الهادي بعوْن وزيره الفضل بن الربيع الذي أقنعه بأن تنازل هارون عن ولاية العهد لن يؤدي إلى إشتعال الفتن وزعزعة قواعد عرشه لأن الجيش سيُبايع على ولاية جعفر الصغير.

ليُباغت الهادي أمه وأخاه ووزيرهما البرمكي بإنقضاضه على ولاية هارون وإيلائها لولده في أجواء هادئه وآمنة لم تُخلّف آيّة فتنة أو أدنى معارضة من الرعية.

في تلك الليلة..

هرع البرمكي سراً إلى الخيزران التي هالها وأذهلها ما قام به موسى الهادي خاصة بعد أن إعتقدتْ أن يحيى قد نجح أخيراً بكسب المزيد من الوقت من أجلها لتمارس فيه ظلّها المُستتر الذي لن يتّشح به سوى هارون.

دخل عليها مُمتقع اللون يتملكه الخوف قائلاً بعد أن ألقى سلامه عليها:

"وأحـمـلُ فـي ليلى لقوم ضغينة وتُحملُ في ليلى عليَّ الضغائن"

فأصاب بقصيده فؤادها المهجور منذ رحيل المهـدي، واقفاً على أطلال عشـقها الزائـل ليُعبّر لها عـن شـغفه المكتوم بهـا، فحدقتْ بـه مـن وراء برقعها بعينيْها الدامعتيْن مُدركةً ضغوط ومحاصرة موسى الهادي له، ثم قالت بخفوت:

- ما شعرتُ بمثل هذا الخواء من قبل يا أبا الفضل.

قال لها بحرارة:

- أخشى أن أيامي باتت معدودة في هذا القصر، فالهادي منذ أن نقض ولاية العهد وهو يُثقل عليّ بتهديده ووعيده، كما أنه ما زال يشـك في إسـتقرار عهده الجديد ما دام هارون وأنت في هذا القصر.

إنتابتها قشعريرة حادة فانتفضتْ قائلة له:

- ما الذي سيُقدم عليه إذن؟

تفـرّسَ برقعها مُتشـوقاً لذلك الوجه الفاتن الذي لم تكشـف عنـه وترميه به سوى مرة واحدة في حياة القصر ثم قال لها:

- لـن يتـردد عـن حماية وترسـيخ دعائم عهـده، فإنّي والله قـد رأيت الطامّة الكبرى في بريق عينيه.

وما أن أنهـى حديثـه حتى دخـل المجلـس هـارون بهيئـة إكتسـتها المرارة والجزع، فسألته الخيزران بلوْعة:

- ما بالك يا بني مغمورٌ بالحزن يعتصرك الأسى؟

نظر إليها هارون بعينيْن ذابلتيْن ثم أشاح بنظره إلى يحيى وزفر قائلاً:

- عندما كنتُ في طريقي إلى القصر آتٍ من بغداد، صادفتُ موكب إبن أخي جعفر، فألقيتُ عليه السـلام، وحين هممتُ بتجاوز موكبه منعني صاحب الشـرطة "أبـي عصمـة" قائـلاً لي مكانك حتى يجوز ولـي العهد، فقلتُ له السمع والطاعة للأمير، ووقفتْ حتى جاز جعفر.

أمسكَ للحظات عن الكلام ثم نظر إلى أمه قائلاً بجزع:

- وإنـي والله يا أمـاه قـد عفتُ الأمر وضـاق صدري من جور أخي ولم أعدْ أكترث بحقي المسـلوب وخلافتي المنتزعة، ومالي سـوى إبنة عمي زبيدة

أعيش معها إلى أن ينتهي أجلي في مكان قصيٍ بعيد عن لؤم أخي ونواياه الآثمة.

وقفت الخيزران وتقدمت نحوه بثبات، ثم أمسكتْ رأسه بكلتا يديها مُحدقةً به بوميض عينيْها بصمتْ، ثم وضعت رأسه على صدرها وغمرته بلطف قائلة له وهي تنظر إلى يحيى من طولها الفارع:

- هوّنْ عليك أيها الأمير.. فما هكذا تُواجه الصعاب، إذ لن تبقى هنا، وما أرجوه منك الآن هو أن تُهيئ نفسك لرحلة تُخفف فيها عنك الوحشة والحسرة، فأنت بركة أبيك وعزمه الأخير، فامضِ يصحبك في رحلتك أخوك جعفر بن يحيى، أليس هذا هو عيْن الصواب يا أبا الفضل؟

- بلى.. بلى يا مولاتي فلتذهب في رحلة صيد يصحبك فيها ولدي جعفر، ولا ترجع إلا عندما ترسل في أمرك مولاتي.

-5-

جُن جنون الهادي عندما علم بإختفاء هارون، فهو كان قد أعد العدة بنوايا خفية مخيفة من أجل التخلص منه موشكاً على إرتكاب الدماء وانتهاك عهد الأخوّة والرحم.

وفي ثورة غضبه العارمة ألقى القبض على يحيى البرمكي، وزجّ به في الحبس بعد أن تصبّر وتريّثَ عليه طويلاً محاولاً قدر الإمكان جذبه إليه وضمّه إلى حاشيته لما يتمتع به من ذكاء وحكمة ودهاء.

إعتقد موسى بأن هذه ستكون المعركة الأخيرة التي سيكسبها في حربه ضد أمه، فبإختفاء هارون وحبس يحيى لم يتبق لها أحد وسند، فقد خلا القصر أخيراً من خصومه في سبيل حكمه وعهد ولده جعفر، ومن أجل أن يُكلّل مسعاه بالإنتصار الأخير أرسل إلى أمه الخيزران وليمة طعام عامرة بما لذ وطاب من أصناف الطعام العباسية الشهية، إلا أن الخيزران التي لم تُشْفَ بعد السمّ الذي أودى بحياة زوجها المهدي أمير المؤمنين، كما لم تُشفَ أيضاً من حسرة شكّها بوقوف موسى وراء ذلك، كانت قد إرتابت من حلول طيبة ونقاء سريرة ولدها

الخليفة العاقّ عليها.

إذ تفحّصتْ الوليمة بحذر وفطنة لـم تندثر بداخلها خاصة في هذه الأوقات الحرجـة والمُميتة، ثم طلبت من صاحبتهـا خلوب إلقاء الطعام الشـهي من نافذة مجلسها.

نظرت إليها خلوب بإستغراب وحيرة ثم سألتها:

- ولماذا يا صاحبتي فهو لا يسعى إلا نحو إسترضائك وإبداء حرجه وإعتذاره منك؟

رمقتها الخيزران بنظرات نارية ثم قالت لها بحده:

- إقذفـي الطعـام إلـى كلاب القصر يا خلوب ثم أنظري في كرم ولدي عليّ وإرضائه لي.

ففعلتْ خلوب بذهول تام ما أمرتها به، مُلقيةً بالطعام من النافذة، ثم نظرت بفضول لترى كلباً جائعاً مـا أن غرز أنيابه فـي لحم وليمة موسى وإزدرده حتى نَفَقَ خلال لحظات من زعاف السمّ المدسوس في الطعام.

شهقت خلوب مرتدةً إلى الخلف بحدة، ثم قالت للخيزران بخوف وتلعثم:

- والله قد صدقت.. صدقتِ فالذي يفعل بأمه هذا ما هو إلاّ الشيطان الأكبر!

ثـم أجهشـت بالبـكاء مُرتميـةً علـى الأرض، فـي وقـتٍ كانـت تُحـدق فيه الخيزران بصمتٍ منزوع الحجاب بجثّةِ الكلب النافق وما أحاط بها من ذباب.

حدقت بعزيمة وقوة، ثم أغمضـت عينيْها كما لو أنهـا رأتْ فجأة ما أرعبها وأذهلها.

في ذلك المساء..

هرع موسـى الهـادي إلـى مجلسـها ليتأكد مـن مصرعهـا، فوجدهـا وحدها تنتظره مُتربعة على عرشها الصغير بجذلٍ وفتنة ووجه عارٍ.

كان على يقين بأنه سـيأتي ليطمئن على سُـمّه فـي دمها وإنتهائـه منها ومن نزعاتها المخيفة مُكلّلاً جريمته ببكاءٍ سخيٍ خبيثٍ منهمرٍ على جثتها الهامدة التي سيدفنها بجانب خليفة قضى منذ قليل نَحبه بذات السمّ.

وقف أمامها واجماً مذهولاً، ثم سألها بإضطراب:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

- "كيف رأيت الأوزة؟"

إنفلتتْ ضحكة قصيرة منها لم تخلُ من الفحش ثم قالت:

- "لقد وجدتها طيبة".

تملّكه السخط والغضب ثم إقترب منها مُلوّحاً بقبضته في وجهها:

- "ألم تأكلي.. ولو أكلتِ لكنتُ قد إسترحتُ منك، متى افلحَ خليفة له أمْ؟"

ثم غادر مجلسها مسرعاً وهو يرغي ويزبد، وما أن تأكدتْ من خروجه حتى إنقلب حالها من امرأة جذلى إلى أرملة حزينة مفجوعة تُجهش بالبكاء..

تنوح.. تجرُّ جسدها على الأرض، وتتململ..

تنتفض بعنف وألم كما لو أن جلاداً ينهمر عليها بسياطه النارية، يعلو نحيبها وآهاتها، إذ تتأكد الآن أكثر من أي وقت مضى بأن حدسها لا يخيب، وبأن موسى قد سلّبتْ عقله شهوة السلطان، فالذي يُقدم على دسّ السمّ لأمه، ويطارد أخاه وشقيق دمه ولحمه ليعزز أنياب عرشه فيه، كان قد أقدم من قبل على ما هو أقسى وأفظع.

نعم.. حدسها كان حقيقة مؤلمة أفضت بها إلى الإبن القاتل والغادر والقادر على قتل أقرب الناس إليه في سبيل نفسه وتاج سلطانه.

ها هي تواجه الآن ما كانت تهربُ منه دوماً في وحدتها، إذ هو مخبوء قدرها، وجهه الأسود يتجلّى أمامها ليلاً لا يتدلّى من سمائه سواها بعد أن إحتجب قمرها.

نعم.. لم يعدْ أمامها سوى إنفاذ مشيئة العهد المختوم بحتمية حلمها وتشوّفها اليقيني الذي لطالما خبأته في طيات حجابها خوفاً من حلوله وإحتلاله لها، ها هو يتجلّى أمامها الآن فما الذي ينبغي عليها فعله؟

هي اللبؤة المتوحشة..

الأم القاسية المفترسة الدامية تنقضُّ على هشاشتها في عز حجابها، تقف قبالة نفسها الخائفة إثر نجاتها من سمّ ولدها، لا، لا والله ليس إبنها من يتوخّى قتلها، ليس إبنها الذي أقسمت بدماء نشوئه أن تسود بعهده وعهد أخيه، ليس إبنها الذي هجرته منذ وُلدْ، ففي هاوية نفسها كانت أمومتها مُتصدّعة صرعى،

ووحدها الشهوة تستصرخها وتطالبها بالإنقضاض على مصيرها.

تقف الآن بشموخ وعزة، تنزع برقعها، تمسح به دم ولدها إذ هو وقتها الأسمى الذي تُزيل فيه رعشات ظلها.

الآن تنتفض.. فلا مفرّ من المكتوب والهروب من درب الدروب، ولا إرتداد عن إندلاع الشهوه في ذلّ حجاب ألقاه عليها موسى، بعد التريث والترقب والصبر وما صاحبه من أمومة أو بقايا أمومة لم تعد قادرة على الهروب من قدر الأقدار.

إذ هي تزمجر.. تصرخ.. وتحرق ما يجب إحراقه مرة واحدة وللأبد.

-6-

في ليلة الظلال الراقصة على ألسنة الشهوة، وعندما كان الموت المُدبّر يُشرف على الوثوب على يحيى البرمكي، وإغماد السيف الحرام في قلب إبن عشقها هارون، كان الهادي بأوْج ذروته في أحضان جوارٍ ثلاث رومية وفارسية وحبشية قويات البنية شديدات الغُلْمة، ولا يفقهن سوى لغة اللذة والمتعة، لم يتمالك أنينه في سرير فتنتهنّ ولعنات أجسادهن، فلم يُمهلنه طويلاً حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ولهاث نَخْبه مختنقاً اسفلهن هنَّ اللاتي لم يتعمّدن قتله بل مداعبته وممازحته فقط بصلابة نهودهنّ وأردافهنّ كما كان يحب ويشتهي، إلى أن تأكدن من خفوته وسكونه، فعدْنَ بخفّة حريرهن وعتمة ليْلهن إلى جناحهنّ جناح الحريم.

في ذات الليلة الليلاء والشديدة العواء

كان البرمكي داخل حبسه يُصلي ويدعو ربّه بورع وخشوع بأن يُنجّيه من سيف موسى الذي كان قائد حرسه على وشك الدخول عليه ليجتثّ أصل حياته وعمره من تربة القصر العباسي.

إنتابت البرمكي قشعريرة سرتْ في كافة أنحاء جسده عندما فُتح باب زنزانته، فردّدَ الشهادة بصوتٍ عالٍ ثم أخذ يتمتم بكلام غريب شَابَهُ بكاء خافت، ثم رفع رأسه ليواجه مصيره مُسلّماً أمره لله، فإذا به يلمح ظلاً وارفاً

وطيفاً فارعاً مُتّشحاً بالسواد وبرقعا موشحا بالذهب.

إقترب السواد فانبثقت منه عينان لطالما عشقهما البرمكي وهام بصاحبتهما، وقف فجأة، وإقترب من الهيئة السوداء، ظنَّ بأنه يحلم، إقترب أكثر، أوشك على لمس الجسد الشامخ أمامه ليتأكد من صحة وجوده، وبأنه لم يُذبح بعد، فصاحت به صاحبة الظلّ وأيقظته بصوتها الحازم المنبعث من أعمق أعماق الشهوة الحالكة:

- ويحك يا يحيى. هيا استجمع قواك وقُمْ لتأتني بهارون فموسى قضى نحبه منذ قليل.

كان مسحوراً بحق، إذ وقف حائراً خانعاً دون أن يقوى على التفوّه بكلمة واحدة على ترامي ظلّها عليه.

حدق بها قليلاً، نعم إنها هي ومن سواها سيدة الظلال الحرة، ثم لملم نفسه بسرعة مكفكفاً دمعه ومضى لينفذ ما أمرته به.

عادت هي إلى جناحها في القصر على قدرٍ عالٍ من التماسك والعزيمة ورباطة الجأش.

لا ترتعش..

إذ هي الليل المُخيّم بشموخ وسموّ على القصر..

لا تبكي..

بل تقف بجانب سريرها الرحب..

لا تصرخ..

بل تنزع ببطء عنها برقعها ثم عباءتها ثم ثيابها ثم سوادها الحالك.. ترتدي شهوتها التي إندلعتْ لتسود أخيراً في القصر.. وتنام.. فلم يعد يفصلها عن حكم الدولة العباسية سوى غشاء أسود رقيق ارقّ من إبنها هارون..

تنام ولا تأبه بشيء..

لا ترتعد فرائصها.. بل يُهدهد نومها قمرُ غدٍ، ونامت دون أن تُحصي أو تبكي الأنفاس الأخيرة لولدها الذي لم يدرك مَغَبّةَ سُمّه الغادر في دمها، ونامت فما هو مخبوء قد إنكشف أخيراً، إذ لم يكن مُريعاً ولا مُستحيلاً بل حقيقة لن

تحفل إلاّ بإقامة حلمها الصريح، وما أُحِلَّ لولدها هارون..

هارون الرشيد.. ونامت.

-7-

في اليوم التالي..

أُعلن في قصر عيساباذ، وفي أجواء من النحيب والحزن ولوعة الفقدان وحسرة الخيزران عن وفاة الخليفة العباسي الرابع موسى الهادي إبن محمد المهدي والخيزران في الثالث عشر من ربيع الأول من سنة 170 هجرية الموافقة للثالث عشر من سبتمبر من عام 768ميلادية عن عمر ناهز الثلاثة والعشرين عاماً، حكم فيه المسلمين لمدة لم تتجاوز سنة وشهرا وإثنين وعشرين يوماً وبضع ساعات، تلاها إعلان البيعة لأخيه هارون الرشيد خليفة عباسياً خامساً للمسلمين.

الفصل التاسع عشر:

مشارف الظلم والحلم

تتعاقبُ عليَّ أيامٌ وفصول..

منذ متى وأنا أختلجُ جرحاً يمتطي صهوة الصحراء والرحيل؟

جرحي الأخدود العميق أسكنُ فيه، وأدفنُ ما تبقى من أثر بلاد الجنوب في دمي، وأحترق لأنبثق على مشارف الرايات السود، إذ أشعرُ الآن بالدنوّ من رحيق السلطان وتوهج قصره.

لم أزل في أواخر النصف الأول من القرن الهجري الثاني، في توطئة شهر ربيع الأول، لأُشهرَ أمام وجه عمري اليانع ستة أشْهر حّرمتُ فيها على نفسي السكينة والخضوع لنحيب الوادي الكبير وأنين أمي، تعاقبت علي الفصول، أنضجتني، وأنشأتني وأحاطتني بأيادٍ سوداء خفية إختطفت براءتي لتقحمني في دامس دهاليزها ولؤم أيامي القادمة.

كان الفصل يتراوح ما بين آخر أنفاس الشتاء وأول أزهار الربيع، ولكن الصحراء لا تُزهر سوى القفر وهجيرٍ مُتسربلٍ بسحرٍ لا يتزيّن به سوى عشاقها، أولئك الذين أدركوا رمالها وأنغام نجومها وسرمد فجرها.

وأنا في محرابها الواسع أصبو إلى المزيد منها، بعد أن أيقنتُ بأنها الأم الكبرى وصاحبة المقام الأعظم في نفوس حراسي وحلمي، الذين لم يسأموا من عهدهم ووعدهم الذي قطعوه لي ولتطلع سيحلّ بعد قليل في ظلال الخليفة.

كنتُ قد علمتُ من "عقبة" بمسار الدرب وأهم الطرق التي سنسلكها، فها نحن الآن على مشارف "تيماء" التي ألفظ إسمها بغرابة ودهشة عندما علمتُ بأننا سنمرُّ بها، أُرَدده داخل هودجي بسرور وحذر لأنني خُذلتُ وحُرمتُ من قبل من الدخول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وأما ما بعد تيماء فسنبحرُ في صحراء يطلقُ عليها صحراء النفود، ومنها إلى شقيقتها الجوف، ثم واد إسمه غريب وعجيب وهو وادي عَزْعَزْ، وهو الإمتداد الأخير للصحراء الكبرى العاتية والأزلية، ومن ثم نجوز كربلاء وهي توطئة عراق المسلمين ومنها إلى الكوفة فهاشمية الكوفة.

لكل إسم من أسماء هذه الأماكن وقعه الخاص والغريب على مسمعي البريء الذي لم يعتدْ من قبل هذا التتابع الهائل للأماكن، إذ أشعر بأنها هي من تطؤني لا أنا الساعية في دروبها الغاشية، حيث لا أقتفي أثر حلمي فقط بل ما تبقى من أثر الغزوات العتيقة وجيوش الفتوح الأولى التي أسبغتْ على الدنيا بالإسلام الحنيف.

إثر ما قاله لي الأنهد في ذلك الفجر العابق بي وبه، عندما إتهمته بحدة طفولتي بأنه مجرد مُفسدٍ في الأرض، ليعاني فيما بعد من ألم طعنتي بشهامته ومروءته، فكان إثر نجاتنا من لعنات مسرب السحر الذي خرجنا منه سالمين من العُتْه والجنون على شرود ووجوم دائمَيْن هارباً من فجرٍ لطالما جمعني به في رحاب الصحراء، إلى ان عزمتُ أنا على دمل جرحه، فزرتُه فجراً إزدان بنا معاً على مشارف تيماء.

كنتُ قد خرجتُ من خبائي تعتورني آلام رعشة إشتدت عليّ وأنا في طريقي إليه، فتلك كانت مرتي الأولى التي أمضي فيها إلى زيارة رجلٍ داخل خيمته، إلاّ أنه لم يكن بها، فبحثتُ في عتمة الفجر الخفيفة عنه إلى أن عثرتُ عليه طيفاً مقيماً في البعيد عن القافلة على صخرةٍ منيفة أضفى بجلوسه عليها عرشاً ممسوساً بالقداسة.

إقتربتُ منه بخطى خفيفة هادئة، إلى أن فاجأني بفضح خطاي المُنهمكة بمباغتته قائلاً:

- ما زلتِ تسيرين بضجيج البنية الصغيرة يا مقّاء.

ثم إلتفتَ بوجهه الوضّاء وأعوامه الثلاثين السامقة وفروسيته المَهيبة، ثم سألني مبتسماً:

- فما هو خطبك في هذا الفجر؟

لم أحرك ساكناً وسط إهتياجي الناشئ من فشلي بمباغتته ثم قلتُ له:

- والله ما شرعتُ إلاّ في أمرك والسعي في فجرك ودمل وجرحك..

قاطعني وهو يقفز عن الصخرة:

- أي جرح أيتها الصغيرة؟!

أغاظني بسخرية سؤاله المتعمّدة فأجبته بحدة:

- أنا لستُ صغيرة أيها الأنهد.

ضحك ضحكة قصيرة ثم دنا مني وقال:

- حسناً.. حسناً.. فما الذي جاء بك أما تخشين من وحشة الصحراء؟

- معك لا أخشى شيئاً.

إضطرب قليلاً مُشيحاً بنظره عني ليحدق في نقطة معينة بالسماء ثم قال بخفوت حزين بدّد إبتسامته:

- لقد قسوتِ عليّ يا مقّاء.. قسوتِ حتى أيقنتُ بأن الصحراء قد أنضجتك وأغلظتك بعارم بؤسها وشظفها.

دنوتُ منه أكثر، ثم رفعتُ برقعي على رأسي قائلة له بخفر:

- والله ما كنتُ أتوخّى سوى العلم بالشئ أيها الأنهد، ولم أقصد إساءة قد أطاحت بي عن متن فجرك.

في فجرٍ إنقضى منذ بضعة أيام، أضفى عليّ الأنهد شيئاً من سلالته وأصله وعلم قبيلته، مُلقياً عليّ فطرة الصحراء التي ترعرع ونشأ عليها، إذ هي البساطة والسلاسة في أرض قصية وشقية بعيدة كل البعد عن هموم الدنيا ومآسي دهرها وسيوفه العاجزة عن التوغل داخل أعماق صحراء لطالما كانت غيباً وستراً لقبيلة تعاهدتْ على الإقامة في الحياة القاحلة.

قال لي بأنهم ليسوا كسائر أعراب البادية وما هو معهود منهم من الفظاظة وغلظة القلوب والعدوان المقيم في خيامهم وعهد بداوة لم يُصب من الإسلام إلا ظاهره.

إنما هو قومٌ يسكنون قبيلة ضاربة جذورها في أعماق الصحراء منذ أمد يمتد إلى ما قبل الإسلام، تعاقبوا على بعضهم البعض وإجتمعوا عصبة إعتصمتْ

بحبل الزُهد والحرية والنأي بنفسه عن إجحاف ذوي القربى والقبائل الكبيرة، فاحتوتهم الصحراء وحفلتْ بهم ومنحتهم أمانها وبركاتها مُزيلة عنهم لعنات قبائلهم، لتمنحهم لقب الصعاليك الذين لا يبغون من الدنيا شيئاً سوى الكرامة وشرف العيش، وإيواء ومساندة بعضهم البعض من خلال غزوات خاطفة وسريعة ينقضّون فيها على أطراف جاه وأموال قبائلهم التي إنسلخوا عنها.

إلى أن جاء الإسلام وتوهّج بنور آياته ورسالته، وعدل نبيّه الكريم محمد عليه السلام في أنحاء العرب، فانتشر وإمتد حتى مسّ بنوره قبيلة الصحراء البعيدة، فأسلم معظمها وحسن إسلامهم، قال لي الأنهد بأنه نشأ مسلماً لا بل كان يقصد مكة ورحابها الطاهرة ليأخذ فقه الدين وتعاليمه من أفواه العلماء والحكماء، فحسُنَ إسلامه وإزداد علمه في ظل قبيلة لم تراوح الصحراء وتاريخها العتيق.

ولكن رواية صحرائه الحافلة بقومه الأكرمين لم تطل في إحاطتي بأمان الحياة وسروري بسيدها، فمثلما كنتُ قد قسوتُ عليه من قبل، قسا عليّ هو بشدة في ذلك الفجر بمنشورٍ مُغمّسٍ بالدماء لطّخ سذاجتي وشحيح علمي، عندما علمتُ أكثر من أي فجرٍ مضى والقصة تفتكُ ببراءتي ما الذي كانت تعنيه الأحاديث التي كانت تتجاذب أطرافها رقية والأنهد وأبو عمرو والقبيلة كل القبيلة المتخفية بالصحراء.

إذ في الفجر علمتُ وأدركتُ الخلفاء الراشدين، وشيعة علي وقميص عثمان وحرب الدماء الحرام، والعلويين والخوارج والأمويين والعباسيين، نعم العباسيين أصحاب الرايات السود، ووحدهم الذين كنتُ أقتفي أثرهم في هذه الصحراء.

وحدهم الذين سأحلُّ عليهم لأرتدي راية سوادهم بعد قليل.

-2-

بعد ما يُقارب الشهرين من المسير في رحلة عمري المسبي، ها أنا في مساء قافلتي على مشارف مدينة.

هي تيماء التي قالوا لي عنها أنها حاضرة الصحراء العظيمة وواحة الهاربين من قيظ الصحراء وظمأ وتعب القوافل.

هي المدينة الأولى التي أعانق أثيرها مساءاً أحتفي فيه بها وبإستعدادي الأنيق للدخول إليها، فمنذ عهدي الغابر في قريتي الصغيرة، لم أحلم يوماً أو حتى مجرد أن أصبو إلى زيارة مدينة كبيرة من مدن أحلامي الصغيرة.

كان بإمكان الأنهد الساعي في حثّ خطى القافلة أن يتجنّب المرور بتيماء كما فعل فيما سبق بمكة والمدينة، إلاّ أنه لم يعتزم الإستراحة على أبوابها فحسب وإنما الدخول إليها.

حيث أقمنا خيامنا الصغيرة على مشارف حاضرة الصحراء، وخلدنا إلى نوم وراحة لذيذيْن مُجلّليْن بنعمة الأمان وسلامة القافلة من مفاجآت الطريق وشاسع مجهولها وغموضها.

في الصباح.

إستيقظتُ على أتم المرح والإبتهاج، إذ إستنشقتُ وعبّأتُ صدري بنسيم البلد التي سأدخلها بعد قليل، كما إنتعشتُ عابقة مطروبة بحديث رقية لي في إحدى ليالي خيمتها العامرة بالعلم والبيان:

- "العشق جُلّ أن يُرى، وخفى عن الورى، فهو كائن في الصدور، كالنار في الحجر، إن قُدِحَ أورى، وإن تُركَ توارى".

أحال شذى كلامها خبائي الضيق إلى قصر فسيح أرقص فيه وأُغني على مرأى ومسمع الأنهد الذي ومنذ ذلك الفجر الذي سلوته فيه وأنا جذلى به وبدنوه مني، إذ ورغم صريح كلامه القاسي وإشهاره في وجهي هوْل زماني هذا، إلاّ أن الفجر كان مُعدّاً على وجه العشق واللهفة المكتوميْن لي وله، فلماذا لم أقترب منه أكثر؟

لماذا لم أُمسّدُ بكفيّ على وجهه البهي حيث كان طقساً لا تُقام في أجوائه الفجرية سوى صلوات العشق؟

عشقٌ أشاح الأنهد بعينيْه المتّقدتيْن عن حَجَره، لكي لا يشتعل بي ويحرق رقية التي لطالما خشيتُ في حضرته من التطرّق إليها بسؤالٍ يُشفي غليل الوجدِ

www.ibtesama.com تنسيق: علامة تعجب

المتصاعد في دمي؟

إذ أنا أخشى من خيبة أخرى أحملها على كاهلي الضعيف، وهو الذي بفجره المتكرر معي وشرود ذهنه لا يثبت سوى إستحواذ هوايَ على فؤاده، هوى لا يخفى على حدسِ انثى في مطالع عمرها الممسوس بالسبي، أنثى لقّنتها رقية بعضاً من بيان الصحراء وعلوم الدنيا، ولكنها لم تُلقّنها الأنهد بل حرمتها منه.

نعم، فهي وحدها من يحق لها أن تنعم به وبعشقه وإرتداء عباءته، وأما أنا فلستُ سوى عابرة صحراء في طريقي إلى جهنمّ مصيري الذي أرسمُ ملامح الوصول إليه الآن على مشارف هذه المدينة.

إنتشلتُ نفسي من حديث رقية لئلا تمسّني بتباريح عشق ستفسد حتماً بهجة صباحي هذا، وسروري الذي أعددته جيداً من أجل الإحتفاء بتيئماء الوارفة.

قادني إنتعاشي إلى تهيئة نفسي والخروج من خبائي، فخرجتُ أسعى ما بين الخيام الهادئة في صباح أنا فيه هانئة مُزدانة بسعادة غامرة لم تحلّ منذ أن حلّتْ عليّ لعنة زماني.

وفي خضم إستردادي لعمري البرئ في لحظات الصباح المشرقة، تذكرتً فجأة أمي، تذكرتها في نعمة الصباح المباركة، فانتابتني غُصّة مؤلمة حين رأيتها طيفاً باهتاً تمر من أمامي على عجلة من أمرها مُمزقة الثياب يكتسيها الدم والدمع والتراب، مُلتاعة ثكلى مفجوعة، تبحث عني في ظلال أشجار لم تنبثق يوماً في قريتي، وفي مفاصل صخرٍ لم تبنِ عليه يوماً قريتي بيوتاً من العزة والمنعة.

إرتعدتُ كما لو أن ناراً قد حاصرتني مُوشكة على إلتهامي، ليعود إلي حزني، لا بل أنا عدتُ إليه مفعمة باللوعة والحسرة، ساعية بكل ما أوتيت من الفراق والمسافة الشاسعة والنسيان أن أتجاهل وأتناسى ذكرى القرية وبيتي العتيق المتهالك لحين إكتمال حلمي حقيقة.

عندما هممتُ بالعودة أدراجي إلى خبائي، رأيتُ أبا عمرو حكيم القبيلة

وقافلتنا الصغيرة مُنهمكا في شد وثاق بعيره، فدنوتُ منه لأُلقي عليه تحية الصباح ولأُبدد لوعتي الشديدة الطارئة.

القيتُ عليه التحية ثم سألته بلهفة نشأتْ من إعداده لبعيره:

- هل سنغادر الآن يا جدي؟

أجابني وهو منهمك في شأن بعيره بصوت حائر مُتهدج:

- إسألي الأنهد يا ابنتي؟

كانت إجابته مقتضبة ومُحيرة، دون أن تسعفني في أمر هذا الصباح الذي تحول على حين ذكرى من فرح وسرور إلى حزن وحسرة.

فلم أشأ المضي قدماً نحو خيمة الأنهد إثر جزع إستحوذَ عليّ، وألم أصابني في عمق فؤادي، فعدتُ أدراجي لا ألوي على شيء سوى مواساة نفسي والخضوع لقسوة قدر يبدو أنه لا يريد لي الدخول إلى أي مدينة أصادفها في طريقي إليه.

-3-

في خبائي..

إنغمستُ بعزلةٍ قاسية أفسدتْ إحتفائي بصباح تيماء، ثم لجأتُ إلى غفوةٍ غمرتني بأحضانها اللطيفة الناعمة وبياض نسيانها، هاربة من مآسي الذكريات ونحيب أمي البعيدة وقيظ الظهيرة، إلى أن إستيقظتُ مفعمة بسلام نفسي أسبغه عليّ نسيم عصرٍ عليل أعاد لي بعضاً من صفاء وهناء صباحي الزائل.

وما أن إكتملت يقظتي وحضوري حتى سمعتُ الأنهد يهتفُ بإسمي من وراء باب الخباء، سائلاً إذا ما كنت يقظة، فتهلّلت أساريري حين سمعتُ صوته الآسر، ثم أجبته بعد أن إستعدتُ أنفاسي:

- أدخل أيها الأنهد فأنا على أتم اليقظة.

فتح باب الخباء، وأطل بوجهه المنير قائلاً بسرور:

- هيا أعدي نفسك.. للدخول إلى تيماء.

صرختُ بعفوية وفرح:

- حقاً؟!

- هيا بسرعة.

مضى مُخَلّفاً وراءه دهشة طاغية إنتابتني، ولكني ريثما هيأتُ نفسي على عجل وهرعتُ إليه بلهفة.

كان على أتم الإستعداد على متن الدآدئ، إلاّ أني تجمّدتُ في مكاني حائرة مضطربة، إذ كيف سيردفني خلفه وهو على متنها والوقت ليس فجراً على مرآى حراس القافلة، وعندما أحسّ هو بتخبطي وتحديقي به من وراء برقعي تدارك الأمر مُقهقهاً:

- حسناً.. لن أردفك خلفي فالدآدئ لكِ فجراً فقط، ألا ترين بعير أبي عمرو قد أُعدَّ من أجلك.. هيا إذهبي فامتطيه.

فمضيتُ إلى البعير مبهورة دون أن أُعقب بكلمة أو أي تذمر، لأن السرور قد طغى والفرح قد حلّ عليّ أخيراً على أبواب تيماء.

إعتقدتُ للوهلة الأولى بأننا جميعاً سنمضي إلى المدينة، ولكني ريثما تفاجأت لأن موكبنا الصغير إقتصر علي وعليه فقط.

إنطلقنا في طريق لم تكن مزدحمة بالقوافل والناس كثيراً، مما سمح له بمحاذاة بعيري بفرسه ثم هتف قائلاً:

- إن تيماء حاضرة البادية الكبرى ولها عند العرب منزلة كبرى.

نظرتُ إليه من علو هودجي وإبتسمتُ بجذل لأن هذه هي المرة الأولى التي يحادثني بها في أوْج الظهيرة.

أردف قائلاً:

- كما أنها مَدينة حرف الكلام وأصل خطوطه، ففيها خُطّتْ المعلقات الشعرية بماء الذهب على الجلود السوداء قبل أن تعلّق على ستائر الكعبة إبّان الجاهلية، وها نحن قد إقتربنا من بابها الشرقي.

وما أن أنهى كلامه حتى نظرتُ بلهفة إلى الأمام، فرأيتُ ملامح شموخها وسورها العصي على رمال الصحراء، هي واحة فردوسية بحق، مُكلّلة بالنخيل الذي أضفى عليها خضرة الحياة وفيافي طيبة النسيم العليل.

قال لي وهو يُهدئ من عدْوِ الدآدئ بلطف:

- سنحط ركبنا هنا وسندخلها راجليْن بسبب إكتظاظ أسواقها وعجز البعير عن السير فيها.

ثم دخلناها، مُخلّفين وراءنا صهيل الدآدئ المحتجة على حرمانها من الدخول معنا إلى المدينة.

سرتُ وراءه كما لو أنني في حلم، أو طفلة في أول عمري أتخبط وأتعثر بخطاي، لاحظ هو إضطرابي وتبعثري فقال مبتسماً:

- لا بأس.. فهذه سابقتك فلا تستحيّي.

أوشكتُ أن أقول له: أتوسل إليك يا حبيبي خذ بيدي وأرشدني كي لا أقع.

ولكني أُخذتُ بإزدحام السوق وعجيجها وصراخ باعتها وحشودها التي لم أر لها مثيلا في بلادي، إذ هي مدينة قد سلبتْ أنفاسي ومنحتني الإنبهار بحق.

حدقتُ بكل شيء من وراء برقعي وسوادي، بالبضائع والباعة والحشود، لم أُخلّفْ شيئاً ورائي إلاّ منحته لهفة عينيْ وفضولي، هالني إتساعها وعظمتها وصخبها، ونسيتُ في خضمّ السوق أنني برفقة الأنهد، حيث أخذتُ أحدقُ في وجوه الناس وأراقب إنغماسهم في شؤونهم ومقاصدهم وأنا أسير بتخبط.

شعرتُ للحظة بأنهم جميعاً يتفرّسون في ملامحي بقسوة موشكين على الإنقضاض عليّ ونزع حجابي عني، فاقتربتُ من الأنهد لا بل إلتصقتُ به بخوف، فنظر إلي مبتسماً في سعيٍ منه إلى طمأنتي وتهدئة روعي، ثم إنعطف فجأة يميناً إلى زقاق ضيّق نجّانا من مدّ الناس العارم الذي كاد أن يجرفنا بإندفاعه الهائل في السوق إلى خارج المدينة.

توغلنا في أزقة تيماء..

لم أسأله أية وجهة يقصد أو إلى أين يصحبني، فأنا ما زلتُ في الحلم ودهشته، أسير وراء فارسي دون أدنى تعقيب او إمتعاض من غموض الأزقة والوُجهة.

نظرتُ إلى ما حولي من طرقات وأزقة، وشاهدتُ بيوتاً مُتوّجةً بالنخيل وطينا يكسوه بياض جميل، لم تنعم به يوماً بيوت بلدتي.

كان الأنهد يسير بخطى واثقة نحو وجهة معينة منعته من الحديث إليّ ومواساتي من شدة دهشتي، إلى أن إنعطفنا يميناً مرة أخرى، ثم دلفنا إلى زقاق إنتهى ضيقه بفُسحة واسعة إحتلّ آخرها بيت ضخم من الآجر الأبيض لا نوافذ له، وما أن دنونا منه حتى سألتُ الأنهد بفضول وتعب من التحديق بغرابته:

– ما هذا المكان أيها الأنهد؟

لم يُجب، بل نظر إليّ بحيرة، ثم أمسك بيدي وأدخلني معه إلى البيت من باب واطئ ضيق، فنظرتُ إلى ما حولي بريْبة مُتأثرة بهدوء المكان ورحابته وشذوذه عن صخب المدينة.

إشتد ذهولي عندما تركني الأنهد وإختفى في غرفة جانبية، فالتصقت بالحائط الذي مسّني ببرودته بقشعريرة قارسة، ثم دققتُ في محتويات البيت، إذ هو طابق واحد مربع الشكل تسكن في أضلاعه غرف صغيرة مُتراصّة أبوابها من ستائر حريرية ملونة، أحصيتها فإذا هي عشرون غرفة.

تسلّلَ إلي الخوف، وتجمدتُ في مكاني يُقلقني هدوء المكان المخيف والمُوشّى بهمسٍ منبعث من وراء الأبواب، فهدّأتُ روْعي مُصيخة السمع إلى ما يحتويه أثير الهمس، فلم أُميز سوى أنه منبعثٌ من أفواه نسوةٍ مستترات خلف الأبواب الحريرية، ثم أفزعتني ضحكة فاحشة إنبعثت فجأة وإنتشرت في أرجاء الصمت، فنظرتُ بخوفٍ وأنا أرتعش إلى الأبواب فلم أعثر على أدنى حياة، إلى أن عاد الأنهد برفقة رجل أنيق الملبس الذي يشي بالترف والبذخ، إقتربا مني، ساورتني شكوك مخيفة ورهيبة عندما رأيتُ قُبح الرجل وإبتسامته الخبيثة فازدريته بنظرات حارقة من وراء برقعي إلى ان قال لي بصوت أجش:

– ألن تنزعي برقعك يا غيداء المساء؟

رمقه الأنهد بنظرات حادة قائلاً له بسخط:

– ويحك ألم أقل لك يا مسعود بألاّ تتفوّه بكلمة؟

تلعثم الرجل، ثم تنحّى من أمامي قائلاً بصوت خافت أثبت خضوعه لسطوة الأنهد:

– عذراً أيها الأنهد فما هي إلاّ مداعبة فقط.

أمسكَ الأنهد بيدي دون أن ينظر إليّ، كما لو أنني طفلته الصغيرة وجذبني بقسوة مفاجئة إلى حيث الغرف الغامضة، ثم أزاح بيده الباب الحريري لإحدى الغرف قائلاً لي بحدة:

- أنظري.. حدّقي بهما ملياً.

فنظرتُ بلهفة وفضول إلى أمرأتيْن من أترابي مُستلقيتيْن على بساط الغرفة، وترتديان ثياباً من الديباج الأحمر والأصفر لا تكاد تستر عريهما الفاضح.

الغريب في الأمر أنهما لم تفزعا من عنوة الأنهد بل حدّقتا به بشيء من الوقاحة والفُحش وفتنتهما البارزة، ثم جذبني من جديد بقوة يده إلى غرفة أخرى وفتح بابها، فإذا بامرأة أخرى ذات جمال أخّاذ وحُسن فاتن بيضاء مُورّدة الوجنتيْن يكسوها شعر حريري أسود وفتنة طاغية، فنظرتْ إلى الأنهد بفزع وخوف ثم كوّمت نفسها ساترة جسدها بغطاء سريرها، فرمقها الأنهد بقسوة للحظات ثم أشاح بنظره عنها وألقاه عليّ بقسوة أشد وصرخ قائلاً:

- مسعود.. أنتَ يا مسعود.

أجابه الذي إسمه مسعود من باب غرفته:

- نعم وكرامة.

سأله الأنهد وهو يُحدق بوجهي:

- ما إسم هذه الفاتنة؟

- لمياء.. فإذا لم ينلْ رضاك الإسم فسمّها صُبابة.

ثم ضحك ضحكة كريهة فظّة لا تليق إلاّ بقبحه، ثم سأله الأنهد من جديد دون أن يُشيح بنظره عني:

- وما ثمن هذا الجمال الآسر؟

- هي لك دون مقابل أيها الفارس.

سأله الأنهد بصرامة مرة أخرى:

- كم ثمن هذه الجارية يا مسعود؟

فأجابه بحزم:

- بمئتيْ درهم.

لم أدرك شيئاً للوهلة الأولى، إذ إرتجفتُ مُتألمةً من قسوة الأنهد وحدته العجيبة الغريبة، وإنتابني الخوف والذهول لا ألوي على شيء أمام هذا المكان وصاحبه.

ضاق صدري..

وإختنق صوتي بُغصّةٍ حارقة، وتلبّدت سمائي بسُحب البكاء، إلى أن أوشكتُ على الإنهيار عند قدمي الأنهد عندما أدركتُ أخيراً بأنني فيما وصفته لي رقية وحدثني عن ذله الأنهد، إكتشفتُ أن هذا المكان ما هو إلاّ خانٌ لبيع الجواري وما آلمني أكثر هي مباغتة الأنهد لي بهذا المكان المُوحش وإنقضاضه الشرس على سذاجتي وسروري بمرافقته إلى تيماء.

قطعَ عليّ ذهولي ورعشتي إقتراب صاحب الخان مني، فاختبأتُ بسرعة وخوف وراء الأنهد، فقال ضاحكاً

- ما بالك يا جارية مُلتاعة خائفة؟ ألن تَبيعُها لي أيها الأنهد، فإنها والله بهذا القوام الفارع والممشوق تساوي ثروة.

فلطمه الأنهد فجأة على وجهه بقسوة:

خسئتَ يا ابن الخرقاء.

ثم جذبني الأنهد من جديد من أمام باب الجارية المذعورة، وأنا في معمعان خوفي وآلامي إلى خارج الخان على عجل، لنعود أدراجنا دون أن ننبسّ ببنتِ شفة قد تشي بوجودنا معاً في طريق أدركتُ فيها أنه قد أثبتَ لي أخيراً ما كان ينهاني عنه، حيث أقحمني على حين حقيقة في ظلام الجواري.

لقد أراد لي أن أشعر للحظات معدودة بمذلّة الحريم ورُخص نفوسهن وأجسادهن، أراد أن يعاقبني على ما عقدتُ العزم عليه، لم يمهلني بل إنقضّ عليّ في أزقة مدينتي الأولى كاشفاً مصيري بخان حريم ذليل عابر، رأيتُ فيه أترابي محشوات بغرف التجارة الرابحة بأعمارهن وأجسادهن المسلوبة، لا بل رأيتُ نفسي، رأيتني أرتعش وأبكي من شدة خشونة حرير لم يكن يوماً لي.

نعم، هذا ما سعى إليه الأنهد، أن يثبت لي بأن دربي لعنة ومصيري لعنة ومسعاي لعنة لعناء.

عُدنا على وجه السرعة..

وإلتياعي وإنكساري إلى خيام قافلتنا الصغيرة، لم يقترب مني أو حتى أن يجرؤ على الحديث معي أثناء العودة.

وما أن وصلنا وأوْدعني إلى أبي عمرو حتى إنصهر في دأدائه ولكزها بقسوة، فانطلقتْ تسابق الريح مُخلّفة وراءها سحابة حزن وغضب لم أعهده فجراً بالأنهد.

أناخ أبو عمرو بعيري وأنا اتتبعُ بعيني الدامعتيْن أثره الآخذ بالبُعد والتبدد، هو الذي لطالما فضّلَ هجير الصحراء لإلقاء همومه وأحزانه فيه.

هرعتُ إلى خبائي..

وسط دهشة وحيرة أبي عمرو دون أدنى همسة أو تحية، إذ كنتُ على وشك الموت إختناقاً وقهراً، يا إلهي ما الذي فعله بي الأنهد؟

إنفجرتُ في نوبة بكاء حارقة جارفة، أجهشتُ بخفوت حتى عصفتْ الصحراء حزناً على حالي، فقد أصابني الأنهد في صميم عزمي ومشارف وصولي وتوطئة حلمي.

لجأتُ إلى فراشي الصغير، ورجوته نوماً يُزيح عن صدري صخرة الأنهد البائسة فاستجاب رأفةً بحالي وإرتجاف جسدي، وغفوْتُ.

وفي نومي لم أُقْلع عن النحيب بل أمعنتُ فيه حتى باتَ أنيناً جارحاً.

-4-

في المساء..

إستيقظتُ مُبلّلةً بعرق رعشتي وبكاء قهري على صخب مجلس القافلة الليلي.

تململتُ في فراشي وتذكرتُ بلحظةٍ واحدة أحداث هذا اليوم الصارخ بالحزن والخسران.

تذكرتُ الأنهد ومباغتته القاسية لي، فعدتُ إلى معهود بكائي، بكيتُ بصمت، يفترسني العجز واليأس إلى أن تعبتُ من الخواء الذي إحتلّني ومنعني

عن الشرود بخواطري ونفسي المفجوعة، فكل ما حولي كان سوادا وعواء ودخانا ودماء صدئة، فهربتُ من الدمع إلى الإصغاء إلى أحاديث المجلس.

إذ إنسقتُ إلى مطالع حكاية أبي عمرو التي بدأ في قصّها لتوه داخل أجواء من حسن الإصغاء والإنتباه إليه هو البارع في مجالس الروايات والحكايات العربية العتيقة:

- وأما يوم "ذي قار" فقد كان آية العرب وإكليل إبائها وعزتها، وما يزال حتى يومنا هذا مثار فخر يصدح به الشعراء ويتزين الأمراء.

ومن كان منكم حديث السنّ والعلم فليعلم أن ذلك اليوم العظيم قد إندلعتْ حربه بسبب امرأة عربية حرة الأصل خالصة النسب، إذ كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة صاحب منعة وسيادة في ذلك الزمان، وكان موالياً لكسرى ملك الفُرسْ ويُقدّم له الهدايا مُتقّرباً منه ساعياً وراء حظوة الملوك وحمايتهم، وقد علم كسرى في دلال أيامه وعزة سلطانه وجشع أنفاسه، أن للنعمان بنتاً فائقة الجمال فصيحة اللسان رشيقة القوام، وأميرة بنات العرب في ذلك الزمان، فطمع بها كسرى وأرادها زوجة له في قصر حريمه، إلاّ أنه وكما تعلمون فإن العرب لا تُزوّج بناتها ولا تُعكّر صفو ونقاء دمائها بالعجم مهما سما قدرهم وعلتْ منزلتهم.

ولما علم النعمان بأمر كسرى أخفى إبنته الحسناء والأميرة الهيفاء لدى حلفائه بني شيبان، ثم مضى قدماً نحو كسرى يسعى في لقائه لكي ينال رضاه ويُبدد سخطه بهداياه وكنوزه، إلاّ أن الفُرس بطبعهم غادرون آثمون، حيث غَدَرَ به كسرى وقتله تحت أقدام فيله العظيم، ثم بعث رسله مُحملين بالذهب والهدايا إلى بني شيبان حيث علم بإخفاء النعمان لإبنته لديهم، فرفض بنو شيبان إرسال الأميرة لكسرى يدفعهم في ذلك شرفهم وعهدهم الذي أبرموه مع النعمان، فهددّهم كسرى وتوعدهم بالقضاء عليهم عن بكرة أبيهم.

إلاّ أن العرب قد علمتْ بحادثة النعمان، فأخذتْ الحمية تتصاعد والشرف يتزايد، ورُصّتْ الصفوف رصّاً، وتجمعتْ العرب متوحدة منضوية تحت لواء واحد دفاعاً عن شرفها وحرائر قومها، وإلتقى الجيشان في موقعة ذي قار، وهُزم

الفرس هزيمة نكراء ورُدّوا إلى أعقابهم خائبين مثخنين بسيوف العرب ورماح فرسانها..

غبتُ عمّا تبقى من هذه الحكاية العظيمة التي لم تُلقَ إلاّ على مسمعي ومن أجلي، إذ هي لم تخالف يومي ورحلتي ومصيري.

نعم، فمن أجل امرأة حرة ثارت العرب وهزمتْ أعتى جيش في ذلك الزمان، في سبيل امرأة واحدة، فكيف بي أنا؟

ألستُ حرة أيضاً

ألستُ عربية مُسلمة حرة فمن يثور من أجلي؟

أنا التي سبتني في ظهيرة بلدتي راية سوداء، والله ما كنتُ أعلم بأمرها، لدرجة أنها لم تزل حتى الآن تقسو علي وتخنقني لتستحوذ عليّ لعنة لا رادّ لها في جذبها لي نحوها.

أنا صعلوكة زماني..

وعنترة النساء..

وعُروة الجمال..

لم أنعمْ بعباءة فارس الصحراء، والله ما شعرتْ بإستعادتي لأنفاس حريتي في أرجاء قبيلته، إذ ثمة ما إنكسر في داخلي، وثمة ما إنغَرس بعمق في نفسي لينبثق تمرداً وناراً حرقتْ أعوامي السبعة عشر.

صوتٌ صارخٌ في حلمي قال لي لا تعودي إلى الطين، لا تعودي إلى أمك بما أصابتك به الراية السوداء من عار السبي:

صرخ بي الصوت: ستظل اللعنة تلاحقك، ستذوين في بيت طينك البائد، إن عُدتِ بثياب حريتك الممزّقة، فتقدمي إلى مقدمات قدرك، حيث المكتوب والمحتوم الذي سيحلّ عليك بعد قليل هناك..

هناك في بلاد القصور وسادة الدهور والأمور.

أنا التي أزلتُ عني رجسَ سذاجتي كما أزلتُ ذُلّ ثيابي البالية، وإرتديتُ في الصحراء ثوب فصاحتها، وتحدثتُ بحديث بصيرتها وإرتويتُ من ينابيع فطرتها وإتّشحتُ بظلالها وإستمدّيتُ دفء الحكمة من أحضان رقية التي قالت

لي: "العلم شرفٌ من لا قدر له، والأدب مالٌ لا خوف عليه".

فنضجتُ على وجه الحزن وحاجتي إلى إنتزاع حريتي وكرامتي من الذين قضوا على براءتي وإنتهكوا يانع عمري، فكيف أرتد الآن وأنا بفارع جمالي وظلّ أحلامي مُتوجةٌ بحكمة الصحراء وصدق بصيرتها، كيف أعود وفارسي الأبهى بعد أن أنعم عليّ بغَدَق عشقه المكتوم قام بقذفي في لُجّة جناح الحريم قائلاً لي: هذا ما تسعين إليه.. هذا ما ستعاقبين نفسك به.

ما سيذلّك ويُهينك فهنيئاً لك إذن يا جارية.

كان مبتغاه الأسمى إيقاظي وأن أُدرك ما سأُحدِثُه من كوارث وآلام ستلمّ بي فيما عزمتُ على القيام به، لقد قالها لي في القبيلة.. أنتِ حرة.. لستِ سبية أو جارية، أنتِ حرة وسأردك إلى أسرتك سالمة غانمة، ولكني ومنذ أن حُبستُ في مخزن الجيش العباسي وأنا طفلة ملعونة مسلوبة، وعندما منحتني القبيلة أمانها وبركاتها رحتُ أسابقُ الزمن وأختبر ما بين خيمة وأخرى، وما بين رقية والأنهد ذلك الإنجراف الهائل المشتد داخلي ساعياً إلى جذبي نحو إحقاق الحلم ورأب الصدع صدع روحي.

وها أنا على مشارف الظلم والحلم والحرير المرير لن أعود، لن أرتد أبداً رغم ما أدماني به الأنهد من حقيقة جارحة.

هائمةٌ في حكاية أبي عمرو ألوذ بفراشي، إذ اعتورتني مجدداً آلام هذا اليوم المريع الحافل بالمفاجآت والسخريات. وغفوتُ تحرسني عتمة خبائي وضيقه الذي أصبحتُ أُحبّذه داخل الصحراء الشاسعة، غفوتُ بعد أن تغلغل بي حدس غريب وهمس بأرجاء نفسي المرهقة:

نامي بدعة وأمان يا أميرة حلمك نامي.

أستيقظُ ..

نعم، أستيقظُ على حضوره الفجري، فلم أعد أُفاجأ أو أُدهش من زياراته الخاطفة هذه.

أتكوّمُ على نفسي في فراشي، وأنا أنظرُ إليه هو الجالس في باب الخباء مُسنداً ذقنه على ركبتيه مُحدقاً بي.

أُزيلُ أثر النوم عني دون أن أضع برقعي على وجهي، تسودُ لحظات من الحيرة والصمت المُهيب، ثم يفتتح هوالحديث بصوتٍ مخذول ببُحّة حزن خافتة:

- لقد كنتُ أعلم كل شيء.. وأدركُ مسبقاً أن ما قمتُ به بالأمس ما هي إلا محاولة يائسة سعيتُ من ورائها إلى ردّكِ عن غيّك، فوالله ما كنتُ أقصد الإساءة ولا القسوة بل إبانة ذلّ ما أنتِ مقدمة عليه..

أقاطعه بخفر:

- وما الذي كنتَ تعلمه أيها الفارس؟

يزفر قائلاً بحرارة:

لقد أعلمتني الجدة بلقائك بها، لقد قالت لي ما دفعني إلى الإكتراث لأمرك، ولقدرٍ مكتوب لا رادَّ له ولا رجعة عنه..

أقاطعه بلهفة وخشية هذه المرة:

- وما هو قدري ايها الأنهد أجبني بالله عليك؟!

يرفع رأسه ويُحدّق بي للحظات ثم يقول:

- لم تَبُحْ لي به.. فكل ما أوصتني به هو رعايتك والإستجابة لرغباتك، وأمرتني ألاّ أكون عقبة في طريقك، ولكني عصيتُ أمرها حين إصطحبتك بالأمس إلى سوق الرقّ لكي تري الجواري وذُلهنّ، إلاّ أني قد أيقنتُ...

يزفر بحرارة أنفاسٍ تلمسني فيقشعرُ لحميميّتها بدني في ظلّ إصغائي التام لحديثه، ثم يُردف:

- لقد أيقنتُ أن ما قالته الجدة ما هو إلاّ الصواب العجيب والغريب.

يمسك عن الكلام، ثم يفركُ وجهه وعينيه بكفيه للحظات، وأنا أُحدق به بذهول تام عاجزة عن الحديث أو التعقيب على كلامه، إلى أن يرمقني بنظراته الحادة ثم يقول بحزم:

- لنا قدر أوتار العود يا جارية، لا تلتقي بل تتلامس من بعيد لتطرب القلوب بفراقها الأبدي الحزين.

أساله بريبة:

- ماذا تقصد؟

يردف كما لو انه لم يسمع سؤالي:

- هذا فجرنا الأخير معاً لن أواصل الطريق...

أقاطعه بحدة:

- ماذا؟! أتخذلني الآن..

ينهرني بصرامة:

- لقد رافقتك حتى منتصف الطريق وأكثر، وأما ما تبقى منها فهو حافل بالمخاطر ومزدحم بقوافل الجيش العباسي، فالمنصور جُنَّ جنون عرشه في وأده وإستئصاله لفتن الخوارج والعلويين في الحجاز، وحتماً فإن قافلة في غرابة قافلتك ستُثير ريبة وشكوك أي سرّية جند عباسية قد أصادفها، ولهذا فإن جدّي أبا عمرو سيرافقك فيما تبقى من رحلتك إلى الكوفة...

يُمسك عن الكلام إثر إختناقه من خاتمته المؤلمة، ولكني لا أرحمه بتخلّيه عني في منتصف الطريق:

- لا.. لا.. بل بعني في الخان الذي أخذتني إليه أمس...

يقاطعني بصرامة:

- ماذا؟!َ

- بلى.. أريد أن تبيعني فيه أنتَ بالتحديد.

يربدُّ وجهه، ويُشيح بنظره عني ثم يسألني بسخرية مؤلمة:

- بكَم يا جارية؟

أجيبه بلا تردد، وبسرعة تامة اتجنّب من خلالها مرارته وآلام سؤاله:

- بسبعة عشر درهماً من الفضة، لكل سنة من عمري قطعة من الفضة.

يخذلني صوتي بُبحّة مريرة، فأختنق وأوشك على البكاء.

يُجيبني بسخط:

- ويحك أي قسوة إستحوذت عليك، وكيف.. كيف ستصلين إلى قصر الخليفة؟!

- بمشيئة الله وقضائه وإيماني بقدري.

يتملكه غضب عارم من تماسكي المفاجئ وسرعة إجاباتي في حضرته، ثم يقول:

- لا والله لن تفعلي إلاّ بما تعهدتُ وأقسمتُ أنا على القيام به للجدة، ولهذا فإنّي سأعهد إلى أبي عمرو أمر إيصالك إلى الكوفة، وهناك سوف يبيعك..

يتوقف عن الحديث للحظات ثم يزفر بحرقة:

- بسبعة عشر درهماً كما شئتِ أنتِ.

أشعرُ للحظة بأنه يوشك على غمري بعباءته، أن يصفعني على وجهي لكي يوقظني من كابوسي، إلاّ أنه يهمُّ بالإنصراف على مضض وحسرة.

فأستبقيه بسؤال مباغت لطالما أرَّقَني في فجره:

- دونك أيها الأنهد.. فمن تكون لك رقية؟

يضطرب من حدة السؤال، يسعى إلى إستعادة حضوره المُهيب أمامي، ثم يقول بخفوت مبحوح:

- رقية خيمتي.

أسأله بسرعة ولهفة:

- وأنا؟

- أنت صحرائي البِكْر التي أقيمُ فيها و... أموت.

يهزني بإجابته، فأسأله من جديد بذات اللهفة وعينين مغرورقتيْن بالدمع:

- والعشق؟

يدنو مني داخل الخباء الضيق ثم يقول بهمس،

- "ألا ما الهوى والحب بالشيء هكذا يـدلُّ بـه طـوْع اللسان فيُوصف

ولـكـنـه شـيء قـضـى الله أنـه هو الموت أوشىء من الموت أعنف

فـأولـه سـقـمٌ وآخـره ضنى وأوسـطـه شـوق يـشـفّ ويتلف

وروعٌ وتسهيد وهـمّ وحـسـرة ووجـدٌ على وجـدٍ يزيد ويضعف"

ينتهي من شعره الرهيف، ثم يدنو مني أكثر وهو يزحف بسبب ضيق الخباء، يلفعني بأنفاسه الدافئة العطرة، يُشرف وجهه على الإنصهار في وجهي، تتعانقُ أعيننا الحزينة للحظات، يطبعُ قبلةً على جبيني على مرأى الفجر ثم يمسك ببُرقعي ويضعه على وجهي، ثم يعود إلى الوراء متقهقراً، ثم يمضي مع أولى دفقات النور الصباحية.

لا أستوقفه..

لا أتوسّلُ إليه أن إنتظر فإنّي والله أُحبّكْ وأحب حريتك وعباءتك لا.. لا.. ولا أبكي..

فخاتمة الفجر هي قُبلةُ الصحراء السرمدية..

وأما قِبلَتي أنا ابنة الحلم وجارية الظلم فهي الآن شرقية..

شرقية الحلم والحق المبين...

* * *

الفصل العشرون:

أميرة السواد الأعظم

يا خيزران هَناكِ ثم هَناكِ
أَمسى يسوس العالمين إبناكِ

لفّها القصيد وإحتفى بها شعراء الزمن العباسي، ونظموا إسمها الذي لا مثيل له في مطالع عهدها الجديد، إسمها الشجري الذي يمتاز بالطول الشاهق ودقة المتانة وسرعة النمو المباغت وقلة الأزهار، إسمها الذي لا يصلح إلاّ لصنع رماح الحرب والعرش والسلطان والظلّ الرفيع الذي لا يتّسع إلاّ لهارون واحد.

فما الذي حدث؟ ما الذي لم تُحدثه هي بعد؟

إذ هو الحلم قد إمتد وساد حقيقة مُجلّلة بعباءتها الظليّة التي إتّشحَ بها قصر الخلافة، وإستلقاء جسدها العامر بعافية الرضا في فيْء سُدرة مشتهاها.

في يوم الحكم..

نظرتْ من حالق حلمها نحو موكب الخليفة الذي صلىّ لتوّه على أخيه صلاة الوداع والموت الليلي، ليزدان بلآلئ وقتها وبهجة أمانيها، رأت من أنجبته من شغف وعزيمة لا تلين يمتطي صهوة الخلافة مُتقدماً في دار السلام بغداد السلطان واثقاً شامخاً في دروب بركاتها ولعنات ظلها التي إشتدتْ ونزلت جهنماً على خصومه.

ما الذي لم يحدث؟

لم تعدْ تذكر الأسى وتطيّبها بالحزن وخذلان الحرير لها، فالمشتهى قد حلّ عليها الآن بقسم الدماء ومواثيق البراءة وهلاك الحرير والسرير، فكل ما أُهرق

وسُفك وأُنتهك فيها لم يذهب هباءاً منثوراً على جسدها البالي، زُلزلتها وخرابها وأسرتها الذاوية ونحيب أصلها وذُلها وإذلالها وإقتفاء الموت المدبر لأثرها، كله.. كله يحتشد الآن متحلقاً حولها ساجداً لهيبتها: سمعاً وطاعة يا مولاتي.. نعم وكرامة يا ام المؤمنين

ما الذي حدث؟

بالأمس.. لُهاث الأمس ما لا تسمعه ولا تكترث لآثاره التي لم تعد تستحق الذكر ولا الآلام الليلية، ما حدث قد حدث، فهو ما إنكشف وتجلّى من مخبوء لطالما هربت منه ولكنه بالنهاية وعندما تشبث بها السمّ الزعاف، إنتفضت، لم تعد تذكره وتحلم به، حتى كوابيس تتعربش عليها وتخدشها لم تحاصرها، فماذا تخاف عندما تشعر بأن ما حلّ بالأمس كان حقها وحقيقتها ونور ظلها الساطع، فلماذا تتذكر وهي تحدق الآن في موكب إبن العشق والحق وجدوى رعشتها وشظايا روحها هارون خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، لماذا تتألم وهي تُشرف على مجريات القصر وعرش إبنها لا يفصلها عن الرعية سوى حجاب عجزت عن إزالته ومحقه، فتحايلت عليه بإخضاعه لمشيئة حلمها في دهر ما نالته وحقّقته فيه لم تنله امرأة في مثل مصيرها وآلامها، فاكتفت.

نعم.. الآن يحق للإكتفاء أن يداعبها، أن يراقصها فما الذي كانت تسعى إليه أكثر من هذا؟، لا شيء.. لا شيء بعد إحاطتها لهارون برعايتها وتدثيره بعباءتها.

هارون الذي أخذ منها فارع الطول وعينيها السوداوين والطّلة البيضاء البهية والمكتسية عمراً لم يتجاوز الإثنتين والعشرين عاماً، كانت قد برعت فيها الخيزران بتربيته في مجلسها الساحر على حقه الشرعي، وقصائد حكمة لطالما غناها له يحيى البرمكي، فترعرع ما بين الرقّة الناعمة والثورة العارمة تأتلف به القسوة والرقة في نسيج قوي نَدَرَ وجوده داخل البيت العباسي، لم لا وهي أمه الآتية من أوجاع العتق العربي وطيات مجهوله، هي التي قالت له في مطلع حكمه الرشيد إثر إستردادها لمعهود حجابها وحدة بصيرتها:

- يا أمير المؤمنين لقد سمعتُ جدك المنصور يوصي أباك المهدي قائلاً له:

"إذا مدّ عدوك إليك يده، فاقطعها إن أمكنك، وإلاّ فقبّلها".

وسمعته أيضاً يوصيه في آخر عهده:

"إحفظْ يا بني محمداً صلى الله عليه وسلم في أُمّته، يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام، فإنه حوْب[1] عند الله عظيم وعار في الدنيا لازم مقيم، والزم الحلال، فإن ثوابك في الآجل، وصلاحك في العاجل، وأقم الحدود، ولا تعتدِ بها فتبور، فإن الله لوعلم أن شيئاً أصلح لدينه، وأزجر عن معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه، واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه، أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً، مع ما إدّخر له عنده من العذاب العظيم، فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

كان في حضرتها طفلها الوديع الذي لا يتوانى عن الخضوع لمشيئة أمرها وشغفها المُستعرّ به وبسلطانه، فكان بلقائه بها لا يقوى على مواجهتها بعينيه لشدة تحديقها به والسطوَ عليه بهالة وجهها المهيبة والعصية على الهرم والخريف، كان على يقين راسخ بان سُدّة حكمه وتربعه عليها كان قدراً نُسلتْ حبائله من عباءة أمه، ليتحاشى في لقاءاته بها الحديث عن أخيه المرحوم موسى الهادي خشيةً من ثورتها العارمة وسعياً منه وراء إفناء ذكرى ما حدث، فهو لم يُحبّذ ما يؤرق هنيئ عرشه ونعمة أيامه، فآثر المضي في طريقها هي التي تجاهلت ودفنت في قبر النسيان كل ما حدث داخل تاريخها الحريري بالقصر، ولكنها لن ولم تنسَ من أساء لولدها وأذلّه وسعى إلى إقصائه عن حقه المشروع قائلة له:

– إن غفرتَ فلا تغفر للذين تجرؤوا على مسّ سموّك، فاحجبهم يا بني عن حاشيتك فبحجبك لهم تشتد هيبتك وتسود عزتك وتسمو بك نفسك.

---

(1) الحوب: الإثم.

(2) المائدة: 33.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

سألها:

- أيُهمْ يا أماه؟

دنت منه وهمست بأذنه:

- كل الذين أذوني وفجعوني برؤيتك مُغتّماً خائفاً، ولكن دونك يا بني الحقد الأعمى والشماتة وإذلال ذوي القربى فلم يكن ذلك دأب أبيك رحمه الله.

فلم يتردد ومضى قانعاً واثقاً ببصيرتها ليعزل الذين أمعنوا بالشقاق والنفاق ما بينه وبين أخيه موسى الهادي، فكان إنتقامه عاصفاً سريعاً في جوهره وهادئاً سلساً في ظاهره، حيث أقصى عن حاشيته وزير أخيه الفضل بن الربيع، دون أن يؤذيه لما كان لأبيه من دور هام في إيلاء العهد لأبيه المهدي يوم وفاة المنصور، فحفظ له صنيع أبيه بإبقائه على قيد الحياة شحيح الجاه والمال، كما حجب قواد الجيش الذين ساندوا أخاه وحرسوا عزمه البائد بما مارسوه بالخفاء من دهاء أدّى إلى ما أدى إليه من عداء الأخوة، إلاّ أن ثمة إنتقاماً وحيداً صاخباً وعنيفاً ثأر به من امرئٍ دنيء المقام والنسب لم يُصب في عمره القصير سوى إذلال هارون على مرأى ومسمع الرعية والدولة في عهد أخيه، نعم لقد أعدم صاحب الشرطة "أبا عصمة" الذي منعه عن الطريق حتى يجوز أولاً إبن أخيه الصغير جعفر، إذ لم يغفر هارون الرشيد تلك المهانة ولم يتردد لحظة عن فصل رأس أبي عصمة عن جسده ليرتاح من آلام جرح قد إلتأم أخيراً بإزالته لحاشية أخيه وآثاره، كان ثمة أنين ملعون تتردد أصداؤه في أرجاء نفس هارون إثر إنتقامه وإشفاء غليله، لكأنّ شهوة أمه قد نالت من فؤاده، ولكأنه سُرّ سروراً خفياً بذلك، فما الذي يكترث له الآن؟ إذ هو الخليفة الذي لم يحفل سواه ويهنأ بأمٍ كالخيزران التي لم تبح له بأهم وصايا جده المنصور لأبيه المهدي حين قال له:

"وباشر الأمور بنفسك، ولا تضجر ولا تكسل ولا تنم... فإن أباك لم ينمْ منذ أن وُليّ الخلافة".

إذ دفعته مُتذرعة بحداثة عهده بالخلافة، إلى أن يُولي أمور العباد والبلاد لوزيره السند الأدهى والأقوى يحيى البرمكي، ففعل دون أدنى تعقيب أو تردد قائلاً ليحيى:

- "يا أبتِ.. قد قلّدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي فاحكم بما ترى".

سُرّتْ الخيزران بإقدام هارون على ما زّينت له القيام به، فهي لم تفعل هذا إلاّ بعدما أيقنت أن يحيى عبدها السرّي وخاتم أصبعها العاجي، الذي كان يتعشّق عباءتها عاجزاً عن الإبتعاد والتحرر من سطوة هالتها الفاتنة.

كانت تدرك بأنه وبكل ما يتمتع به من ذكاء ورجاحة عقل وحكمة قادر على حراسة هارون وحمايته من خناجر الغدر المسمومة وهمس الفتن وعتمة الخديعة، وبمنحه لخاتم الوزارة كانت الخيزران تهدف إلى تقريب العرش منها أكثر من أي وقت مضى على يديْ يحيى البرمكي الذي لم يخضع لأحد سواها في إدارة شؤون الخلافة، حيث لم يكن يشرع في أمر أو يخوض في شأن أو عزم دون الرجوع إليها في حجابها الشاهق.

لقد أخضعت العرش ليحيى وأخضعت يحيى إليها وأما هي، هي لا تخضع لمشيئة أحد سوى حلمها التي نجحتْ من خلاله أخيراً بأن تصبح امرأة مُستترة بحجابها تحكمهم، تحكم البيت الذي نبذها وأذلّها عندما كانت جارية، وخضع لمقامها وهيبتها عندما أصبحت سيدة حرة أنجبت للبيت العباسي خير الخلفاء وأعظمهم سلطاناً وتاريخاً، فمن ذا الذي لا يلين في وجه عزيمتها التي لا تلين فهي زوجة الخليفة وأم الخليفتيْن ومعجزة دهرهم المُحتجبة.

-2-

وفي أجواء من عهد الخليفة الجديد الذي نأى بنفسه وهنائه عن هموم البلاد وشؤون العباد ليتمتّع بما أغدقتْ عليه أمه من حنان السلطان ومُتع الزمان، لم تنقطع الخيزران في لحظات عمرها المديد عن الإجتماع الظلّي بمُسيّر أمور الخليفة والخلافة يحيى البرمكي.

ففي إحدى أمسيات لقاءاتها به قالت له:

- يا أبا الفضل إن الرشيد قد نشأ وترعرع على سديد حكمتك ووافر علمك، وهو ليس بمنقطع عن رعيته لينغمس في ملذات نفسه، بل منحكَ ثقته ومَنّ عليك بإيلاء الأمر إليك، فلا تغفل عن شؤون عرشه ولا تغرّنكَ

الطمأنينة الواجبة التي لا تـ ـتل محل الثقة الغالية.

سألها بإستغراب وريبة:

- وما الذي يدعو مولاتي إلى قولٍ كهذا لا يسرّني منه سوى مطلعه؟

ومضتْ عيناها لتضفيا على برقعها المزيد مـن الفتنة على حضورها المُهيب ثم قالت له:

"ليس الغبي بسيدٍ في قومه   لكن سيد قومه المتغابي"

إقشعرَّ بدنه واحمرّ وجهه كما لو أنه أدرك مرامي قصدها ثم قال:

- والله ما خضتُ يوماً بأمرٍ دون مشورتك؟

ثم أمسك عن الحديث حين شعر بإبتسامتها الحادة من وراء برقعها إلى ان قالت هي بإنشراح:

- ما قصدته يا أبا الفضل هي فتنة العرش وإيغار الصدور بالضغائن، فهمسُ الحاشـية لا يدفعه إلى النشـوء سـوى الحسـد والغيرة، وما حظيت به أنت فـي عهـد ولـدي لـم يحظ به أبـوك أو أي وزير آخر فـي عهديْ المنصور والمهـدي رحمهمـا الله، وهـارون أطال الله بعمره ليس بمعزلٍ عن تدبيرك وحكمـة سياسـتك وأثرهـا على من يُحيـط به من الذين يغارون منك ومن بنيك.

رفع رأسه ورمق سوادها ثم قال لها بصوت خافت:

- لقـد أصبـتِ وصدقـتِ يا مولاتي فهـذا ما غفلتُ عنه أنا في خضمّ وزارتي ولـم آبه به لإتكائي على ثقتك وأمير المؤمنين بي وبحسن تدبيري...

قطعتْ عليه حديثه قائلة بحزم:

- إن الفضل بـن الربيـع مـا زال هنـا يا يحيى، ولـم يحجبه هارون كما يجب عـن الحاشـية، وأنـت تعلـم مقـدار ما يتمتـع به من دهـاء وبراعة في دسّ الضغائـن فـي الصـدور، فاحـذر وأصخ السـمع لهمسـه الخبيـث فإني قد نجحتُ بحرمانه من المقام الرفيع والشأن العظيم في هذا القصر ما دمتُ أعيشُ فيه، إلاّ أني ما زلت أشـعرُ بسـمّه وخبثه في أروقة العرش فاحذر منه.

إنتاب الجزع يحيى لا من الفضل فقط، بل من سطوتها البالغة عليه لدرجة أنه كان يتبعثر أمامها وينقلب حاله من وزير حكيم إلى صبي غرّ لا يملك من أمره شيئاً سوى الإصغاء لتعاليم وأوامر أمه، ليشتد في حرصه وفطنته إثر أجتماعه بها.

إذ ورغم خبرته الواسعة وبالغ معرفته بواقع البلاط ونواياه الخفية والخبيثة إلاّ أنها فاتته هذه المرة، فاته مقدار الإنتقام العباسي الذي يثور فجأة دون سابق إنذار في لحظة تعجُّ بالوشايات والفتن ليقتل أقرب الناس إليه مُنكراً متناسياً أفضالهم عليه وتضحياتهم في سبيله، غفل عن لؤم البلاط الذي لطالما كان دأبه فيما مضى قتل الوزراء، وإقصاءهم عن متن الحياة لأتفه الأسباب والوشايات وشهادات الزور، غفل البرمكي لأنه كان يسير بخطىً ثابتة واثقة بمخاطبة هارون له بيا "أبتِ"، إثر أواصر المحبة والصداقة العميقة التي أنشأتها الخيزران ما بين أسرتها المهدية والأسرة البرمكية، فهارون وجعفر كانا أخوين بالرُضاع وترعرعا معاً صديقيْن وفييّن في ظلال القصر، والأهم من ذلك كله أن هارون ومنذ نعومة أظفاره وهو على قيد أدب وحكمة البرمكي، وهذا ما كان يعتمد عليه هذا الأخير ويسعد به غافلاً عما كان يحدث في محيط الخليفة الرشيد.

يحيى الذي أشتهر بالجود والكرم وحسن السياسة، كان على مشارف الهاوية العباسية لولا أن أقذته الخيزران في اللحظة الأخيرة بحدسها الغريب وبصيرتها الثاقبة، فاشتد وجده بها أكثر، دون أن يرتاب أبداً بحقيقة حجابها، فهي كانت سرّ وجوده الراسخ داخل القصر وهو كان عبد أحلامها الذي لطالما أمرته بشفيف الحجاب.

-3-

ساد الزمان الذهبي مُتربعاً على عرشه الخيزراني المتين هارون، بحسن سياسة أعادتْ إلى الأذهان عهد أبيه المهدي، حيث نَعِمَتْ مطالع خلافته بالإستقرار والرخاء، وزخرتْ بإلتفاف الرعية حوله وإحتفائها به لما أغدقه عليها من رحمة ورأفة وجود وكرم لم يخلُ من غدق الخيزران وحرصها على إحياء

إرث المهدي في ولده الخليفة الرشيد، فاستعادت الدولة العباسية في أوائل عهده أُبهة السلطان والإمتداد في الأرض براياتها السود، فسيدها اليوم هو الفتى الشجاع الذي حاصر ذات غزوة بلاد الأعداء القسطنطينية، سيدها وابن من كانت جارية فمحظية فسيدة حرة فأم المؤمنين وأميرهم.

ورغم إزالته لمعظم آثار أخيه من قصره، إلاّ أن ثمة آهة بقيت عالقة بدمه، بهاوية سحيقة داخل أعماق نفسه، حسرة تأبى الإنقشاع وظلّت تُلبّد سماء عزّته، مذّلة عظيمة أجبره موسى الهادي عليها وعلى حلف الأيمان وكتابة العهود بسبب حلم أخرق كان قد راوده ورأى فيه هارون ينكح محظيته الفاتنة "غادر".

كان هذا إنتقامه الخفي كما كان عاره السرّي الذي لم يبُحْ به لأمه حتى تستتبّ له الخلافة، فكان له ما أراد من الثأر من أخيه وحلمه وجاريته وأيمانه، حيث جاء بالجارية "غادر" إلى خلوة مجلسه الليلي المُؤثّث بالرغبات ورعشات ما هو قادم من حرير.

كان جالساً على أحرّ من الشبق والرغبة، تدفعه إلى التأجج لذة إنتهاك ما أذلّه، أمرها بالدنو منه، ثم جذبها من يدها بلطفٍ وأجلسها في حجره هامساً بأذنها:

- لا تخجلي يا جارية فلن تنعم سواكِ في مجلسي هذه الليلة.

عضّتْ على شفتها ثم قالت بخفر وخوف:

- والعهود والأيمان يا مولاي أأنكثُ بها؟

أجابها بجذل وإنشراح وهو يجسّ نهديْها العارميْن:

- "أُكفّر عنها وأحجّ راجلاً".

فأومأت برأسها بدلال وإغراء ثم إلتهمتْ أصابعه العشر بثغرٍ أطربَ الليل بأنغام قُبله، حيث إرتشفها الرشيد وثمل منها ومن جسد عامر بالجمال والأنين، ولم يتوانَ عن وأد فتنه حتى مطالع الإكتفاء والرضا ونشوة الإنتقام من آخر ما تبقى من أثر أخيه في دمه.

في الصباح..

إستيقظ فزعاً على نشيج غادر المتشبّثة بقدميه، فأزاحها بلطف سائلاً

بإستغراب:

- أتبكين من سرور في سريري أم من ألمٍ ألمّ بكِ؟

- أجابته بمرارة وجزع:

- حلّت عليّ اللعنة يا مولاي... لقد هلكتُ يا مولاي.

أمسك بها من خصرها بكلتا يديه وهزّها بعنف قائلاً:

- ويلك.. ما بك.. أتجزعين من مقامي يا جارية؟

حرّرتْ خصرها من يديه ثم قفزتْ عن السرير فجأة بعُريها العفوي كامرأةٍ أصابها مسّ من الجنون، إرتمت على الأرض قائلة بخوف وصوت مرتعش:

- لقد أتاني في منامي مولاي موسى الهادي غاضباً ساخطاً وهو يجلدني بسوطٍ ناري قائلاً لي:

أخلفتِ وعدي بعدما جاورتُ سكان المقابر
وحَلفتِ لي أيمانك الكذب الفواجر
ونكحتِ غادرةً أخي صدقَ الذي سمّاكِ غادر
أمسيتُ في أهل البلى وغدوتِ في الحور العوائر
لا يهنكِ الألفُ الجديد ولا تدُر عليك الدوائر
ولحقتِ قبل الصباح وصِرتِ حيث غدوتُ صائر

ثم أجهشت بالبكاء من جديد، وأخذتْ تلطم على خديْها، إلى أن قهقه الرشيد بصخب ساخراً من سذاجة حلمها، ثم نهض من سريره ودنا منها، وجذبها بقسوة بعد أن أثارته بعُريها المفترس، ثم كفكف دمعها بجسده الصباحي العامر بالصحة والقوة مُخمداً جزعها بحلمٍ لن ترى فيه سواه.

-4-

أما هي..

هي سيدة الظلال الحرة، فبقدر ما كانت تُولي جلّ إهتمامها في حجابها إلى شؤون العرش، كانت أيضاً تراقب بأعينها الخفية ما يجري داخل القصر

وزواياه المعتمة من بدايات مؤامرات وشهوات أخرى كانت سيدتها "زبيدة" الحرة إبنة الأمراء، وزوجة الرشيد البهية، والتي كان هيامه بها سابقة لم تحدث من قبل لخليفة في زوجته، حيث كانت زبيدة لا تتمتع فقط بالحسب والنسب وجاه الأسرة العباسية، بل كانت أيضاً على قدر وافر من الجمال والبراعة في إغراء الرشيد وإيقاعه في حبائل سريرها وحظوتها لديه، ساعية إلى المزيد من إفتنانه بها يدفعها في ذلك كرهها الدفين للخيزران وغيرتها الشديدة منها، وعزمها الأسمى.

عزمٌ إعتقدتْ زبيدة بأنه مشروع لها، ألا وهو إيلاء العهد من بعد هارون لولده منها محمد الأمين، حيث شرعتْ في إعداد العدة لتحقيق مبتغاها السري من خلال جذبها للذين أبعدتهم الخيزران عن حاشية الخليفة، إذ إلتفّوا حول زبيدة وعلى رأسهم الداهية الفضل بن الربيع، الذي أذلّته الخيزران ولعنته في أرجاء القصر والبلاد.

فهل كانت غافلة أم المؤمنين عن نزعات زبيدة؟

على سيدة القصر وأميرة السواد الأعظم والدهر المقام بشموخ على قواعد عزيمتها وبصيرتها هل يخفى عليها أمر مؤامرة تحيكها زبيدة بهدوء مُتقن؟

داخل ثابت حجابها وألقه غفرتْ الخيزران لزبيدة شروعها فيما رأته حقاً لها ولبنيها، فهي التي إفتتحتْ هذه الدرب الذي لا يعود منها المرء إلاّ جثة مسمومة هامدة أو يمضي إلى نهايتها خليفةً مُفعماً بالعرش، ولكنها لم تغفر لها إستعانتها بالذين أوشكوا على القضاء على حلمها، لن تغفر لها تمادي عزمها الرامي إلى ردّها مُجدداً إلى عتمة الحريم.

لا لن تقبل أم هارون بمزاحمة زبيدة لها في حجابها، فهي لم تُنجب أمير المؤمنين لتكتفي وتهنأ بحكمه فقط، بل أنجبت معه حلمها بالإمتداد المُستتر وإحاطة العرش بأنفاسها وظلالها المباركة.

نعم، لقد كانت تمقتُها الخيزران من قبل، لما تمتعتْ به زبيدة من أصل حر ونسب شريف في الوقت الذي كانت فيه هي تُلملم فُتات أصلٍ لطالما عيّرها بالذل الحرام ومجاعة المهانة، ولكنها اليوم وبعدما أحالت ذُلّها إلى عزة

وظلامها إلى نور وحريرها إلى غشاء رقيق شفيف تُشرف منه على السلطان لم تعد تكره زبيده وتحسدها على مقامها لأنها لم تعد تراها من شدة شاهق حجابها، بل على العكس فزبيدة هي من تحسد الخيزران الآن بغيرة قد تملّكتها ولؤم يدفعها إلى مواجهة سيدة الأمر صانعة العرش فهل ستقوى على ذلك؟

ذات مساء..

دعتها الخيزران إلى مجلسها طالبة منها أن تجلب برفقتها ولدها الصغير محمداً الأمين ذا الأعوام الخمسة وبِكْر أبيه الرشيد.

إرتابت زبيدة من دعوة الخيزران المفاجئة لها، وترددت في تلبيتها بعدما إعترتها الدهشة والخشية من أن تكون الخيزران قد علمت بنواياها الخفية، ولكنها بالنهاية آثرت الذهاب مُتجنبة عواقب تهربها منها، دخلتْ عليها متشبثاً بيدها الأمين الهادئ والوديع، حيّتها قائلة:

- السلام على أم المؤمنين

إنشرح صدر الخيزران من حسن سلام زبيدة، فهي لطالما أحبّتْ بأن تُكنّى بأم المؤمنين إثر نصف تفاحة وعمر قضته وهي أم ولد.

أجابتها بصوت سحري لم يجافِ روعة مجلسها وأجوائه المتلألئة بحضورها وبخورها وتواضع أثاثها:

- وعليك السلام يا زوج أمير المؤمنين.

إحمرَّ وجه زبيدة وظلّت على وقفتها هي وولدها ساعية في كظم غيظها وروْعها بعدما أحسّتْه من إساءة قامت الخيزران بتهريبها في ثنايا الرد.

أردفت الخيزران وهي ترفع برقعها على رأسها قائلة:

- إقتربي يا زبيدة.. وهاتِ لي ولدي الأمين لأراه وأباركه.

كان الأمين مشدوهاً صامتاً كما لو أن مجلس جدته قد ضاق عليه وأخافه من هيبة حلوكه، فأمرته أمه بتقبيل يد جدته قائلة لها بسرور مصطنع:

- هنيئاً لك به وبأبيه يا أم المؤمنين.

غمرته الخيزران وقبلته بحنان صادق، ثم أمسكتْ رأسه بكلتا يديها مُحدقة به بعينيْها اللتيْن لطالما تجنبَت زبيدة مواجهتهما، حدّقتْ به الخيزران بحدة وسط

ذهول أمه التي إقشعرّ بدنها من حلول مظاهر الرعب على هيئة إبنها.

إستمر طقس تشوفها للحظات كما لو أنها رأت في عينيه أجله وقادم أيامه، ثم ختمت تحديقها به بدمعتيْن إنسابتا ببطء على وجنتيْها هامسة بأذنه:

- ويلي عليك.

لينفجر الأمين في نوبة ذعر وبكاء، ففزعت أمه وإستردته من أحضان جدته الخيزران أم المؤمنين التي قالت بحزم طغى على ضجيج الأمين:

- ما بالك منقطعة عن وصالي يا زبيدة أما يتّسع مجلسي لك؟

أجابتها زبيدة بإضطراب وهي تُهدئ من روْع صغيرها:

- لا وربّ محمد يا أم المؤمنين إلاّ أن مجلسك لا يخلو من المواكب وإنشغالك بـ...

قاطعتها بحدة:

أم بإنشغالك بمواكب تقصدكِ ولا تقصدني؟

إعتراها المزيد من الإضطراب والخشية إثر هذا السؤال القاسي، فأمسكت عن الإجابة بتظاهرها بتهدئة الطفل الذي لم يتوقف عن البكاء،

أردفت الخيزران بذات الحدة:

- إكترثي لولدك يا زبيدة وهيام زوجك بك ودعي عنك ما لا تقوين عليه في هذا القصر.

أمسكَ الطفل عن البكاء فجأة كما لو أنه أدرك مغزى كلام جدته، وإرتجفت زبيدة في جلستها إلى أن قالت بصوت خافت متلعثمة:

والله ما إنشغلتُ عن رعاية ولدي وزوجي أمير المؤمنين، وما يقصدني سوى مساكين الرعية ولا أقتفي في شأني هذا سوى أثر كرمك يا أم المؤمنين.

أرادت بإطرائها هذا إيجاد مفرٍ يُنجّيها من مجلس الخيزران ورعب طقسها، فأومأت لها أم المؤمنين بإبتسامة مخيفة ثم أعادت سِتر وجهها الآسر ببرقعها قائلة لها بصوتٍ إكتساه الفحيح:

- ويحك يا زبيدة إن وَجْدَ هارون بك لعظيم وهيامه لمبين فصونيه ليصونك.

خبأتْ في خاتمة حديثها تهديداً خفياً لزبيدة التي إنكبّتْ فجأة على يد

الخيزران فقبّلتها ثم نهضتْ وهي تحتضن ولدها قائلة بإرتباك:

- فلتأذني لي يا أم المؤمنين فالأمين قد غفتْ عينه.

رمقتها الخيزران بوميض عينيها قائلة بصوت شارف على الهمس:

- قد أذنت فانصرفي برعاية الله.

حيث مجلسها العامر بالسطوة وأدتْ فتنة زبيدة ومن لفّ لفيفها بحدسها الحق الذي كشف النوايا الخبيثة والمؤامرات، التي كانت على وشك الإطاحة بوزيرها يحيى البرمكي، ولكن ما الذي رأته الخيزران في عينيْ حفيدها حتى بكتْ وبكى معها.

-5-

مع تعاقب الأيام على عهد الرشيد الذهبي أثبتت أمه الخيزران بأنها هي وحدها من تستحوذ بحضورها وتأثيرها الطاغييْن عليه، وحدها من تنعم بثروة الحجاب وإخلاص وزيرها يحيى البرمكي، وحدها من أثقلتْ على زبيدة بدهاء تدبيرها عندما أبدتْ عطفها وأوْلتْ إهتمامها بحفيد آخر لها من صلب هارون ورحم جارية رومية إسمها "مراجل"، كانت قد أهدتها إليه في عهد أخيه القصير، فأنجبت له مراجل ولده "المأمون" ليلة وفاة عمه المرحوم موسى الهادي، فحظيَ لدى جدته.

إذ هو إبن الجارية أم ولد التي كانتها يوماً، وهذا ما دفعها إلى المزيد من حبه والإهتمام به، فلم تكن تطيق فراقه وأمه عن بركة مجلسها، لدرجة أنها أعادت إلى ذهن صاحبتها خلوب إهتمامها ورعايتها لولدها هارون في مهد عمره البهي ذات مساء عليل من أمسيات مجلسها، عندما كانت تُكحل عينيْ المأمون إبن العاميْن بالإثمد على مرأى أمه الجارية الشقراء الفاتنة، حيث قالت لها خلوب:

- كأنك تستعيدين بهذا الشغف أول عهدك بالأمومة يا صاحبتي؟

فأجابتها الخيزران بإنشراح وهي مُنهمكة في تزيين عيني حفيدها:

- والله وأكثر يا خلوب، فقد أنزل عليّ السكينة والسرور وأزال وحشتي

بمجيئه.

قالت لها أمه مراجل بخفر وبراءة لغتها العربية الركيكة:

- وماذا ترين به يا مولاتي؟

أجابتها الخيزران إثر إنتهائها من إثمد عينيه المزدانتيْن بزينتها:

- أبشري يا مراجل فسيكون له شأن عظيم.

فاندلعت نبوءتها هذه في كافة أنحاء القصر إلى أن وصلتْ أصداؤها الحادة إلى مسامع زبيدة التي ثارت ثائرتها، فأحدثتْ ضجيجاً هائلاً أثبت أكثر من أي وقت مضى أن القصر تسوده أجواء الضغائن والمكائد وحربٍ خفية تدور رحاها ما بين الخيزران وزبيدة.

حيث إنبثقت أشجارٌ من الخبث والرياء والنفاق لم ينعم في ظلالها الرشيد بالهناء والرخاء، إذ إختنق من قصر تلوّثت سماؤه بدخان الفتن المشتعلة في أرجائه، وما بين أمه الحنون وزوجته الحبيبة وعظيم كيدهما آثر هارون النأي بنفسه عن قصر خلافته لاجئاً إلى برية سلطانه وآفاق بلدانه مُقيماً في قصوره الأخرى المنيفة والمنثورة في نواحي دولته، واثقاً تمام الثقة بقدرة وزيره البرمكي وأمه من ورائه على إدارة شؤون الحكم والرعية.

-6-

كانت في مجلسها..

الذي لا تزهو فيه وتتألّق إلاّ مساءاً، عندما تخلو إلى نفسها مزيلة عنها متاعب يومها وأعباء حجابها، مغتبطة بتعاظم قدرها ومقامها داخل القصر وتاريخه الباهر.

كانت مُستلقية على ظهرها بأناقة السواد مُسترخية هادئة إثر بخور زكي إستنشقته على مهلٍ في طقس مجلسها، فداعب سريرتها وأضفى عليها دفء وحدة فخمة وثيرة بها.

إنها الخيزران بجلال وأُبهة هذه المرة في زمان ولدها هارون الرشيد، نعم، إنها هي التي كانت فيما إنقضى من عمرها داخل الدهر العباسي تمارس

خذلانها وجور قدرها عليها في وحدة قارسة صدئة مؤلمة لطالما جلدتها ولسعتها بنيران القسوة والظلم.

ها هي وحدها تتمدّد بجسدها العاتي، وتُدلل روحها الثائرة بعد خلو دربها من عواقب الحلم الخارق وعراقيل المكائد وسجود القصر كل القصر العباسي لها وإتّشاحه بظل عباءتها، إذ أمام كل ما واجهته وعانت منه وإنتصرتْ عليه في حرب تحققها سيدةً حرةً من تكون زبيدة وزبانية زبيدة؟

أمام درايتها التي إكتسبتها من الألم والمعاناة وبصيرتها الناشئة بجهد وإجتهاد من إثمد عينيْها، من يجرؤ على مواجهتها أو حتى على المسّ بحضورها في حجاب العرش؟

نعم لقد واجهتهم جميعاً، إنقضّتْ عليهم لبؤة من نار وشغف وشهوة وإنتصرت لتنال في النهاية هذه الجلسة الهنية العابقة ببخور سماوي تغلغل في مسامات نفسها، مُحتفياً وفَرِحاً بها أفلا تستحق؟!

من يسبقها؟ من يتفوق عليها؟ فكلّهم كلّهم وراءها مُحتشدون لاهثون خلف عباءتها، وهي التي تقودهم وتسودهم في نشأة عرشٍ خيزراني وعهد ذهبي أهدته لهارون قائلة له:

– خذ يا ولدي.. خذ يا أمير المؤمنين فكل هذا العرش لك.

وهي كانت له أيضاً، بحلمها وشغفها وسطوتها وصهيل شهوتها، حمته وحرسته مُتوغلةً في لجة العماء في سبيله وسبيل نوره، فهل كان هذا أوْج مُشتهاها وأمد حلمها؟

في جلستها هذه المتأبّدة الظل المُتَسربلة بالطيب والعطر هل سيكون هذا الرضا سرمديا؟

تفتحُ عينيْها..

تنظرُ إلى ما حولها بهدوء، تحدقُ في سماء ظلّها ثم تبتسم بسخرية، إذ ترى تخبط زبيدة وحزبها ورعبها من قاتم ليل الخيزران وخلو القصر وعاصمة القصر من خليفة لجأ إلى برية خلافته ليخفّفَ عن نفسه أعباء السلطان، بعد أن مسّدتْ أمه على عرشه بأنفاس حجابها الحارسة قائلة له:

- أنـا أمحـقُ كل اللعنـات وألتهمها لتحلّ عليك بعد ان يشـتد عود خلافتك البركات، فامضِ يا ولدي،، إسمح لي بأن اصنع لك من حجابي أفقاً.

فمضى مُخلّفاً وراءه أماً ما لبثتْ ان أنهتْ تلك الصراعات الخفية على وجه الشهوة بكل حكمة وهدوء لصالحها وصالح وزيرها البرمكي.

كانت هذه هي مواجهتهـا الأخيرة التي إنتصرتْ فيهـا وأذلّتْ كافة خصومها وأعدائها الذيـن باغتتهم بضيق هارون من أجـواء القصر الملبـدة بالفتن، وإبتعاده عنها مُبدياً لحزب زبيدة بأن أمه ولا أحد سوى أمه من يقوى على حمل العرش وحجابه.

إذ كنَسَتْهم الخيزران من القصر وعلى رأسهم الفضل بن الربيع بتهديدٍ خفي مخيف:

- لا أحد سـيقيكم الآن من شـر غضبي وحجابي، فانصرفوا من أمامي ومن قصري حتى لا تنزل عليكم لعناتي.

فارتاحت منهـم ومن نفّاثات زبيـدة بالعُقَدْ، وسَـمتْ وحدها، لـم يكن أحد معها هي التي لطالما حلمتْ بأصل نبيل ونسب كريم وأُسرة ذات عزة ومنعة.

كانت وحدها بعدما فشـلتْ بتحقيق هذا الحلم المسـتحيل لتحرز في حرب تحقيقه رفعة المقام وجاه الحجاب.

تنظرُ إلى ما حولها..

لا ترى أحداً، لا ترى أسـرتها البائدة التي لم تعثر بها أبـداً على ما يرضيها ويهـدئ مـن روع جرحهـا وأمانيهـا، إذ مـا أن ذوتْ بهجـة إلتئـام الأسـرة حتى إنتفضتْ الخيزران من جديد رغم أنها قد أصبحت سـيدة حرة كما إشتهت دوماً أن تكـون، وزوجـاً للخليفة وأمـاً للخليفتيـن إلاّ أنها لـم تتوقف، بـل أمعنتْ في درب الحلم يُنيره لها تطلعهـا البريّ نحو أفق رحب يسـتلقي فيـه الرضا بجانب الإكتفـاء، وتقدمـت وتقدمـت وتقدمت ثم انتصـرت مُخلّفـة وراءها عصـراً ذهبياً يستنشق فيه ولدها هارون أريج المجد والسـلطان، وضربتْ جذورها في الأرض العباسـية لتتجذّر أصلاً ثابتاً راسـخاً ولتُزهر بالنهاية نسـباً خاصاً بها، يمتد بسموّه سليلها وابن عشقها وبنيه من بعده.

إذ خلقتْ من الركام وعمق الخسران أسرتها التي غرستها في جبين التاريخ رغم أنفه الذكوري.

ويحها فقد كانت آية دهرهـا هي التي أنجبتْ من جعلته في خضمّ سلطانه من بعدها يأمر الغيمة قائلاً لها: "إذهبي حيث شئتِ يأتيني خراجك".

تبتسم..

فليس ثمة ما يستحق أن تواجهه أو تكترث لأمره الآن، ليس ثمة من يُرديها مرة أخرى بلعنة الجواري ويقذفها في عتمـة المذلة، ليس ثمة ما تعجز عنه وعن إمتطاء صهوته.

إذ هي تتربّع على عرش الدولة العباسـية الشـاهق الآن في سـديم الشـهوة، وكل ما واجهته وإنتصرتْ عليه يقبع أسفلها في هاوية إنتقامها.

تبتسم بحدة..

ثم تترجّل عن عتمة مجلسـها وتجول فـي أركانه الفخمة، فهـي من أحالت لعنة جناح الحريم إلى بركة تحرسها وتحميها من مغبّة القصر والفتنة الدامية.

لا لـم تنسَ تلـك الأيـام الحريريـة الزائفة حيـن كانـت لا تملك مـن قلبها وفطنتها وفتنتها شـيئاً، ليصبح فيمـا بعد جناح الحريـم مهد بركتها السـوداء التي يتمسّح بها ظلّها.

وحدها في فضاء مجلسـها تُحلّق وتتذكر وتسـتخرج من بئـر ذاكرتها كل ما واجهته في حياتها..

ترتعش.. تتذكر كل شـيء سـوى ليلة واحدة ترفض الوقـوف أمامها والنوم فيهـا أو حتـى تناولها ببعـض الذكـرى والأنين، هـي ليلة الظـلال الراقصـة، ليلة الأختناق الأخير ورحيل من لم تعهده يوماً ولداً منها بل دماً لطخ نقاء حلمها.

تنتفـض للحظة.. كمـا لـو أن ألف نصـل إخترق جسـدها الأبيـض الغض، تهرب من تلك الليلة الخاطئة إلى إستنشـاق عبير ما قامت به في صباح مجلسها هذا، حيـث مضتْ إلى جنـاح الحريم فـي القصر برفقـة صاحبة عمرهـا خلوب، ووقفـت فـي منتصفـه بتمـام عافيـة شـموخها وصحـة طولهـا الفـارع ثـم هتفت بالجواري اللواتي سجدن إجلالاً لها:

- إنهضن وإذهبن فأنتنّ حرائر.

هكذا ألقت على جواري القصر حريتهن وإعتاقهن بأربع كلمات من نور وبركة، ثم غادرتهن في لحظات كما دخلت عليهن، مُخلّفة وراءها ذهولهن وإنفجارهن ببكاء غسلن به أجسادهن التي حررتها الخيزران من رجس القصر وحريره.

سألتها خلوب اللاهثة من هذه المباغتة المذهلة"

- ويحك ماذا صنعتِ فقد أقفرالجناح منهن؟

أجابتها الخيزران بإنشراح وسعادة طاغية وهي تعانقها:

- حققتُ ما كنتُ أشتهيه وأحلم به دوماً.

في مجلسها..

تجتاحها تباريح عشق خفي مكسور لم يزل يخفق به فؤادها، فتتنهد بحرارة ثم تنتقل إلى مواجهة سؤال لطالما طاردها وحاصرها بقسوته:

هل أحببته حقاً؟

هل عشقتِ سيد أمرك في آلاء الليل وأنينه؟

هل كنتِ مشغوفة بالمهدي؟

تتململ في سريرها..

ترفع رأسها.. تتذكر أيامه وتُعلّق على جسدها الناهد والفارع سؤال عشقه، ثم تجلس على بساط مجلسها الناعم، وتنطلق على متن شوقها له إلى أرض ذكراه الشاسعة بعشقه لها وتفانيه برعايتها وإعتاقها، وحسن إصغائه لها هي التي تملّكته في غفلة تولّهه بها، إذ أسعفها قدرٌ ما بصواب بصيرة أحاطته بها وهي في عز حجابها، ليعلو مقامها لديه حتى قضى نحبه في سبيل حبها وأمانيها، فانكبّتْ على إنفاذ ما وصّته به إلى أن صنعت لهارون الذهب والمجد وهذه الوحدة العظيمة التي تستريح بها الآن من شهوة العرش ووزيرها المخلص يحيى البرمكي الذي لم يكفر بنعمتها وعشقه المكتوم لها، وإغداقها هي عليه بثقةٍ ودولةٍ كل الدولة العباسية.

لقد سادت أخيراً فما الذي تصبو إليه أكثر من هذا السلام النفسي الذي

تتدلل وتتراقص فيه الآن، سادتْ إمرأة أحدثتْ أثناء سعيها وراء إخماد شهوة جرحها وحلمها حجاباً تحكم من ورائه وتدير العرش العباسي لثلاث سنوات زاهيات وارفات إستظلّ في فيئها هارون الرشيد ورضي بها هي..

هي الخيزران فقط لا غير..

تنهض..

تقفُ في منتصف المجلس الموشى بنورٍ فجريٍ كما لو أنها تذكرت أمراً مهماً، ثم تدنو بتؤدة ودلال من سريرها، تنحني لتسحب من أسفله صندوقاً خشبياً، ثم تفتح عُتْقه بيديْن مُرتعشتيْن، تحدق في محتوياته لبضع لحظات ترى فيها سحيق ماضيها.

تُخرج منه عباءة سوداء عتيقة مُغبّرة يكسوها أثرُ رجل...

تضمّها إلى صدرها، تحتضنها بقوة، تستنشق رحيقها العتيق وتعبق بها وهي تُقبّلها بلهفة ودمع.

تضعها على السرير بحرص تام، ثم تعود برعشتها إلى الصندوق فتُخرج منه سُبحة طويلة من العقيق واللؤلؤ وحجر إثمد صغير.

تُطوّق عنقها بالسبحة، ثم تدقُّ الإثمد كحلاً تُزيّن به عينيْها السوداويْن لتُنيرا قمرين هائميْن في السرمد.

تقف أمام مرآة زمانها المديد وتنزع عنها ثياب القصر العباسي ببطء مثير إنتهى بعُريها الصارخ.

تتفرّس في ملامح جسدها المنعكس بالمرآة بهدوء وطمأنينة..

هي..

امرأة..

بحق..

قد خُلقت من أثير النجوم وطرب القمر وعبق الورد..

لم يمسسها الكِبَر، فممشوقها لم يتجاوز عمر نشأتها ومهد عظمتها وحلمها..

سبعة عشر عاماً..

سبعة عشر ربيعاً للفتاة التي رماها الزمان بقدرٍ أكبر منها فأينعتْ وأزهرتْ وغدتْ أكبر وأعظم منه ومن جرحها..

تُحدق بالمرآة..

لا لم يراوحها ذلك العمر الواعد الذي واجهت بأزهاره الثائرة كل ما أحاط بها من مسكنة ومذلة وجراح..

لا لم تكبر..

من قال هذا؟

أهو التاريخ لا أُمَّ له هو المتغطرس بذكوريته وإنتفاخ هيبته الزائفة؟

أم الورّاقون الذين كانوا يُصفقّون برِقّهم وأسفارهم لرجل الأمر وصاحب المقام الأعظم؟

لم تكبر.. بروح متمردة حلّقتْ بها إلى أعالٍ لم يطلها ليقطف من مجد نجومها سواها..

تُحصي شاماتها..

وتَنْظم منثور نمشها وزغبها في قصيدة عمرها كل عمرها..

ثم ترى الصحراء.. كل الصحراء المزدانة بفجرها الأبدي..

ترى إبنتها البانوقة تلوح لها بفرح في حجر أبيها المهدي على متن فرس بيضاء من غير سوء..

ترى هالة تشي بوجه أبيها الذي لم تره في مهد طفولتها سوى ظل باهت تبدّد من قيظ القهر وضيق الحياة..

ترى حزن أمها الجليل وصمتها الذليل.

ترى كل الذين أحبتهم وتُحبهم ينظرون إليها بسعادة غامرة وسرور ورضا..

فتختلسُ إبتسامةً خجولة من حزنها المُهيب ثم تُمسّد بيديها على جسدها ببطء ونعومة من أخمص قدميها حتى ليل شعرها السرمدي، ثم تُمسك العباءة وتستر بها عُريها..

ترفع رأسها بكبرياء وشموخ..

تضمُّ العباءة إلى جسدها بقوة، فتنتابها قشعريرة حادة، فتهمسُ بتمتمات

غير مفهومة في طياتها كما لو أنها تهمس بأذنِ امرئٍ مختبئٍ بها..

ثم تنسلُّ إلى سريرها وتستلقي على ظهرها..

تنثرُ شعرها الساحر الفاحم على عرش ظلّها

تُعانق نفسها... تتنهّد.. تشهق.. تبكي..

ثم تتنهّد وترتجف وتصرخ ثم تتنهّد

تشهقُ.. تبكي..

ثم تتنهّد وترتجف وتصرخ

ثم تتنهّد وتنهض وتنتفض

ثم تعود إلى السكون من جديد في عباءتها..

ثم تتنهّد وتحلم وتتنهد وتحلم ثم تحلم حتى مطالع دهرها المديد ومجدها التليد ثم تغفو..

ثم تنام..

تنام كما كانت..

كما هي..

كما ستكون..

مقّاء لا تنحني..

خيزران لا تنكسر..

-7-

في اليوم التالي..

كان الخريف قد ساد القصر بريحٍ جافة صدئة، فذُبلَ تفاح السلطان وجفّتْ دماؤه وذوت أزهاره، وانتشر نورٌ خارقٌ في الأرجاء، لم يقوَ على شدته ظلٌ من الظلال فطغى بسطوعه الناري وفضّ السواد، وتلبّدت السماء بالدخان وترددت في الأنحاء أصداء بكاء طغى عليها خافتا حزينا بأُذنِ الدهر العباسي:

"رأيتُ الرشيد يوم ماتت الخيزران –وذلك سنة مئة وثلاثة وسبعين هجرية وعليه جُبّة سعدية وطيلسان خرق أزرق قد شدَّ به وسطه، وهو آخذ بقائمة

السرير حافياً يعدو في الطين، حتى أتى مقابر قريش فغسلَ رجليه ثم دعا بخُفٍ وصلّى عليها ودخل على قبرها".

ثم رثاها باكياً:

"وكُـنّـا كـنـدمـانـيْ جذيمة برهةً في الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

فـلـمـا تـفـرّقـنـا كـأنّـي ومـالـكـاً لطولِ إجتماعٍ لم نبتْ ليلة معاً"

تمت

من أواخر ديسمبر 2012

وحتى بدايات نيسان 2013

باسم الخندقجي

تعقيب أدبي وتاريخي

كافة النصوص والجمل الواردة ما بين مزدوجيْن هي إقتباسات كاملة وواضحة وصريحة كنتُ قد إقتبستها دون أن أخصص في فصول الرواية هوامش تصنيفية تشير إلى اصولها وأرقام صفحاتها لكي لا أُلفِت انتباه القارئ باستثناء الفصل الثاني لخصوصيته التاريخية التامة.

لعلّ القارئ في انهماكه بإثبات ما كنتُ قد تناولته أنا في عملي المتواضع هذا يُصاب بالذهول المرير تارة واللذيذ تارة أخرى.

وأما الكتب والمراجع التي غذّتْ النص وخدمته خدمة جليلة هي التالية:

1. أدب الدنيا والدين: الماوردي.
2. الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي.
3. تاريخ الأدب العربي: حنا فاخوري.
4. الحب عند العرب: المكتب العالمي للبحوث.
5. الخلافة العباسية: فاروق عمر فوزي.
6. الخلافة العباسية: عبد المنعم الهاشمي.
7. الدولة العباسية: محمد الخفري.
8. السادن والناقة: حسين البرغوثي.
9. سلطانات منسيات: فاطمة المرنيسي.
10. صحيح مسلم: الإمام مسلم.
11. العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي.
12. القرآن الكريم.
13. مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن ابن خلدون.

مسك الكفاية

سيرة سيدة الظلال الحرة

رواية

باسم خندقجي

• روائي وشاعر من فلسطين

«... ثمة ناحية في جنوب الجزيرة العربية خارجة على حكم الخليفة العباسي، وقد جاءت سرية جند من جيش الخليفة أبي جعفر المنصور لإخضاعها. وثمة في موازاة هذا المشهد الدموي أسرة فقيرة الحال من شبوة في حضرموت، مات معيلها قبل عشر سنوات، وراحت الأم الوفية تعمل هي وابنها الكبير في حقل لتحصيل الرزق للأسرة. وثمة في بؤرة السرد فتاة جميلة هي بطلة الرواية التي تأخذها المقادير إلى حيث لم تكن تتوقع، لتصبح سيدة الظلال الحرة على رأي الكاتب، ولتجابه ذكورية التاريخ وتنتصر عليها.

ومن هنا، لا بد من الانتباه لتفاصيل المشهد الذي يسبق لحظة المفاجأة: فتاة ممشوقة القوام فاتنة، وأمها دائمة القلق عليها، والفتاة لا تطيق البقاء في البيت، فتذهب إلى الحقل حاملة الطعام إلى أخيها، وفي الطريق يقبض عليها أمير الجند، ويظن أنها تحمل الطعام للمتمردين على الخليفة. يدهشه جمالها، وبجملة واحدة يحكم على مسار حياتها اللاحق: أنت ستكونين هديتي إلى مولاي الخليفة.

نحن أمام تجربة روائية لافتة للانتباه، تشير إلى عصر سبق لنا أن قرأنا عنه في كتب التاريخ، لكننا هنا أمام عالم مشخّص من طموحات البشر ومن مكائدهم ودفاعهم عن ذواتهم، ولو جاء ذلك على حساب آخرين لا ذنب لهم ولا جريرة. وقد جسّد باسم خندقجي ذلك كله بسرد ممتع جميل، وبلغة فيها من الشاعرية ما يكفي، وباقتباسات من الشعر والنثر العربيين ومن سرديات التاريخ، وبحوارات متقنة قادرة على كشف لواعج النفوس ومكنوناتها.

إنها رواية جديرة بالقراءة، ولا يفوتني في هذا المقام أن أرسل أحرّ التحيات والتمنيات بالإفراج العاجل، للروائي الشاعر الأسير: باسم خندقجي».

محمود شقير

• صدر للمؤلف أيضاً:

مجلة الابتسامة
www.ibtesama.com

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN 978-614-01-1257-5